

البقـــــرة

التاريخ الطبيعي والثقافي

حنّة فيلتين

ترجمة: صخر الحاج حسين

سلسلة الحيوانات

البقرة

التاريخ الطبيعي والثقافي

تأليف: حنّة فيلتين

ترجمة: صخر الحاج حسين

مراجعة: د. أحمد خريس

سلسلة الحيوانات



الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

PZ10.3 .V4512 2011
Velten, Hannah
البقرة / تأليف جنّة فيلتين؛ ترجمة صخر الحاج حسين؛ مراجعة أحمد خريس.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
226 ص ؛ 13.5×19 سم.
ترجمة كتاب: Cow
تدمك: 978-9948-01-683-0
1 - الحيوانات - قصص الأطفال. 2 - الحيوانات والحضارة.
أ- حسين، صخر الحاج. ب- خريس، أحمد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Cow by Hannah Velten was first published by Reaktion Books in the Animal series, London, UK, 2007



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+
فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

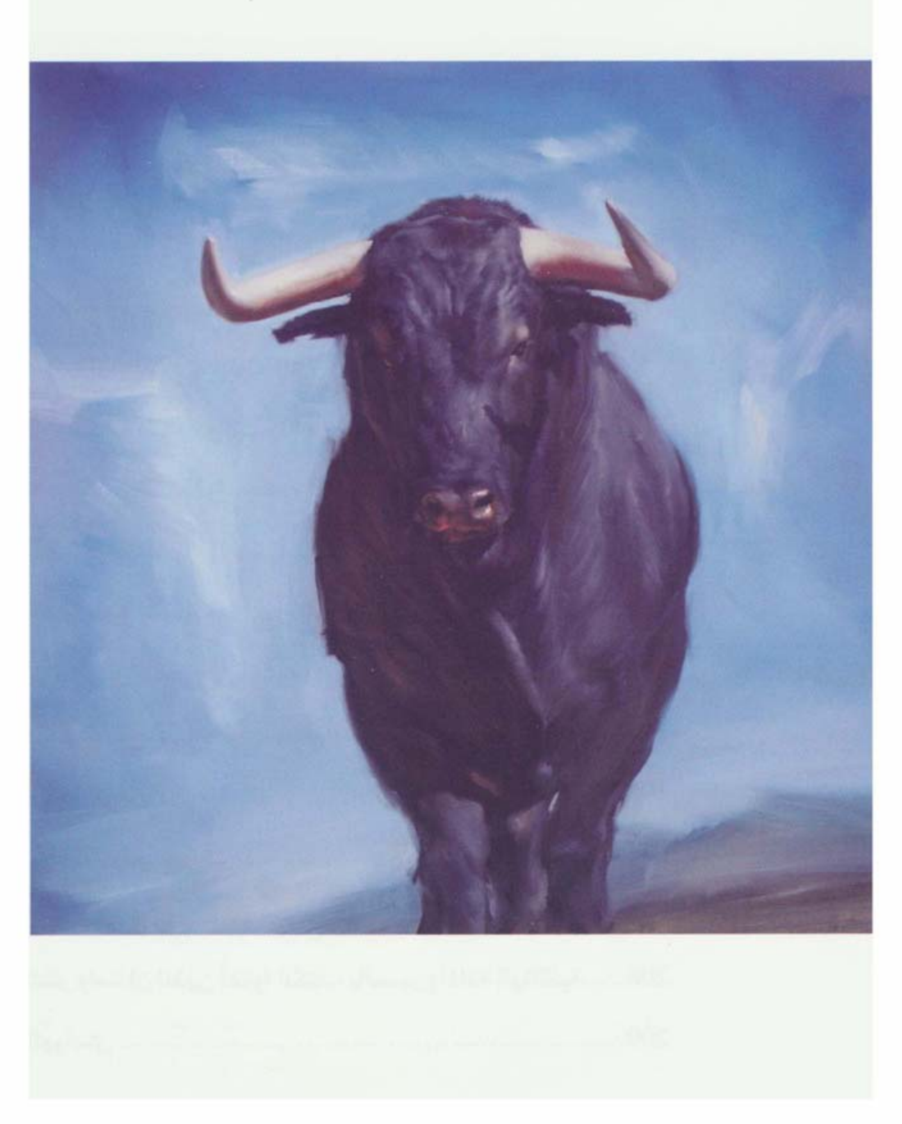
البقرة

التاريخ الطبيعي والثقافي

إهداء

إلى شقيقي كريستيان فيلتين

المحتويات



العالم، كما أُقرّ بكلمة «بقرة» في 539 لغة، ولهجة مختلفة[iii]. ورغم ذلك يختفي جُلّ هذا النوع من الحيوانات في مزارع الغرب، حيث لا يتسنى سوى للمحظوظين من البشر أن يتواصلوا معها.

تتجذر في العالم الغربي الحديث ثقافة تتصل بجميع أنواع الماشية، لكن ما يدعو للأسى أن تلك الثقافة لا تُسعد الأبقار نفسها؛ لأنها سخّرتها للتعاملات التجارية، وباتت تشكل سلعة تجارية مهمة: ثقافة أملاها المستهلكون، ومطاعم الوجبات السريعة، والمحال التجارية، والذين يعالجون اللحوم ومسالخها ومن ينقلونها، وأولئك الذين يجعلونها سلعاً يتم التدليل عليها، هذا بالإضافة إلى تجار التجزئة، والأطباء البيطريين والعلماء، وبعض الجمعيات الحالمة، التي ترتبط بإنتاج الماشية الحديث. يستثنى من تلك الثقافة، رؤية هذه الماشية في محيطها وهي ترعى في الحقول.

ثمة سؤال لزام علينا أن نطرحه، ماذا يعني هذا كله للأبقار، ولعلاقتنا بها؟ لا تنفك مجتمعاتنا المدينية الكبيرة تطالب بكميات ثابتة من الحليب الصحي واللحوم الحمراء التي تخلو من الدهون، والجلود ذات النوعية المميزة والأسعار المعقولة، وكانت النتيجة أن تحولت الأبقار إلى أشياء تُستولد، وتُربى، وتنمو وفق مواصفات وضعها لها تجارها وسماسرتها، ومن تعامل بها، وبأسعار زهيدة قدرَ الإمكان، ما يعني أن اقتصاديات تلك المقاييس هي التي أملت وسائل الإنتاج وطرقه.

ورغم أن الماشية كانت قد نجت بنفسها من مآزق الإنتاج الكبير للحومها، وسيرورات التصنيع المكثفة، مقارنةً بالخنازير والدواجن، فثمة قلة من البشر يعتنون بالأبقار الآن، إذ اختلف الحال عما كان عليه في الماضي. يصدق هذا على مخازن اللحوم المؤتمتة، كما يصدق على الماشية التي تمت تربيتها في مراكز ومزارع بعينها في أمريكا اللاتينية وأستراليا.

وإذا كان هناك قليل من البشر ممن يعتنون بالماشية ويرعونها، فجليّ أن غالبية من يتناولون لحومها، ويشربون حليبها ويستخدمون جلودها، لايمتّون بأدنى صلة لها؛ لأن معظم إنتاج الماشية ونقلها وذبحها يتمّ خلف أبوابٍ موصدة، فلا تتشكل آراؤنا ووجهات نظرنا، بل وحتى مواقفنا الثقافية الراهنة حيالها، إلا عبر التحقيقات الصحفية، والحملات التي تدافع عن حقوق الحيوان، وأنصار البيئة ووسائل الإعلام، وهذا ما أفرز جهلاً شبه كامل بها. فليس سوى بعضنا من يعرف أن على البقرة أن تلد عجلها قبلَ أن تدر حليبها.

ففي عصر يستمد معلوماته من وسائل الإعلام فقط، هل يمكن للمرء أن يعرف أن البقرة المترنحة مصابة بمرض «جنون البقر»، أم أنها بقرة «بائسة مستغلة»، أم هي جرادة ذات حوافر وتلوث البيئة[iv]، أم «بقرة مقدسة» لها اعتبارها؟

وإن نحن نحّينا البقرة بوصفها «كائناً مقدساً»، فإن الصور التي جاءتنا عن الماشية سلبيةٌ في جوهرها، لكن ما يبعث على الأمل أن تاريخها الثقافي محكم الإغلاق، يعيدنا إلى الثور البري والبقرة والثور الداجن كما رآها أسلافنا، من وجهة نظر إيجابية كخصوم مخيفين، وكائنات أسطورية، وثروة تمشي على أقدامها، وصحبةٍ محترمة من الحيوانات.

المصطلحات التي استخدمت في الكتاب هي:

Bull ذكر خالص.

Cowبقرة أنثى، ولدت عجلاً.

Heifer عجلة لمّا تتحول إلى عجلة كبيرة.

Ox ذكر مخصي يستخدم كرمز للقوة.

Steer الثور الصغير الذي يستخدم لإنتاج اللحم.



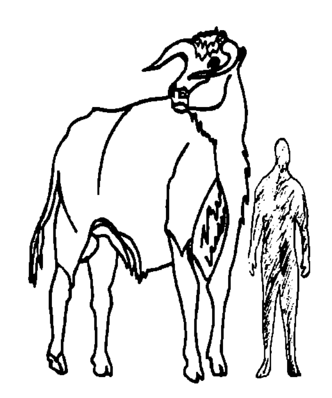
جون كيني سيدة ترتدي الأبيض، 2005، طباعة جيكلي على خرقة هانييوهل. بين بقرات مقدسات في غويجارات- الهند.

1- من ثور بري إلى داجن

تطور الأرخص Aurochs (الثور البري الأوروبي)

تنتمي الماشية، داجنة كانت أم «أصيلة» إلى مجموعة (Artiodactyla)، وهي (ثدييات بعدد متساو من أصابع القدمين). ومع الخراف والماعز والظباء، تنتمي الماشية إلى الحيوانات العاشبة المجترة ذات القرون، والتي تسمى (bovidae) أي «السلالة البقرية». ضمن هذه السلالة تنتمي الماشية إلى (bovinae)، وهي سلالة متفرعة عن الأصل وتنتمي إلى جنس «bos». تحدّرت الماشية الداجنة في أرجاء العالم قاطبة من نوع بري واحد يسمى (bos primigenius)، وهو الثور البري أو الأرخص الذي انقرض مؤخراً (يتطابق مفرده وجمعه لفظاً). رغم ذلك فإن الممثل الأقدم عهداً لجنس bos سميّ سابقاً Leptobos الذي ظهر في الحقبة البليستوسينية (تعود إلى مليوني سنة خلت) في قارة آسيا. كانت هذه

كان أسلاف الأرخص الأولية هزيلة إلى حد ما، وتشبه الظباء، وترتفع قاماتها إلى مترين عند الكتفين.



الثدييات الشبيهة بالظباء، هزيلة قليلاً وتنتصب إلى مترين وبطول يقارب الثلاثة أمتار. تطور (Leptobos) إلى bos primigenuis خلال أواخر الحقبة البليستوسينية، في الوقت الذي توسعت فيه المساحة العشبية في أصقاع العالم، وهاجرت حيوانات الأرخص إلى الشرق الأوسط، وإلى شمالَي غرب إفريقيا، لتصل أخيراً إلى أوروبا منذ 250000 سنة خلت(v).

انتشرت حيوانات الأرخص في ذروةِ تطورها، في المناطق ذات الطقس المعتدل من نصف الكرة الشمالَي، لكنها لم تصل إيرلندا واسكندنافيا الوسطى، أو الشمالية ولا حتى إلى أمريكا الشمالية. ولكي يتسنى لنا التعامل مع هذه البيئات المختلفة في هذه المنطقة المهولة، تطورت تلك الحيوانات إلى ثلاث سلالات مختلفة:

للنموذج الهندي / الآسيوي -bos primigenuis namadi cus، ونموذج الشرق الأدنى والنموذج الأوروبي bos Primigenuis premigenuis، والنموذج الإفريقي bos primigenuis africanus (opisthonomus(vi).

تميز عالم تلك الحيوانات بالرطوبة والاخضرار أكثر مما هو

عليه الآن. واختارت حيوانات الأرخص أن تعيش في وديان الأنهار والغابات السبخية (مستنقعات الغابات) ومثل أسلافها الداجنة كانت عاشبة أصيلة، أكثر منها حيوانات ترعى الأعشاب فحسب. فغذاؤها كان يحتوي على الأعشاب والكلأ وأوراق الأشجار واللحاء في الربيع والصيف، وعلى البلوط في الخريف، وعلى الأوراقِ الجافة في الشتاء. وحتى تهضم هذا الغذاء الليفي فإن معدة هذا النوع من الأبقار، تنقسم إلى أربعة فصوص مميزة: المعدة الأولى، والمعدة الثانية، والمعدة الثالثة، والمعدة الرابعة. تسمح هذه المعد متعددة الفصوص لتلك الحيوانات، أن تأكل هذه المادة النباتية، التي تعد خشنة وقاسية بالنسبة لمعظم الثدييات الأخرى بما في ذلك بنو البشر. ففي البداية تُخمّر الألياف، ثم تُهضم في المعدة الأولى، ثم يُمخض هذا التركيب من الطعام بتقلصات إيقاعية، من مرتين إلى أربع مرات في الدقيقة الواحدة، وبعون من العضويات الدقيقة، وبكتريات المعدة الأولى تتحلل الألياف. وعندما تستريح الماشية تُخرِج طواعية بعضاً من محتويات المعدة الأولى وتمضغها لبعض الوقت، ثم تبتلعها من جديد، حيث تمررها إلى المعدة الثانية. تسمى هذه السيرورة المستمرة من المضغ الثاني بالاجترار أو مضغ الجِرة، ويمكن أن تحدث لثماني ساعات عند الماشية[vii].

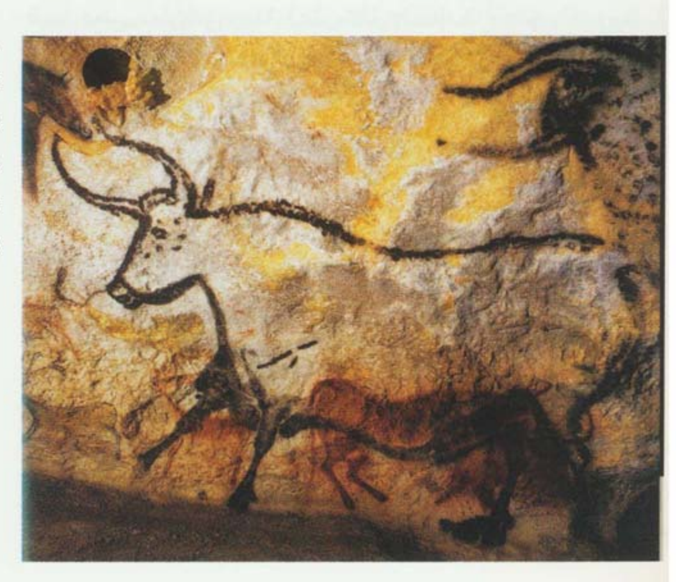
طرائد مخيفة

بإمكاننا أن نرى الدليل الأول على الاتصال البشري مع حيوان الأرخص في رسومات الكهوف الأوروبية. فبعد الحصان والبايسون (الثور الأمريكي) يأتي الأرخص في المرتبة الثالثة من حيث تجسيده رسوماً خلال الحقبة الباليوليثية العليا[viii]. رغم ذلك ففي كهوف لاسكوكس في جنوب غربي فرنسا (تعود تلك الرسوم إلى عام 17000 قبل الميلاد) قفز حيوان الأرخص إلى المرتبة الثانية، بعد أن صُوّر ورسم لاثنتين وخمسين مرة. وهناك أيضاً الأشكال الرائعة

في روتوندا (قاعة الثيران)، والأبقار والثور في الآكسيال غاليري (المعرض المحوري)، وهناك البقرة السوداء العظيمة في صحن القاعة.

مازال من غير الواضح ما تمثله صور الأرخص هذه، لكن، ولأن الرسومات لم تُحجب، وإنما وضعت في المناطق المركزية من الكهوف، فَجليّ أن الأرخص كان حيواناً على جانب من الأهمية. ربما تمثل هذه الرسوم سجلاً من تذكارات الصيد، أو أنها قدمت وظيفة اجتماعية أو دينية، وربما كانت طواطم لجماعة قبْلية (بدائية)، أو رموزاً لقوى خارقة. لكن أياً كان الغرض منها، فإن الفن الذي نُحت في الصخور يعطينا فكرة عمّا كانت عليه حيوانات الأرخص الأوروبية، التي عاشت في الحقبة الباليوليثية.

رغم أنها كانت حيوانات ضخمة الحجم ببنيات وكأنها مربعات، فقد كانت هناك فروقٌ كبيرة في الحجم بين الجنسين، وهذا ما ضلل



«قاعة الثيران في كهوف لاسكوكس فرنسا، حيث تهيمن صور حيوان الأرخص على الجدران والسقوف.

الأركيولوجيين وعلماء الحيوان، وجعلهم يستنتجون خطأً أن ثمة حيوانات قزمة بينها [ix].

كانت الأبقار أصغر، وأخف وزناً، وأما الرؤوس فقد كانت أكثر هزالاً، والقرون أقصر من مثيلاتها عند الثيران، التي كانت تنتصب إلى أقل من مترين وتزن حوالي 1، 3 طن. يبدو أنّ هناك تنوعاً من ألوان الصوف بين ثيران المناطق المختلفة. فثيران الشمال الأوروبي كانت في جُلّها بلون بني مائل إلى السواد، مع خطوط ضيّقة بلون فاتح على ظهورها، بينما كانت ثيران جنوبي أوروبا بنية اللون، أو رمادية تميل إلى اللون البني. بينما كانت أبقار، وعجول المناطق جميعها بنية تميل إلى الاحمرار.

تصل قرون الأرخص إلى مترين في الطولِ وتتجه إلى الأمام بدواخل منحنية. لابد أن وزن القرون كان هائلاً، لكن هذا لم يمنع حيوان الأرخص من أن يكون رشيقاً خفيف الحركة. كان الأرخص فيما مضى طريدة وجلة. عثر على قصيدة أنجلوساكسونية في شمالي ألمانيا طنانة تعود إلى القرن التاسع:

أرخص جريء غير هياب

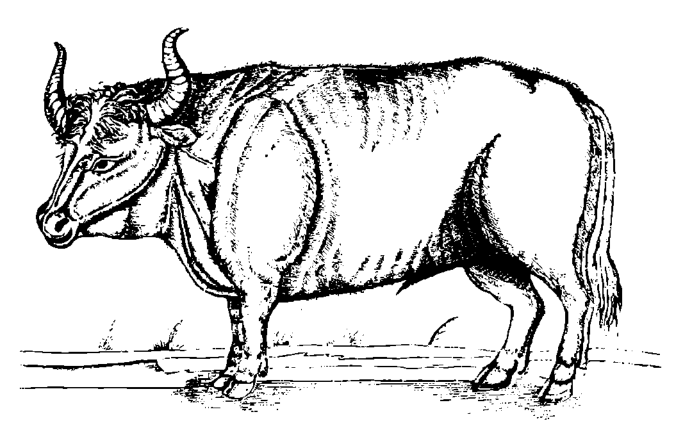
محارب ضار، بقرونه يقاتل عابر للسبخات ذائع الصيت

يا له من حيوانٍ مقدام [x].

تم توثيق صيد حيوان الأرخص، على نحوٍ جيد، لكن بمفردات التحدي التي تمثلها هذه الحيوانات. وحتى لو مضى الصيادون إلى الحيوانات الضعيفة والفتية في القطيع، فسيقاتلهم الثور الملك حماية لعجوله، وأبقاره.

ولكن ما هو السبب، الذي جعل البشر يطاردون الأرخص؟ لابد وأن جسده مجز. وبغض النظر عن لحمه، وجد الصيادون الأوروبيون الذين عاشوا، في الحقبة الميليثية (8000-3000 قبل الميلاد) استخداماتٍ أخرى لجثة هذا الحيوان. فقد استخدموا العظام

أرخص صوره هيبرستين 1549، لكنه لا يبدو رشيقاً خفيف الحركة.



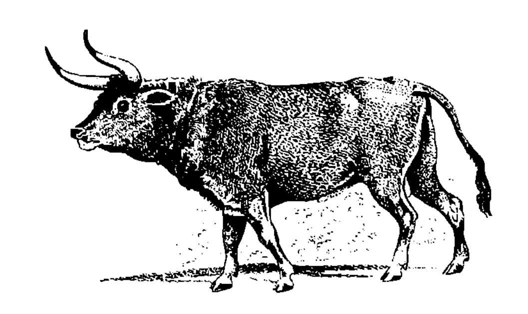
أدوات وحلي، والجلود كساء، والقرون (لحمل السوائل وتخزينها/ الديكورات التي تستخدم في الطقوس). وأما الأوتار فقد استخدمت خيوطا، والدُّسَم زيوتا[xi]. لكن ربما كانت هذه الموارد ذات أهمية ثانوية، بالنسبة للفوائد الثقافية لاصطياد حيوان الأرخص وذبحه، ويعود السبب إلى المخاطر التي كانوا يواجهونها. ففي بدايات الحضارة شكل ذلك اختباراً للرجولة، أو نوعاً من الشعائر والطقوس للشبان من الرجال عندما يأخذون قرون الأرخص بوصفها تذكارات وبقايا الأسلاف[xii]. كما بات اصطياد هذا الحيوان نوعاً من هواية تمارسها الطبقة الأرستقراطية، أو واجباً تلتزم به. لقد استخدم الملك الآشوري تيغلاث- بيلسر الأول (1115-1076) المجد الذي يقترن باصطياد الأرخص، لتصوير عدوانيته وفظاعاته وحقه الإلهي. وإليكم وصفاً للأحداث: منحني الإلهان هرقل ونيرغال خدمهما البواسل وسهامهما مجداً لدعم إمبراطوريتي. وفي ظل حماية هرقل إلوهتي الحارسة، وبسهامي الطويلة المكسوة بالحديد وبضربات قوية، سلبت في الصحراء حيوات أربعة ثيران برية قوية مفترسة، في بلاد ميتان وفي مدينة أرزيك في بلاد خاط . وجئت

بجلودها وقرونها إلى مدينة آشور [xiii].

يبدو أن أعداداً كبيرة من حيوانات الأرخص، تم اصطيادها، كما هو مبين في رسم لآخر حيوانات الأرخص التي تم اصطيادها في مصر من قبل الفرعون أمنحوتيب الثالث (1417-1379 قبل الميلاد) وجيشه[xiv]. قيل إنّ ستة وتسعين ثوراً مخيفاً قتلت خلال غارتي صيد، عندما سيقت مجموعة من الثيران، شوهدت في الصحراء إلى حظيرة تحتوي على خندق. وعندما وقعت في الفخ، ذُبحت جميعها[xv]. بعد أن انقرضت حيوانات الأرخص بوقت طويل في مصر[xvi]. بقيت في غابة هيرسينيان في ألمانيا، حيث كان يتم اصطيادها بوصفها قتلاً يكافأ عليه. التقى يوليوس قيصر (100-44 قبل الميلاد) بالأوروس urus (وهي الكلمة اللاتينية للأرخص) في عام 53 قبل الميلاد، وقدم هذا الوصف في كتابه De Bello Gallico «حرب الغاليين»: هي أصغر قليلاً من الفيلة. وأما في مظهرها وألوانها وأشكالها فتشبه الثيران. لكنها حيوانات سريعة ضارية، تهاجم البشر والحيوانات على حد سواء عندما تراهم. كان الألمان، ينصبون لها الشراك في حفرٍ ثم يذبحونها. تجعل مثل هذه



الفرعون رمسيس الثالث وجيوشه يصطادون الأرخص على طول ضفاف نهر النيل. مجسم من الحجر في مدينة هابون (معبد رمسيس الثالث للجثث) 1100 قبل الميلاد.



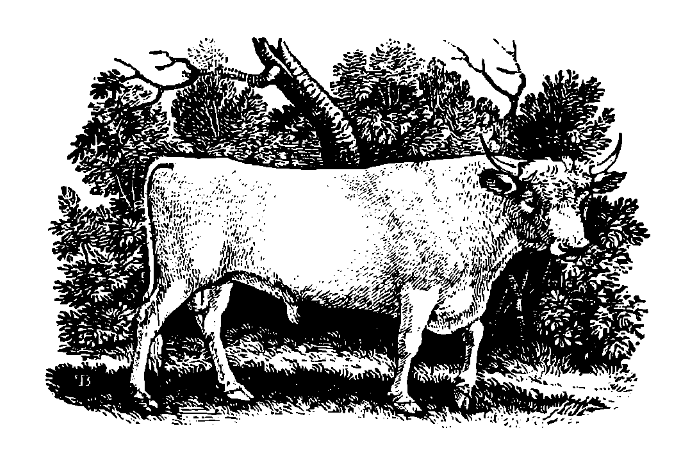
صورة للأرخص الأوغسبورغي. ربما كانت الصورة أصدق تصويرا وأدق عن آخر تلك الحيوانات. وجد عالم الحيوان البريطاني هاملتون سمث الصورة في دكان في مدينة أوغسبورغ الألمانية منذ قرن مضى.

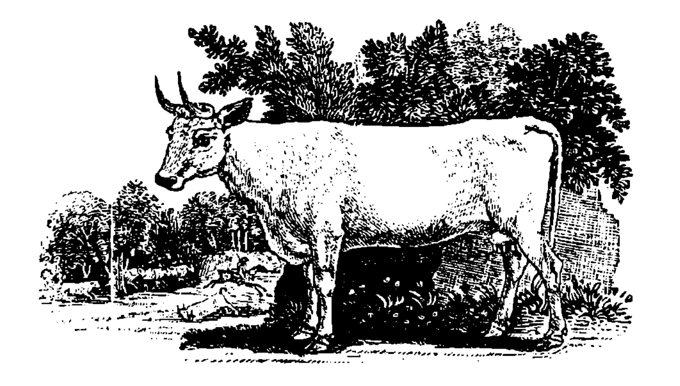
المهمات من الشبان الألمان قساة صلبين. كما يمنحهم هذا النوع من الصيد الخبرة، والتدريب. يعرض من يقتل أكبر عدد من الثيران البرية قرون تلك الحيوانات على الملأ بوصفها دليلاً علىً إنجازه، ما يمنحه الاحترام والمكانة. ولا يمكن أن تشبّ الثيران على إلفة البشر. كما لا يمكن تدجينها حتى وإن تم اصطيادها وهي صغيرة.

تختلف أحجام قرونها وأشكالها عن قرون أنعامنا وماشيتنا. فهذه تعد غنائم نفيسة، فيجعل الألمان لها حافة من الفضة، ويستخدمونها كآنية للشرب في الاحتفالات العظيمة(xvii).

وبينما كانت قرون الأرخص ترمز إلى تذكارات الصيد الرئيسة، قيل إن الملوك البولنديين كانوا يفضلون عظام القلب عند هذا الحيوان (ثمة عظمتان صغيرتان في قلبه)، وجلد الجبهة الخشن الأجعد كتذكارات. كان الجلد يُقطّع في دوائر في الوقت الذي كان فيه الأرخص على قيد الحياة ثم يُسلخ. وقيل أيضاً كان يساعد الحوامل من النساء على أن يلدن بكل راحة ويسر عندما كان يقطع إلى مزقٍ ويرتدى أحزمةً(xviii).

كانت لبولندا، وما تزال، صلة مميزة مع حيوانات الأرخص، فقد كانت تلك البلاد، موطنها النهائي. وفي القرن الخامس عشر، وبسبب خسارة الموطن والمنافسة على الكلأ من قبل أحفادها





توماس بيويك «الماشية البرية» نقش من كتاب «تاريخ من كوادروبيدس» (1790): يظهر الثور ذاته في لوحة «ثور تشيلينغهام» التي رسمها في عام 1789. يسرد بيويك الصعوبات التي واجهته عندما اقترب من الماشية البرية ليرسمها دون أن تطارده.

المدجنة، بالإضافة إلى الأمراض والصيد، لم يعد بالإمكان أن يجد المرء حيوان الأرخص إلا في غابة جاكتوروفسكي رويال في مازوفسز في بولندا الوسطى، حيث نَعِمَ الأرخص بحماية قانونية في ظل التاج الملكي. ولم يسمح سوى لبعض الصيادين، الذين تم اختيارهم رسمياً كي يقتلوا الثيران الخطرة، أو تلك التي كانت تعاشر الماشية الداجنة (ما يجدر ذكره أن الذرية التي كانت تأتي من هذه المعاشرة لم تعمر



«ماشية الهيك» أو «الأرخص الذي أعيد تشكيله» يبدو هنا في «لير إكسبيرمينتال سنتر» الدانمرك 2006. متحف الهواء الطلق هذا، أحْيا القرى القديمة، وجدد أنماط الحياة الغابرة.

طويلاً). وأما السكان المحليون فقد كانوا يقومون بحراسة ميادين الصيد، ويطعمون الأرخص القش والتبن في الأشتية مقابل عدم دفع الضرائب. وفي عام 1627 قضت آخر حيوانات الأرخص نحبها.

برزت جهود لإحياء الأرخص منذ زواله وانقراضه. فقد حاول صُنّاع الأرخص الأخوان «هاينز ولوتز هيك» دعم استيلاد أنواع بدائية من سلالات محلية من الماشية في حدائق حيوان ميونيخ، وبرلين في نهاية العشرينيات من القرن المنصرم وإضفاء صفات عليها تشبه صفات الأرخص، مثل سلالة الإنجلش بارك كاتل English Park Cattle، أو السكوتش هايلاند Scottish Highland. كانت نتائج تجربتين استيلاديتين-أي الأرخص الذي أعيد تشكيله- متشابهة إلى حد كبير. وفي أيامنا هذه مايزالٍ نموذج تلك الحيوانات الذي ينسب إلىً مدينة ميونيخ الألمانية باقياً وبشكل رئيس في حدائق الحيوان والمحميات الطبيعية. وفي الوقت الذي تبدو فيه هذه الحيوانات كأنها حيوانات أرخص حقيقية (اللون والقرون) بالإضافة إلى المزاج الضاري، لم تصل البتة إلى حجم الأرخص الأصيل، كما أنها لم تحقق الفروق بين البقرة والثور.

لقد نال الأرخص مجداً مشكوكاً فيه، بما أنه شكّل أول حالة انقراض وُثقت على نحو رسمي. (الحالة الثانية هي لحيوان الدودو، وهو من الطيور التي لا ترتفع عن الأرض)[xix]. ورغم أن المناخ الجاف انتقص من موطنها، فقد كان بنو البشر هم من بدؤوا برمي تلك الحيوانات إلى هاوية الانقراض عبر الصيد (الشراك المطمورة، وشباك الصيد، والرماح والأقواس) وتطهير أراضي الغابات بغية إيجاد مساحات جديدة من الكلأ. إنها لنهاية حزينة لأنواع قدمت للحضارات البشرية أهم حيواناتها الداجنة أي الماشية.

من الأرخص إلى الماشية : لحظة حاسمة

ارتأى البشر الأوائل في حوالي عام 7000 قبل الميلاد، البدء بعلاقة حميمة مع حيوانات الأرخص الضارية. والسبب الذي دفعهم إلى ترويض هذه البهائم في الوقت الذي كانوا يمتلكون فيه الخراف والماعز التي توفر لهم اللحوم، والحليب، والجلود ما يزال مُشرعاً للنقاش. وحتى الأركيولوجيين لم يصدقوا أن أصول الماشية الداجنة تعود إلىحيوانات الأرخص الخطرة. ففي عام 1846 وجد البروفسور رتشارد أوين بقايا لماشية صغيرة بقرون صغيرة في مستنقعات فحم الخثّ في أيرلندا، التي صنفها أنها bos longifrons معتقداً أنه وجد السلف الحقيقي للبقرة الداجنة[xx].

تتفاوت النظريات بشأن تدجين الماشية، لكن إحداها، والتي جاء بها إدواردهان (نشرت بين عامي 1896-1909) تؤكد على المعاني الدينية/ الروحية التي أقامتها الحضارات القديمة مع حيوانات الأرخص (انظر الفصل الثاني). فقد كان القمر بأطواره المتغيرة على نحو منتظم رمزاً للخصوبة، وأما القرون على شكل الهلال فقد اقترنت بآلهات القمر. كما استخدمت الأضاحي الحيوانية استرضاءً للآلهات بغية الحفاظ على خصوبة محاصيلهم وحيواناتهم والإبقاء عليها، لذا فإن تقديم أعداد منتظمة من حيوانات الأرخص الأقل

عدوانية والأسهل انقياداً كان أمراً مرغوباً.

منظرون آخرون ونخص بالذكر إف. إي. زيونر (1963) قال بتدجين الماشية بوصفه حصيلة أخرى من معركة الإنسان المتواصلة لحفظ محاصيله من «نُهّاب المحاصيل ذوي الحوافر» (المقصود بهذا حيوانات الأرخص): في الوقت الذي كان فيه الإنسان يجاهد لإبعاد الحيوانات الضخمة عن حقوله، أسر العجول واحتفظ بها في مناطق سكناه، وهي عادة معروفة عن القبائل البدائية... بعد أن ربط هذه الحيوانات في معسكره، لم يكلف ذلك الإنسان نفسه عناء إطعامها، وبمرور الوقت وبغذاء لايسد الرمق، شبّ في فناءات المستوطنات البشرية جيل أصغر وأكثر هموداً، ثم أقلّ ضراوة. وبهذا انتهت تلك المجترات الضخمة التي جاءت كنُهّابٍ للمحاصيل إلى بهائم داجنة»[xxi].

بعد أن روض الإنسان وعلى نحو غير متعمد بعضاً من حيوانات الأرخص، بات من السهولة بمكان، أن يزيد من القطيع، إما بجعل الطبيعة تقوم بعملها من خلال إغواء الأرخص البري للدنو من مستوطناته (ولاسيما السبخات الملحية منها) أو من خلال أسره وتقديمه إلى الحيوانات الداجنة. ولكي نوضح كيف أفلحت الطريقة الأخيرة، وثّق تشارلز داروين في عام 1834 حملة صيد مع Gauchos (رعاة البقر الأرجنتينيين) لأسر ماشية برية أثناء زيارته لجزيرة فوكلاند الشرقية: عندما كنا نذهب إلى الصيد كانت الفرقة تسعى إلى الاقتراب قدر الإمكان من القطيع دون أن تُرى أو تُكتشف. حمل كلّ رجل منهم أربعة أو خمسة أزواج من البولاس، وهي قذيفة تحتوي على عدد من الكرات ترتبط بحبل (قوي) يُرمى بها واحدة تلو الأخرى على عدد من حيوانات القطيع التي عندما تقع في الشرك تترك لأيام إلى أن ينهكها الجوع والتعب، ثم يطلق سراحها وتساق إلى قطيع صغير من الحيوانات الداجنة، كان قد جلب إلى المكان

لهذا الغرض. ومن خلال ذلك التعامل الذي تعرض له، وكونه بدأ يخشى ترك القطيع، انصاع وسيق بسهولة إلى المستوطنة، هذا إن بقي ما يمكن أن يعينه من قوة»[xxii].

الماشية كائنات اجتماعية، ولأنها كذلك، فهي تعيش في قطعان دائماً، وينتابها القلق إلى درجة كبيرة عندما تنفصل عن المجموعة. دوّن عالم الطبيعة الإنجليزي غلبرت وايت (1720-1793) في رصده الحياة البرية التي تحيط بمسقط رأسه- سلبورن في همبشير -ملاحظاته عن القطيع: « ثمة روح مذهلة من الإلفة الاجتماعية في هذا الخلق المتوحش، بغض النظر عن الارتباط الجنسي... فالثيران والأبقار لاتسمن وحدها، بل هي تهمل أفضل كلأ لا ينصحها به مجتمعها»[xxiii]. لقد سهلت هذه الميزة، تجميع حيوانات الأرخص التي قبض عليها ثم كبحها. وللسلالة البقرية تراتبية اجتماعية دقيقة في الهيمنة ما يعني أنه وفي اللحظة التي يتم فيها القبض على القائد، سيتبعه الجميع.

ولجعل التعامل مع حيوانات الأرخص مهنة آمنة، كانت قرونها تشذب، وهي عملية مؤلمة؛ لأنها تحتوي على نهايات عصبية. وأما الذكور، فكانت تخصى. تذكر الخرافة المصرية القديمة «الأسد يبحث عن الإنسان»[xxiv]. طرقاً أخرى استخدمها الإنسان لإخضاع الماشية، بما في ذلك ثقب المنخرين ومد الحبال عبرهما ليمرر الحبل بعدئذ من فوق رأس بقرة أخرى ثم عبر المنخرين، وبهذه الطريقة تتم السيطرة على مجموعة من تلك الحيوانات، تجمعت مع بعضها بعضاً.

الماشية بوصفها ثروة

بدا أن البشر دجنوا حيوان الأرخص في ثلاث مناطق في الحقبة النيوليثية، فيما بين أعوام 6000-4000 قبل الميلاد في منطقة الهلال الخصيب في الشرق الأدنى ووادي الهندوس (باكستان حالياً)،



ثور زيبو zebu جليل يزين هذه الدمغة الآجرية لخاتم منقوش. كان الخاتم الحجري يستخدم لمهر ألواح آجرية للإشارة إلى التعاملات الإدارية، أو لختم الأبواب أو الأواني 2000 قبل الميلاد من مدينة إندوس القديمة في موهينجو دارو.

والصحراء الجنوبية الشرقية في إفريقيا، دون إدراك أهمية ما كانوا يقومون به. وبالرغم من أن لكل مركز تدجين سلالته المحلية من تلك الحيوانات، فقد تطورت الماشية الداجنة إلى نوعين مميزين: ماشية دون سنام على ظهورها bos Taurus (Taurine) التي تطورت في الشرق الأدنى وإفريقيا، بينما أنجبت الهند ماشية (zebu) ذات السنام (bos indicus).

لانبالغ إذا قلنا إن bos indicus وbos taurus لعبا دوراً على جانب كبير من الأهمية في تشكيل الحضارات، وتم ذلك على نحوٍ رئيس عبر ابتكار حلب الأبقار، وحراثة الأرض باستخدام المحراث (انظر الفصل الرابع). في الماضي أصبحت الأقوام القبلية التي بدأت بحراثة التربة على التخوم مستقرة، وبنت القرى والمدن، وعندما تزايد عدد السكان في تلك المدن باتت الأبقار والثيران الداجنة شكلاً من الثروة المتنقلة، التي أحدثت بدايات التراصف المجتمعي.

قال الباحث الروماني فارو ريتينوس (116–27 قبل الميلاد): «إن الماشية هي أصل كل النقود»[XXV]. لقد اشتقت مفردة «ماشية» من

اللغة الإنجليزية الوسيطة ومن مفردة من الشمال الفرنسي catel، وهي الكلمة اللاتينية اللاحقة captale، والكلمة اللاتينية capital التي تعني «رأس المال».

ثمة أساليب عديدة تطورت لتدوين ملكية الماشية. ففي بلاد الرافدين في الشرق الأدنى، كانت الحضارة السومرية سباقة في تطوير رمز مكتوب للإشارة إلى الماشية «أي علامةالثور». دُمغ أسلوب هذا الرمز المستمد من رأس البقرة، الذي يعود استخدامه إلى حوالي 3100 قبل الميلاد على ألواح آجرية رطبة باستخدام المِرقم. لقد استخدمت الألواح لتدوين الأعداد الرئيسة وربما لتدوين صفقات المقايضة أيضاً. وبالمثل، ففي مصر القديمة حددت صورة «الماشية» صورة بقرة بقرنين، واستخدمت لتدوين عددها، التي كان يملكها المصريون الأثرياء، والمعابد ولا سيما خلال حسابات عدد الماشية التي كانت تتم مرة كل عامين؛ لأغراض تتعلق بالضرائب. لكن ما كان على جانب من الأهمية، هو أعداد الماشية بغض النظر عن حالتها أو حجمها، أو وزنها.

لقد كانت الماشية باهظة الأثمان سواء من جهة شرائها، أو العناية بها، لذا بدأ الملاك الأثرياء يؤجرون ثيرانهم وأبقارهم إلى من يعجز عن تحمل نفقات امتلاكها. وسرعان ما أثارت هذه التعاملات روح العداء والخلافات. تظهر المدوّنات القانونية التي شرّعها الملك البابلي حمورابي في حوالي 1750 قبل الميلاد، أنه من بين 282 قانوناً موجزاً مدوناً، تم فك تشفير 29 مادة تخص الجرائم التي ترتكب ضد الثيران، وأطلق قوانين تطلق أحكاماً في دفعات الاستئجار وفواتير الأدوية البيطرية. وإليكم الأمثلة التالية:

المادة 248: إن استأجر أحدكم ثوراً، وكسر له قرناً، أو قطع له ذيلاً، أو أذى له خطماً سيدفع ربع قيمته نقوداً (طبعا لمالكه).

المادة 251: وإن كان ثوراً ضارياً، وتبين أنه ذو مزاج عدواني ولم

يوثق قرنيه، أو يربطه وإن طعن هذا الثور رجلاً حراً وقتله، فسوف يدفع المالك مينا ونصف المينا نقوداً.

المادة 224 إن أجرى جراح بيطري عملاً جراحياً خطيراً على حمار أو ثور وشفاه، فسيدفع المالك للجراح سدس شيكل أجرةً.

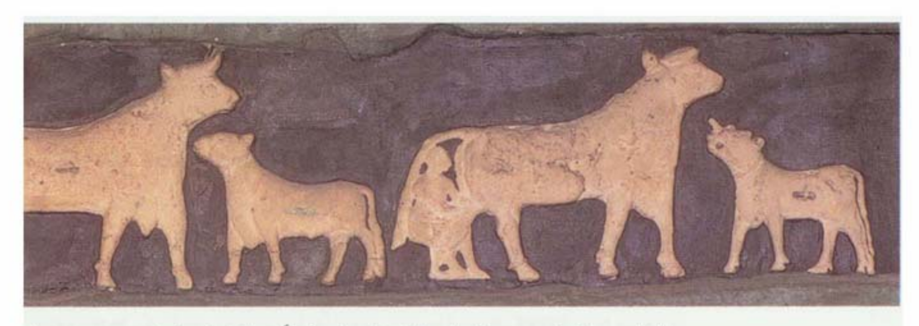
المادة 225: وإن أجرى عملاً جراحياً خطيراً على حمار أو ثور وقتله، فسوف يدفع للمالك ربع قيمته[xxvi].

وبعيداً عن تأجير ماشيتهم، زاد الملاك من ثروتهم أيضاً من خلال الاتجار بالحيوانات مع بلاد بعيدة، وبهذه الطريقة انتشر الزيبو zebu، والتورين taurine من الهند والشرق الأدنى، وذلك منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد. لقد تطورت ماشية الزيبو zebu لاحتمال درجات حرارة مرتفعة، وبيئات أكثر رطوبة ومقاومة للأمراض الاستوائية والحشرات، على نحو أكبر من ماشية التورين taurine. ولهذه الأسباب كان يتم الاتجار بها خارج الهند، وربما الأكثر أهمية الاتجار بها إلى إفريقيا الشرقية (عبر شبه جزيرة العرب) حيث كان يُعبر بها بسلالات التورين taurine تلك؛ بغية إنتاج ماشية هجينة قوية[xxvii].

وبالمثل اعتمدت كل من أستراليا وأمريكا اللاتينية مؤخراً على أنواع الزيبو zebu ؛ لإنتاج سلالاتٍ ذات مقاومة أكبر للحشرات والجفاف.

في هذه الأثناء انتشرت ماشية التورين taurine أيضا من الشرق الأدنى عبر التجارة مع وادي الهندوس، ولاحقاً عبر اليونان حيث تبعت الهجرة البشرية في الحقبة النيووليثية وذلك من طريقين: الأول عبر طريق بحري إلى غربي البحر المتوسط وأوروبا، والآخر عبر طريق برية إلى الشمال الغربي من أوروبا.

وحيثما حلت الماشية، كانت تساعد في تشكيل مجتمع ما، وباتت من المقتنيات الغالية. نقل بليني الأكبر Pliny the Elder في كتابه



دليل مصور قديم على حلب البقرات بحضور عجولها. 2500 قبل الميلاد من مدينة تل عبيد القديمة-العراق.

«التاريخ الطبيعي» (عام 77 للميلاد) أن الثيران كانت «صحبتنا المميزة»، وأنها كانت تعد من قبل أسلافه الرومان على جانب كبير من القيمة والأهمية، حتى أنه كان هناك مثال على رجل جُرِّبَ لقتل ثور قبل نهاية حياته العملية. قَتل تلك البهيمة لكي «يمتّع واحدة من محظياته، التي قالت إنها لم تتذوق كرش حيوانٍ مُجتّر من قبل، وكانٍ أن نُفيٍ، وكأنه قتل أحد فلاحيه»(xxviii). كما لعبت الماشية دوراً مركزياً في أيرلندا بعد سلالات تورين taurine التي وصلت إلى إنجلترا من البر الأوروبي، وكانت تشحن في حوالي 3430 قبل الميلاد(xxix). ومن المصادر الأدبية الأولى ظهر أن وحدات نقد أيرلندية قديمة، تأسست على قيمة البقرة، فالسيد sed كان يساوي قيمة بقرة (حلوب) وثلاث سسيدات تساوي كومال cumal (عبدة) بما أنها تساوي ثلاث بقرات(xxx).

ماشية تبقي على الحياة

لم تكن الماشية على جانب من الأهمية الاقتصادية فقط، وإنما كانت تعني البقاء على قيد الحياة أيضاً، وذلك بالنسبة لجُلّ المجتمعات الأوروبية حتى منتصف القرن الثامن عشر. عندما انقرضت ماشيتهم، تلاشى مصدر القوة والغذاء للبشر (انظر الفصل الرابع للاطلاع على الآثار الكارثية التي نجمت عن خسارة الماشية على الريفيين الأفارقة). وهذا يعني أن عناية فائقة كانت تتخذ لحماية



الحيوانات من كوارث الأوبئة (تعرف باسم طاعون المواشي) وجفاف الحليب في ضروعها. ودون أن يعتمدوا على اللقاحات، والتقنيات التي نستعين بها في أيامنا هذه، مارس الأوروبيون طقوساً اعتقدوا أنها تمنع الأمراض عن الماشية، وتبعد الساحرات اللواتي يسرقن الحليب من الأبقار. ووفق عالم الأنثربولوجيا جيمس فريزر لعبت نيران الطقوس السلتية في عيد الفصح (البيلتان-عيد أيار) وليلة منتصف الصيف، دوراً كبيراً في تطهير الأبقار[xxxi]. ولتطهير البقرة بعد الشتاء، ولجلب الحظ للسنة القادمة، كانت الأبقار تساق حول النار، أو عبر رمادها، أو أنهم كانوا يمزجون لها الرماد بماء الشرب. كان الأمر يبدو كأن طاعون الماشية قوة شريرة، يمكن إبعادها بحاجزٍ من النار بينه وبين القطيع، وأن اللهيب يحرق الساحرات ويبعدهن.

وإن حدث وحلّ الطاعون، تتلى الصلوات التي تتوسل إلى الله، ليضع حداً لهذه المحنة. وأحياناً كانت تستخدم العلقات، والطفيليات التي تنمو على الأبقار لهذا الغرض. كان أول أطباء بيطريين للماشية من هذه الأقوام، عرفوا في إنجلترا قبل أن يظهر الطب الذي يعتمد العلم والعقل. كانت مناهجهم وأساليبهم مريبة إلى حد ما، وتعتمد على سفك الدماء وعلى تنوع كبير في العلاج بالأعشاب لمعالجة الأمراض. وُصف أحد هذه الأسًاليب في علاج الطاعون في عام 1648 وتجلى في تذويب قبضةٍ من روث الدجاج في ربع جالون من بولٍ قديم

(يفترض أنه بول بقر) وتقديمه للماشية كماء للشرب، سواء أكانت مريضة، أم في خطر أم ستؤول إلى المرض[xxvii].

ورغم ذلك، لم تكن الأمراض تنتقل بين الماشية فقط، فامتلاكها كان يشكّل خطورة على البشر أيضاً. وعندما بات البشر والأبقار مرتبطين على نحو حميم (يعيشون وينامون متجاورين غالبا)، كانت فرص انتقال العدوى والإصابات تتزايد عبر الفضلات، والبول، والأنفاس، والقروح، والدم. اصطلح الكاتب وعالم البيولوجيا الارتقائية الأمريكي جارد دياموند أن يسمي الأمراض التي تنتقل من الماشية إلى البشر «بالعطايا القاتلة»، مثل السل وطاعون المواشي (الحصبة) والجدري[xxiii].

مُرّرت هذه «العطايا إلى العالم الجديد، عندما وصل المستكشفون الأوروبيون جالبين معهم الأمراض المستمدة من الماشية. فعلى سبيل المثال حمل كريستوفر كولومبس في رحلته البحرية الثانية إلى الهند الغربية (1493-6) معه عدداً غير معروف من الماشية الإسبانية الداجنة ذات القرون الطويلة، وتجلى هدفه في أن يستقدمها إلى جزيرة إسبانيولا (جمهورية الدومينيكان) بوصف ذلك جزءاً من دافع لتأسيس مستعمرة، تختلط فيها الزراعة بالتعدين، وأعمال المناَجم، أي حضارة إسبانية صغرى. وبما أن السكان المحليين هناك لم يحتكوا بالماشية، أو يلتقطوا أمراضها من قبل، فسرعان ما استسلموا إلى الجراثيم[xxxiv].

استخدامات أخرى للماشية

استمرت عمليات استيراد مزيد من الماشية البرتغالية، والإسبانية إلى الأمريكتين على نحو متقطع، إلى أن جاءت واردات الماشية الإنجليزية الضخمة، مع مؤسسي مستعمرة جيمس تاون في فيرجينيا في عام 1611. لم تصدّر هذه المواشي لتوفير الحليب، وتشغيل اليد العاملة، وتأمين الطلبات على اللحوم للمستوطنين



«بثرة البقر» صورها غيلاري كاريكاتورياً في عام 1802 وتظهر الدكتور جنر يلقح المرضى في مشفى الجدري واللقاحات في سانت بانكراس- لندن مع رؤية مخيفة لأبقار تنبثق من أجزاء الجسد البشري. جاءت كلمة لقاح «vaccination» من الكلمة اللاتينية vacca وتعني « بقرة».

فحسب، وإنما كانت رمزاً للحياة المدنية الإنجليزية أيضاً. فقد ساد الاعتقاد أنها (أي المواشي) تساعد في بناء الإمبراطورية الإنجليزية[XXXV]. أقر المجلس التشريعي في عام 1656 المجلس التشريعي في ولاية فيرجينيا إعطاء الهنود أبقاراً «إنها خطوة تساهم في جعلهم متحضرين ومسيحيين»[xxxvi]. وللفوز ببقراتهم كان على الهنود من سكان البلاد الأصليين، أن يقدموا رؤوس ثمانية ذئاب إلى موظفي المقاطعة، ومقابل ذلك يمكن أن يستخدموا البقرة لحراثة أراضيهم، وبهذا تحول الهنود من صيادين متبطلين فوضويين إلى مزارعين مستقرين يعملون في الأرض.

ربما بدا ذلك كأنه أمر بالغ الصعوبة، أن تساهم الماشية في تحضر الهنود، لكن، ومنذ أن دجنت الماشية لأول مرة، كان البشر يلجؤون إليها لتكون لهم وسطاء لتحقيق المعجزات. ولم تكتف أسرة

PLOWING ON THE PRAIRIES BEYOND THE MISSISSIPPI.—[Sketched by Theodore R. Davis.]

«حراثة المروج... » ثيران الحراثة هي رمزٌ لحياة مدينية مستقرة. حفر على الخشب (أخذ عن لوحة رسمها ثيودور آر ديفيس) من مجلة هاربر ويكلي. 9 أيار عام 1868.

شائع في الصين القديمة باستخدام الثور بوصفه حيواناً يضحى به، وإنما استخدمت عظامه في طقوس الكهانة والعرافة أيضاً بوصفها «عظام الوحي الإلهي». وكانت الأسئلة التي تتعلق بالمستقبل، تكتب على كتف الثور ثم تسخن العظام بجمرة من نار إلى أن تتصدع. وأما ما ينجم من صدوع في العظام والتي « قدمها» الأسلاف الملكيون، فهي الإجابات عن الأسئلة.

كما استخدم بنو البشر، الماشيةَ سواء أكانت حية أم ميتة؛ لأغراض غريبة هي الأخرى (بعض منها لا يمكن قبوله أو تصوره). فقد استخدم العرب لحوم الماشية؛ لتعينهم على جمع عيدان نبات القرفة، التي كانت الطيور الكبيرة تأتي بها إلى شبه جزيرة العرب. كانت الطيور تستخدم عيدان القرفة لتبطّن أعشاشها الطينية التي كانت تقيمها على جروف الجبال. يصف المؤرخ هيرودت الطريقة المستخدمة في جمع العيدان في كتابه «التاريخيات» (440قبل الميلاد):

«كان العرب يقطعون أجساد الثيران الميتة... إلى قطع كبيرة،

وكانوا يحملونها إلى المكان الذي يقصدون ويتركونها على الأرض بالقرب من الأعشاش، ويبتعدون إلى مسافة آمنة. وهنا تأتي الطيور وتحمل تلك القطع إلى أعشاشها، وبما أن الأعشاش لم تكن لتتحمل أثقال قطع اللحوم تلك، فتنكسر وتسقط إلى الأرض. وهنا يندفع الرجال إلى المكان؛ ليلتقطوا عيدان القرفة التي كانوا يصدرونها إلى بلدان أخرى»[xxxviii]. ويصف هيردوت أيضاً طريقة في تنفيذ أحكام الإعدام، كان السيكثيون الرّحل يستخدمونها لقتل أنبيائهم أو عرافيهم الكَذَبة عندما يظهر زيف رؤاهموتكهناتهم. «ثمة عربة تملأ بالعيدان والعصي تجمع مع الثيران. وأما الرجال المذنبون، فَتُسدّ أفواههم، ويربطون مع بعضهم يداً بقدم، ويدفع بهم بين العصي التي تضرم فيها النيران وهنا تهلع الثيران وتندفع ركضاً. غالباً ما تموت الثيران حرقاً مع العرافين والكهنة الدجالين، وأحياناً



الثور الفارنيسي»[xxxvii] نصب روماني من الرخام يمثل أسطورة ديرسي الإغريقية، التي قُيّدت إلى ثور بري من قبل أبناء أنتيوب عقاباً لها على تعاملها السيئ الذي أنزلته بأمهم، القرن الأول قبل الميلاد.

أخرى تتمكن من الهرب وقد لسعتها النار عندما تحترق سارية العربة»(xxxix).

ثمة مصائر شبيهة كان يتعرض لها مسيحيون رفضوا تقديم أضحيات إلى الآلهة الثيران في أوروبا الوثنية، مثل سيرنين (ساتورنَينوس)، وهو أول أسقف لمدينة تولوز الفرنسية الذي قيل إنه قُيّد إلى ثور سحبه خلفه وشطر له الجمجمة.

2- الآلهة الثيران، الملوك الثيران

حيثما كانت حيوانات الأرخص محلية، وتمت بصلة إلى المكان، بجّلتها الحضارات القديمة خشيةً وخوفاً. كانت الثيران بالنسبة إلى تلك الحضارات المثال الأعلى شأناً على قوة الذكورة، وضراوة الطبيعة، وتعبيراً عن الخصوبة والرجولة. وأيّ حيوان أفضل من الثور يمكن أن تلصق به تلك الصفات، ويقترن بالآلهة التي خلقت عالمنا، وسيطرت على الطقس والمناخ، وغمرتنا بفواضل الحياة ونعمها ؟ كما اقترن الملوك الذين استمدوا سلطتهم، وقوتهم من الآَلهة بالثيران أيضاً. لقد وُجدت الآلهة الثيران مع كل أمجادهم الجبارة في الحضارات الزراعية القديمة جميعها، فقد نسبت إليها ميزة إغداق المطر شريان الحياة. كانوا آلهة مثل العواصف، خصّبوا التربة، ووهبوا المحاصيل التي أبقت الأقوام الريفية الزراعية على قيد الحياة. كما اقترنت الثيران بآلهة الشمس، والقمر، والكائنات السماوية التي اعتمد عليها البشر لنمو النباتات.

رمز الخصوبة، والفحولة

في بلاد الرافدين تجسدت الألوهية السومرية المتفوقة في إنليل الإله الثور، إله العواصف والخصوبة. وفي الأسطورة تسبب زواج إنليل ونينليل البقرة، أو الإلهة الأم بفيضان نهري دجلة والفرات ليغمرا الأرض ويمنحا الخصوبة للتربة. فقد بُجِّل الإله إنليل بوصفه «الثور الجبار» وكان والداً لننار، إله القمر الذي صُوِّر ثوراً أيضاً، مع تأكيد خاص على قرنيه. دلّ اقتران قرني الثور، اللذين على شكل هلالٍ مع كبر وذبول القمر على رمز التجدد، والولادة المتجددة. فقد ارتدى ملوكٌ سومريون مثل صرغون أغطية للرأس بقرنين، وشاركا الإله إنليل لقب «الثور البري». اعتقد الناس أن ملوكهم استمدوا قوتهم، ومقدرتهم وسلطتهم من هذا الإله الخارق، كما جُسد كثير من المنحوتات والنقوش وتماثيل الثيران في أشكالٍ بشرية من خلال



جلجامش (إلى اليسار) وإنكيدو (إلى اليمين) يقاتلان ثور السماء، ووحشاً آخرَ. دمغة ختم أسطواني. 2340-2150 قبل الميلاد.

تزيينها بلحى ملكية.

في ملحمة جلجامش وهي أسطورة ملك أورك السومري التاريخي، يوصف جلجامش بثور لوغالباندا الضاري. جلجامش المكتمل قوة، الراضع من حليب الإلهة نينسون»[xl] البقرة البرية المهيبة. كان جلجامش طاغية ذا جبروت، أكثر منه ملكاً رحيماً رؤوفاً هادياً لشعبه. سخّر البشر في بناء المدينة، وأما شهواته الجنسية فقد كانت غير محدودة، فلم تسلم منه زوجة نبيل، أو ابنة لأم ولا عروس محارب.

بدأ سقوط جلجامش عندما أغضب إلهة الحب عشتار برفضه توددها له. طلبت عشتار من والدها «أنو» أن يرسل إلى الأرض «ثور السماء» ليقتل جلجامش. يصل الثور الإلهي المقدس المتقد غضباً إلى الأرض، وبشخرة واحدة منه فلق الأرض، وقتل مئة رجل فورا. كما نفث الثور العظيم من فمه لعاباً كريهاً على جلجامش، ومسح وجه صاحبه إنكيدو بذيله القذر. لكنّ البطلين أفلحا معاً، فبينما أمسك إنكيدو الثور من ذيله، قام جلجاميش وقتله بسيفه.

ورغم انتصارهما على خصم مهول، فقد عاقبتهما الآلهة؛ لذبحهما الثور المقدس. لقد عانى إنكيدو من ميتة بطيئة، أما



كوكبة النجوم « توروس» من جيهوشافات آسبن. بحث مألوف عن علم الفلك (1825).

جلجامش المذهل، فقد أدرك أنه بشر فانٍ. فنبع شبابه- كثور فتي- ولّى.

هكذا كان تأثير الثور على حيوات سكان وادي الرافدين قديماً، حتى أنهم سمّوا نبع الخصوبة في تقويمهم «غوت سيدي» أو «الثور القائد»، وكانوا أول من حددوا وسّموا كوكبة توروس بـ«الثور»، كما نعرفها الآن. فقد سّموها «غوت أنا» أي (ثور السماء أو فك الثور).

ومع مرور الزمن، بدأت كلّ حضارة رئيسة تكيف كوكبة توروس لتجسد من خلالها أساطيرها وآلهتها الخاصة بها. لقد ترجم لقب «الثور» إلى عدد من اللغات أو كُيف معها. فهو في اليونانية «توروس» Tauros، وفي اللاتينية توروس Taurus، وفي السنسكريتية فريشابا Vrishaba، وفي الفارسية غاف Gav، وفي العربية «ثور»[xli].

تحولت كلمة توروس فيما بعد إلى علامة على الأبراج الغربية

لتدل على الفترة من 21 نيسان إلى 22 أيار. وقيل إن البشر المولودين في ظل هذه العلامة، هم عمليون موثوقون، صبورون، مثابرون، مجدون، ذوو إرادة، حساسون، محبون، حميمون، جديرون بالثقة. وأما صفاتهم السلبية فتتمثل في أنهم خاملون، محبون للتملك، متعويّون، مملون، غير مرنين، وغير أصيلين، يعوزهم الخيال، جشعون وعنيدون، متذمرون.

مصر

اقترن الملوك المصريون بالثور البري الجبارشأنهم شأن السومريين، كما تظهر عدد من اللوحات المصرية التي ظهرت قبل عام 3050 قبل الميلاد. في ذلك الوقت كانت مصر ميداناً للمعارك من أجل النزاع على السلطة والقوة، بغية السيطرة على تجمعات القرى في مصر العليا. وصُور الحاكم الأعلى المتسيد ثوراً، انتصر على أعدائه جميعا من بني البشر(xlii).

لكن، وفي الوقت الذي كانت فيه بقية الحضارات القديمة تعبد الثيران دون استثناء، اعتقد المصريون أن ثيراناً مقدسة بعينها كانت تجسيدات أرضية لآلهة حقيقيين. فقد ارتبط ثور منفيس بـ«رع»، إله الشمس في هليوبوليس، وأما ثور بوشيس فقد ارتبط بمونتو إله الحرب في أرمانت.

ورغم ذلك، كان أبيس هو الإله المقدس الأكثر شهرة في مصر، الذي ترسخت عبادته قبل عام 3000 قبل الميلاد. شاع الاعتقاد أنّ هذا الثور يجسد الخالق، وإله الخصب «بتاح» المسؤول عن فيضانات نهر النيل، شريان الحياة للمحاصيل وللمصريين.

وعندما توفي أبيس، أو تمت التضحية به طقسياً، بدأ بحث فوري في جميع أرجاء مصر لإيجاد ثور بمواصفات بتاح المميزة. يذكر هيرودت في كتابه «تاريخيات» تلك المواصفات، وكيف أن اعتقاداً ساد قال إن الثور الذي خلق «بتاح» ظهر أنه ضوء سماوي:



كسرةٌ من «لوح الثور»، تظهر الملك الثور المصري يطعن خصماً أجنبيا 3120 قبل الميلاد.

أبيس هذا عجل ولد من بقرة، الذي لم يعد يسمح له بإنجاب أية ذرية بعد الآن. يقول المصريون إن شعاعاً من نور، سيهبط من السماء على هذه البقرة، ومنه ستلد أبيس. إن هذا العجل الذي سميّ أبيس هو أسود وله العلامات التالية، وبالتحديد مربع أبيض على جبينه، ومن الخلف يشبه النسر، وفي الذيل شعر كثيف، وعلى اللسان وحمة كخنفساء[xliii].

عاش أبيس رغد العيش، وبأفضل ما يمكن من طعام، وحُرِم من الأبقار في معبد بني خصيصاً له انتصب قبالة معبد بتاح. أمضى أبيس عزلةً طويلة لكنه شارك في الطقوس. وفي ساعة محددة من كل يوم، كان يتحرر من كل شيء؛ ليغرق في الملذات في باحة المعبد. وهناك حشود مهولة من أتباعه المخلِصين أو رحالة غريبين، كانوا يتجمعون؛ ليشهدوا مغامراته. لقد أوِّلت كل حركة من حركاته أنها بوحٌ بالمستقبل. يروي بليني الأكبر أن الثور أبيس، رفض تناول الطعام من يد جيرمانيوس -القائد الروماني- قبل

موته عندما قُتل هذا الأخير.

إما أن أبيس مات ميتة طبيعية أو وفق بلوتارك، أُغرق في نبع مقدس، هذا إن كان قد بلغ الخامسة والعشرين من العمر فعلاً. كان الأمر كذلك، حتى أن قواه لم تتأثر بالوهن، والضعف الذي يأتي به التقدم في السن. ثمة مقاطع من «أنشودة كانيبال» من نصوص الأهرامات، تشير إلى أن الملك أكل لحم أبيس الميت، ليبعث في حياته قوة بتاح الإله، وقدرته ورجولته.

عند موته، حُنّط جسد أبيس ووضع في ناووس هائل من الحجر الرملي، أو الغرانيت الوردي، ودفن في حجرات سرية تحت الأرض في صقارة بعد طقوس دفن مهيبة. شاع الاعتقادً أنّ روح الثور الإله انضمت إلى روح أوزيريس إله العالم السفلي لخلق سيرابيس، وهو اندماج إله الخصب، الذي تبنى الإغريق عبادته ومن بعدهم الرومان.

ثمة ثورٌ آخر شارك في طقوس الخصوبة المصرية، هو ثور مين الأبيض، إله الجنس والخصب. شارك هذا الثور في طقوس تتويج الفراعنة في المملكة الجديدة؛ لضمان فحولتهم الجنسية، آملين مولد وريث ذكر. كما كُرّم الثور الأبيض في مهرجانات الحصاد أيضاً، فقد كانت تقدم إليه الحزم الأولى من القمح لضمان محصول وافر، وكان يترأس مهرجان حراثة الأرض، وعزقها للمساعدة في إثمار الأرض.

الهند

من المرجح أن الحضارة الهندوسية بَجّلت الثور بوصفه رمزاً للخصوبة، وربما خدم بوصفه زوجاً للأم الإلهة. لكن أفضل الحكايات عن عبادة الثور جاءتنا من ريغ-فيدا، وهي مجموعةٌ من الأناشيد كتبها الآريون الفاتحون الذين جاؤوا من أوروبا الهندية، والذين جاؤوا بثيرانهم الآلهة -رموز الخصب- إلى الهند في الألفية

الثانية قبل الميلاد. لقد كان الآريون رعاة، أحفاد قوم قبائل البوادي الأيروآسيويين (الأوربيون الآسيويون) الذين رعوا أعداداً هائلة من الماشية، وعدوها ثروتهم الأثيرة.

اشتقت في السنسكريتية، لغة الريغ -فادا، الكلمتان اللتان تعبران عن «الثور» و«المطر» من الجذر ذاته الذي يعني «يسقي» و«يُشرب»(xliv). أما إندرا، فهو الثور الإله الأعلى للعواصف، الذي قهر شياطين الجفاف والقحط والظلام، عندما جعل الرعدَ حليفاً له، وأخرج بقراته الحلوبة الرشيقة من الظلام. فتدفقت المياه تبعاً لطبيعتهم(xlv).

ومثله مثل العاصفة الولادة، فمزاجه وحشي وقوته أسطورية:

رشيق، ضربه سريع، مثل ثور يشحذ قرنيه. مخيف يثير البشر، بجفنين لا يرفان، يجأر، بطل فريد، إندرا، قهر مئة جيش دفعة واحدة(xlvi).

ما تزال الهند بعد ثلاثة آلاف سنة تقريباً، تبجل الثور لخصوبته، وأما «شيفا» أحد أعظم آلهة الهندوس، فهو ثور في واحد من أشكاله الأرضية. يسود الاعتقاد الآن أن «شيفا»، هو اندماج الثور الإله في الحضارة الهندوسية (الخالق) مع الثور الإله في الحضارة الآرية. وربما كان «رودرا» (مدمر الماشية والرجال). شيفا يهب الخصوبة، لكنه يستطيع أن يدمر أيضاً.

وبطريقة شبيهة لثور أبيس، تمكن كهنة شيفا من تسمية أحد الثيران بوصفه وسيلة نقل حية للإله. وُسم الثور الذي اختير على قائمته الخلفية اليمنى برمز يشير إلى رمح ثلاثي الشعب (وهو سلاح شيفا في الاختيار) ولأنه يجسد شيفا، تمت عبادته في كل أرجاء الكون. عربة شيفا أو مطيته هو الثور الأبيض المقدس، الذي يسمى ناندي(«ترجمته الحرفية» من يمنح البهجة والسعادة). وهو في الميثولوجيا الهندوسية حارس المخلوقات كلها التي تدب على



ينتصب هذا النحت الهائل لناندي إلى منتصف تلة شاموندي بالقرب من ميسوري -الهند. نحت في عام 1659 من صخر غرانيتي فريد، يبلغ طول ناندي سبعة أمتار ونصف المتر بارتفاع خمسة أمتار.

أربع. وهو الحارس الحامي لوافدي العالم الأربعة. اعتاد ناندي على حراسة مدخل معبد الخصوبة المكرس لعبادة شيفا.

طقوس الثيران والأضحيات: كريت المنوانية

ترتبط أساطير الحضارات القديمة وخرافاتها كلها بالثيران، وليست هناك أساطير ارتبطت بها أكثر من الأساطير الإغريقية. يمكن اقتفاء عبارة « من هو؟» للشخصيات في هذه الأساطير إلى عبادة الثور في الحضارة المنوانية في جزيرة كريت، التي بجّلت الثور بوصفه رمزاً للإله الأب.

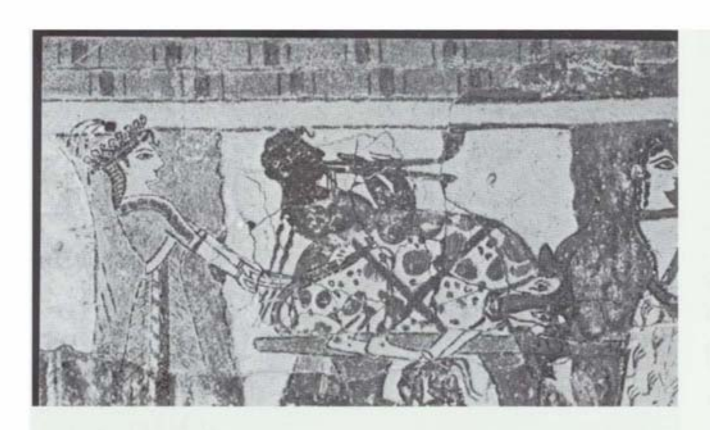
وبطريقة شبيهة، لتلك التي في مصر ووادي الرافدين، كان هناك اقتران ما بين الثور والإله والملك في جزيرة كريت. قيل إن زيوس الإله الإغريقي الأعظم، الذي كان يمتلك قوى خارقة لا تقاوم، وقوة جنسية منفلتة من عقالها، كان يتخفى بهيئة ثور أبيض عظيم؛ لكي يغوي الإلهة أوروبا التي كانت تلعب قرب البحر في مدينة صور مع وصيفاتها عندما اقترب الثور. وبما أنه كان أليفاً، تجرأت أوروبا

وتسلقت إلى ظهره عندما أسرع زيوس إلى البحر وسبح حتى جزيرة كريت. أثمر اندماجهما عن ثلاثة أبناء، بمن فيهم مينوس ملك كريت المستقبلي الذي ستلازمه الثيران في حياته.

تركزت عبادة الثور في الحضارة المنوانية على فعاليات طقسية محددة: رقصات خصوبة الربيع ومصارعة الثيران. احتفى هذا كله بقوة الثور وخصوبته. لقد ضُحيّ بالثيران في جزيرة كريت إرضاءً للعديد من الآلهة الثيران، مثل بوسيدون «مزلزل الأرض» (إله الزلازل). وفي الربيع، دلّت إراقة دماء الثيران على الأرض على أضحيات على الإله الأب الذي يخصّب الإلهة الأم.

باولو فيرونيس «اغتصاب أوروبا» 1580. رسم بالزيت على كنفا.





تفصيل من تابوت حجري وجد في هاجيا تريادا- جزيرة كريت، يظهر ثوراً مقيداً يُضحّى به على المذبح 1450-1400 قبل الميلاد.

لم تكن رغم ذلك، الأضحيات جميعها عامة وجليلة ومجيدة. فقد كان هناك احتفاليات غامضة أيضاً. إذ اشتهر شعب كريت خاصة، بمهرجانه زغروس ديونيسوس (ابن زيوس) الذي كان يقام مرة كل عامين الذي قتله التيتانيون، وتناولوا لحمه -حسب الأسطورة- عندما كان يقاتل على شكل ثور. استشاط زيوس غضباً ما جعله يفجر التيتانيين بوميض من البرق، ومن رمادهم نهض الجنس البشري. ولهذا السبب تشّكل الإنسان من عناصر خيّرة وأخرى شريرة.

خلال المهرجان يجتمع الأشخاص المتحمسون أو المايناذز (المهتاجون) في الليل في منطقة معزولة ويحتسون الخمر، ويرقصون ويصرخون، ويشاركون في لهو وعربدة. أما قمة الاحتفال فتكون بجلب ثور فتي حي، يقطعه أولئك المسعورون بأيديهم العارية وأسنانهم المجردة. وبتناول الثور الأضحية يتحد المحتفلون على نحو صوفي مع الإله الذي يجدد لهم حياتهم، ويمنحهم الخصوبة ويزيد من قوتهم.

لم تقتصر طقوس الأضحيات على الكريتيين، وإنما كان السومريون والمصريون وشعوب المشرق عامة يمارسونها. فالتضحية

بالثور آنذاك تعني أعطية للآلهة بوصفها أسلوباً لإرضائهم، أو أن الضحية والمأدبة التي تتلو ذلك كانت تشكل وسيلة لتحويل القوة الغامضة للثور الإله إلى مشايعيه من البشر.



حامل العجل: تمثال من الرخام عثر عليه في موقع في الأكروبوليس لعجل ثور، أضحية قُدّم إلى الإلهة أثينا حامية مدينة أثينا. القرن السادس قبل الميلاد.

روما

تضمنت الاحتفالات الرومانية الغامضة في معظم الأحيان- وهي قاسم مشترك مع الموانيين- تقديم الثيران أضحيات. فقد تبنى الرومان عبادة «أتيس» إله الحياة النباتية الفريجي، وحبيبته سيبيل (إلهة الخصب) في عام 204 للميلاد. ووفق الأسطورة خصى أتيس نفسه، ونزف إلى أن مات تحت شجرة الصنوبر ليهب سيبيل حيويته ونشاطه. لكن أزاهير الربيع تبرعمت من دمائه. ومذاك كرس الرومان احتفالاً سنوياً في الربيع للتفجع على موته، والابتهاج ببعثه من جديد.

لكن مشايعيه كانوا يؤدون طقوس «تاوروبليوم» taurobolium التي كانت تعمدهم أو تدخلهم في العبادة:

المشايعون متوجون بالذهب، مكللون بعصابات الرأس، نزلوا إلى حفرة غُطيت بمشبك من خشب. ثورٌ زين بأكاليل الزهور وتلألأ جبينه برقاقات الذهب، سيق إلى المُشبك، وهناك طعن حتى الموت برمح مُبارك. وتدفقت دماؤه المتفصدة سيولاً في الثقوب، واحتفى المتعبدون والمتنسكون والمتيمون بكل قطعة من جسده وكسائه، بتوق شديد، إلى أن خرج من الحفرة مبللاً متقطراً قرمزياً من رأسه حتى قدميه، مُجَلاّ مُباركاً، لا بل معبوداً من قبل خُلّصه كامرئ غُسلت عنه خطاياه بدماء الثور، وبُعث إلى حياة أبدية من جديد[xlvii].

ثمة إله آخر تولى أمره الرومان، هو مثرا إله النور الفارسي، الذي قيل إنه هاجم غيوش أورفان الثور البدائي وقتله، الذي بلغ عمره ثلاثة آلاف عام، والذي تدفقت من دمائه ومنيه كل الحيوانات والنباتات. تناول ميثرا لحم الثور مع «سول» إله الشمس بينما كانا

مثرا الإله الروماني
يقتل ثوراً كأضحية.
تمثال من رخام. القرن
الثاني للميلاد.

يجلسان على جلده. أعاد الرومان تسمية الإله ميثرا في عام 67 قبل الميلاد ووصلت الميثرية أوجها في عام 308 للميلاد عندما أعلنت ديناً رسميا للجيش الروماني. كانت المثرية عبادة سرية تقتصر على الذكور ترسّخت خصوصا في الجيش، وكان كثير من طقوسها يعقد في الكهوف بعيداً عن أعين الفضوليين[xlviii]. عدّ مثرا إله النور والعدل والحقيقة، ومن خلال إقامة المآدب على لحمه كان الأعضاء الجدد، ينتصرون على خصومهم ويلقنوهم درساً في النصر الأخلاقي على الشر، مؤكدين لهم الخلاص في هذا العالم وفي الحياة الآخرة.

المسيحيون والسلتيون

مع عبادة الثور التي ترسخت في نفوس كثير من الحضارات، وجدت الكنيسة المسيحية من الصعوبة بمكان أن تغير الصلة الحميمة

مع تلك العبادة. وحسب الكتاب المقدس كان من اللازم إنهاء عبادة الثور في إسرائيل، والبديل هو رب الكنعانيين الأعظم والأكثر رفعة، إيل وبعل. تمثلت الآلهة الثيرام هذه بوثن العجل الذهبي/الثور الذهبي، الذي بناه هارون في سفح جبل سيناء في أثناء انتظار الإسرائيليين موسى ليعود بالوصايا العشر من عند الله. وُسمت عبادات الثور أنها انحراف جنسي متخمة بعقائد مزيفة وممارسات غريبة.

قاوم السلتيون القدماء التغيير، وبما أن كهنتهم (يدعون دريود Druid) استخدموا الثيران كأعطيات يضحى بها. كتب بليني الأكبر بغنائية عن أولئك الكهنة الذين يضحون بزوج من الثيران البيضاء كأعطية للآلهة: «عندما عثر على نبات الهدال (الدبق) ينمو على أشجار البلوط المقدسة. ساعد الاعتقاد أن تناول هذا النبات الطفيلي في جرعات يزيد من خصوبة الماشية، كما كان ترياقاً لجميع السموم التي تؤثر بالبشر والماشية»[xlix].

ثمة طقس سلتي آخر وهو «تارفيهيس» tarbhfheis؛ أي «نوم الثور» الذي استخدم في «تارا» خلال تنصيب الملك الأعلى لإيرلندا. تتم التضحية بثور ذي جلد أصفر، ويولم أحد الكهنة السلتيين لحم

يظهر إعجاب السلتيين بالثور على منحوتة «غونديستروب كاولدرون» التي عثر عليها في الدانمرك في عام 1891 التي تصور تضحية طقسية بالثور أو أنها تمثل اصطياده. نقشت وزينت بطبقات من الذهب والفضة. القرن الأول ميلادي.



الثور ويشرب مرقاً صنع منه. ثم يغيب في نشوة أو ينام، ويلف نفسه في جلد الثور الميت. وفي أثناء نومه تأتيه الرؤية التي تعلن عن الملك الجديد[l].

لم تكن مصادفة أن نشرت الكنيسة المسيحية في مجلس مدينة طليطلة عام 447، ولأول مرة وصفاً رسمياً للشيطان، الذي اتضح أن جزءاً منه كان ثوراً:

.... شبح أسود مهول ضخم بقرنين على الرأس، وحوافر بأظلاف مشققة، أو حافر واحد بأظلاف مشققة- بأذني حمار، ومخالب وعينين تتقدان وحشية، وأسنان مرعبة وقضيب ذكري هائل ورائحة جهنمية كرائحة الكبريت[li].

الثور الجبار بوصفه عدواً

بالرغم من غياب الآلهة الثيران في نهاية الأمر، استمرت صورة الثور كخصم جبار حتى أيامنا هذه. فأيّ شخص يشاهد ثورين ذكرين بالغيَن، يتقاتلان خلال موسم الزواج، سيكوّن فكرة عن قوتهما ومقدرتهما.

في أسطورة «تابن بو كيوانج Tain Bo Cuailnge» (غزوة ماشية كولي) السلتية نجد أن دون كيوانج، ثور كولي البني، ثور فحل خصب من إقليم أولستر الإيرلندي. كان قوياً، ومكتمل الفحولة، وعنواناً للثروة والرغبة: وهي رمز المكانة الذي تريد بقية إيرلندا أن تمتلكه. يصف المقطع التالي قوة الثور البني وضراوته عندما يهاجم ثورَ كوناوت[1] ذي القرنين البيضاوين:

وقاتل الثورَ بالقرنين البيضاوين، ومزقه عضواً إثر آخر. وحمل قطعاً منه على قرنيه، ورمى بعورته في أثلون وكبده في تريم. ثم عاد إلى كيولانغ وجُنّ، وأخذ يقتل كل من يلقاه في طريقه إلى أن تفجر

(١) Connaught إقليم يقع على الساحل الغربي من إيرلندا، (المترجم).



مشهد لثيران متقاتلة. قطعة من الخزف، تعود للأسرة الحاكمة الثامنة عشرة في مصر (حوالي 1550 إلى 1290 قبل الميلاد).

قلبه بالخوار وسقط ميتاً[lii].

والمثال الأكثر واقعية هو المقطع التالي من قصيدة The Georgics29 قبل الميلاد، كتبها الشاعر الروماني فيرجيل. ربما كانت التصوير الأشد شاعرية لثور فتي، يتحدى ثوراً مهيمناً يسعى إلى الزعامة وانتصاره النهائي عليه:

وبينما كانا يتقاتلان كراً وفراً، بهجوم وهجوم معاكس، سوّد الدم الذي تدفق من جراحهما لهما الجوانب. وضجّ المكان بهزيم عراكهما عندما كانا يندفعان مع بعضهما بعضاً. وملأ الجئير المرعب الغابات والسماوات. لم يكن بإمكانهما أن يتشاركا الزريبة. فأحدهما يجب أن يستسلم، وينكسر في القتال، وينسحب بعيداً، وهو صاغر يأخذ معه جراحه وخزي الهزيمة. والحب الذي خسره صار للقاهر الفخور. نظرة أخيرة إلى الخلف ويمضي، مثل ملك مخلوع. وخلال أيام، المنفى ولياليه التي استعد فيها لعودته، اعتاد شظف العيش ونام على سرير من حجارة. أما الطعام، فهو نبات السُّمار حاد الأطراف والجوانب والأوراق الشائكة. تعلّم كيف يجعل من



أدريان فويسارد- مارغري، «ثيران تتقاتل، (تَنَافسٌ) 1923 . باستيل على الورق.

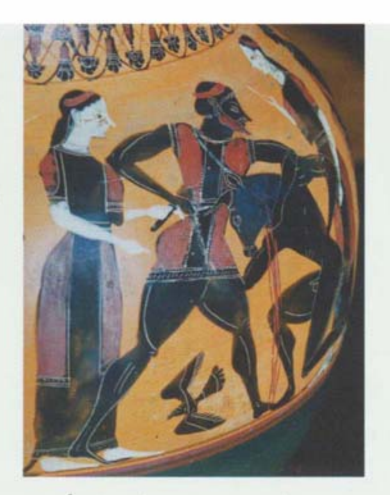
قرنيه بغضبان، واختبر نفسه بنطح جذوع الأشجار، وشق الجو ونبش الأرض ببراثنه وكأن المعركة بدأت.

وفي اللحظة التي استعاد قوته، تقدم من جديد واندفع إلى عدوه وباغته مثل موجة تزبد بعيداً في البحر، يخبئ خلفها قوة المياه المرتفعة عندما تتكور، وتتجعد باتجاه الشاطئ وتزأر عبر الصخور.

جبل متحرك اقتلع نفسه من الجذور، لينقلب في دوامات من الرمل الأسود(liii).

يتضح من هذا الوصف، السبب الذي جعل غضب الثور وجبروته، خصماً عنيداً للأبطال في الميثولوجيا اليونانية. كان على جاسون أن يشد إلى النار ثورين، ينفثان النار واللهيب وينتعلان البرونز ليحصل على «الجزّة الذهبية» وعلى هرقل وثيسيوس أن يتقاتلا مع العديد من الثيران المتوحشة والمدمرة (liv).

تم لقاء هرقل الأول مع الثور خلال المخاض السابع، عندما أرسل



ثيسيوس يقطع حنجرة المينتور. آنية خزفية إغريقية مطلية. 600-501 قبل الميلاد.

إلى كريت؛ ليأسر الثور الكريتي ويقتله الذي خرج من البحر. أرسل بوسيدون هذا الثور الأبيض بوصفه علامة إلهية على حق مينوس في خلافة عرش أبيه بالتبني. لكن مينوس هذا فشل في التضحية بالثور لبوسيدون؛ لأنه كان جميلاً على نحو مدُوِّخ. وكجزء من العقاب الذي حلّ به، أرسل الإله الغاضب الثور الكريتي المجنون. وتحول إلى وحش، وبهيمة تنفث ناراً دمر كريت كاملة، وأفسد المحاصيل، ودكّ أسوار الحدائق والبساتين.

أفلح هرقل في أن يمسك بقرني الثور، ويثب على ظهره وبالرغم من أن الثور كان يشبّ، بقي قابعا عليه وامتطاه إلى أن أخضعه كفرس. ثم ركب هرقل الثور إلى البحر، وعبر به إلى البر اليوناني. تحلل الثور من قيده، ورجع إلى عاداته القديمة، وبدأ يهتاج عبر سهول الماراثون إلى أثينا. وأخيراً استدعي البطل الأثيني ثيسيوس ليقهر الثور ويأتي به إلى أثينا، فضحي بالثور القاتل نافث اللهب للإله أبولو.

وبالإضافة إلى جعل الثور الكريتي يُجن، تسبب بوسيدون بوقوع



كيفية أسر ثور بري وفق أكواب فافيو المذهبة. 1500 قبل الميلاد.

باسيفاي-زوجة الملك مينوس- في حب هذا المخلوق أيضاً. وتلبية لرغباتها أقنعت ديدالوي، وهو حرفيّ، أن يبني فخاً خشبياً مموهاً لبقرة. نزلت بوسيفاي إلى الشرك ورقدت حيث ضاجعها الثور الكريتي أثناء مضاجعته للبقرة، ومنها جاء حيوان المنيتور المتوحش، نصفه ثور ونصفه الآخر إنسان.

وُضع المنيتور في متاهة بناها ديدلوس في مدينة كنوسوس. ومذاك شاع عرف تجلى في إرسال سبعة صبيان وسبع بنات كلّ تسعة أعوام إلى المتاهة؛ ليفترسهم الوحش.

وذات عام تطوع ثيسيوس ليذهب مع هذه الأضحية البشرية. وبدلاً من أن يتحول إلى ضحية انسل إلى المتاهة وقتل المينتور النائم.

رياضة مثيرة

تبدو هذه الأساطير كأنها بنيت على حقائق. فقد عُثر في جزيرة كريت على تقليد عند البشر، يظهر مهاراتهم في رياضة القفز على الثور. وبالرغم من أن لهذه الرياضة-ربما- جانباً دينياً، كان الناس يستمتعون بها على أنها فرجة مسلية جداً [lv]. لربما ربيت الثيران التي استخدمت للقتال من خلال سلالات خاصة، بعد أن خفت سرعتها وغابت فطنتها. ولربما أبقيت نصف برية في المزارع أيضاً ثم أسرت. نرى الطرق والأساليب المحتملة التي استُخدمت لأسرها بغية إرسالها إلى حلبات السباق، منقوشة على أكواب مذهبة تعود إلى

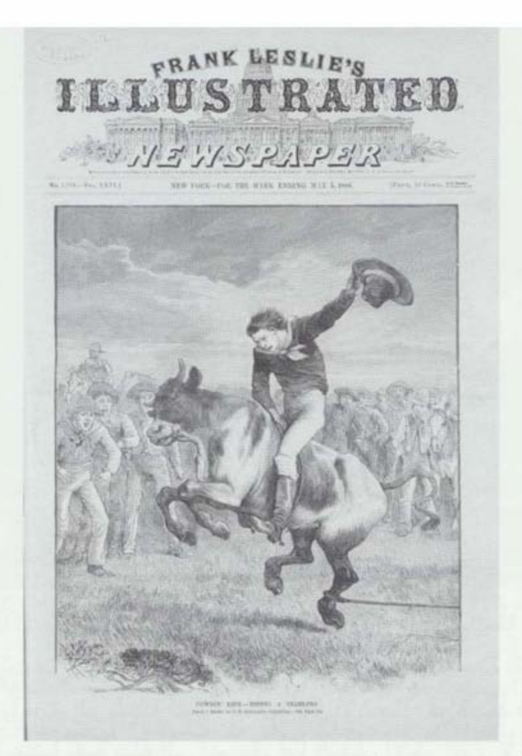


لوحة جصية تمثل القفز على الثور قصر كنوسوس -كريت 1700-1500 قبل الميلاد. الرجل يقفز على ظهر الثور، في الوقت الذي تحاول فيه امرأة أن تتشبث به وأخرى تصارعه.

عام 1500 قبل الميلاد، وجدت في فافيو بالقرب من إسبارطة (رغم أنها كانت من مينون أو كريت في الأصل). يظهر أحد هذه النقوش ثوراً برياً سيق إلى شبكة كبيرة امتدت بين الأشجار، ثم قُيدّت قوائمه بعضها بعضاً بغية نقله إلى المدينة. أما النقش الآخر الذي لا علاقة له بالرياضة، فيُظهر مشهداً لبقرة داجنة استخدمت لجذب الثور البري الذي قُيدت قائمتاه الخلفيتان عندما كان في غفلة من أمره.

وفي الوقت الذي تشتهر فيه رياضة الثيران في مينون على أفضل ما يكون، يظهر دليل على مآثر بهلوانية شبيهة في كبادوشيا جنوبي شرق آسيا. تصور إحدى اللوحات الجدارية في أحد المزارات في كاتال هيوك في تركيا، رجلاً يقفز على ظهر ثور ضخم بطول ستة أقدام، ويعلق جزء من مئزر الرجل بين قرني الثور.

ظهرت رياضة ثيران أخرى على عدد من الأختام في مينون،


FRANK LESLIE'S
ILLUSTRATED
NEWSPAPER

مات مورغان:
«سيرة حياة راعي بقر يمتطي فرساً عمره سنة » 1888 حفر على الخشب (من صورة لسي. دي. كركلاند) على غلاف جريدة فرانك ليسلي. 5 أيار 1988.

يمكن أن توصف على أنها مصارعة ثيران فقط. وهي صورة اقترنت بهرقل وثيسيوس وهما يخضعان الثور الكريتي. الرجل الذي يقف على قدميه يتشبث بالثور من خطمه وقرنيه، ويلوي رأسه ويحاول أن يرمي به إلى الأرض.

قلد رعاة البقر هذه الرياضة في عروض الغرب الأمريكي في عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر، الذين كانوا يقفزون من على جيادهم إلى ظهر الثور. تحولت هذه الفرجة في الروديو، هذه الأيام، إلى حدث يعرف بمصارعة الثيران. أما الحدث الآخر ذو الصلة بالثيران الذي يعود إلى الأيام الأولى من الروديو، هو ركوب

الثور، ولقد بات الرياضة المتفردة في الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1992 مع تأسيس مؤسسة راكبي الثيران المحترفين PBR. غدت هذه الرياضة في أيامنا هذه، عملاً يدرّ الملايين من الدولارات، مع فعاليات تنتشر في أرجاء الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل وكندا وأستراليا.

تربى الثيران خصوصاً لزرع الرغبة، والمقدرة فيها على أن تقفز بوحشية. صُوت لهذه الرياضة، بوصفها أشد المنافسات خطورة في الولايات المتحدة الأمريكية، هذا بالنسبة للمتنافس وليس للثور. وأما الراكب (كما كان دائماً) فيتطلع إلى البقاء على ظهر الثور لثماني ثوانٍ[lvi] متشبثاً بالنطاق حول عنق الثور بيد واحدة. تعود النتيجة النهائية في جانب منها، إلى الحكام الذين يقيّمون أداء الثور وهو يشب. والثور هو مفاجأة الحدث. في بعض الأحيان يكون الثور لطيفاً، وفي أحيان أخرى يكون خطراً جداً. أسقط الثور الأحمر، وهو أحد أشهر الثيران 309 لاعبين عن ظهره حاولوا أن يمتطوه فيما بين عامي 1984 و1987. لكن لين فروست وهو بطل العالم في هذه الرياضة لعام 1987 قهر الثور في أيار من عام 1988.

لا ترتبط أيّ من المناسبات التي يجري فيها الروديو المذكورة بأعمال الحياة اليومية لراعي البقر. فهو فرجة ممتعة فحسب[lvii]. يتحدث جي. دوبليو هارت وهو أحد أبطال هذه الرياضة عن الإثارة والخوف الذي يشعر بهما عندما يواجه الثور:

«ليس هناك من خوف أكثر من أن يواجه المرء ثوراً يزن 2000 ليبرة. فهو يجعل قلبك يقفز من مكانه. ففي اللحظة التي تعطي إشارة البدء ليفتحوا البوابة، ستجد أنك وحيد. تفكر بالبقاء ولاشيء غير ذلك. عندما يقفز الثور، يجب أن تواجهه لكن السرعة التي تقفز فيها الثيران وتركض لا تمكنك من مجاراتهاوتبقى لثماني ثوانٍ. فثماني ثوان وقت طويل جداً على ظهر الثور[lviii].

درج الناس العاديون -لقرون عديدة- على الذهاب إلى بامبلونا في إسبانيا لاختبار الإثارة الناجمة عن مواجهة ثور. ذكرت تقارير عديدة، تعود إلى القرن السابع عشر، مهرجان فيستا دا سان فيرمين الذي يقام بين السابع والرابع عشر من تموز، وتركض فيه الثيران عندما بات انطلاق الثيران من زرائبها إلى الحلبة جزءاً من المتعة[lix]. أما المتطوعون الذين كانوا يرغبون في الركض مع الثور، فقد كانوا يرتدون الباندانا الحمراء (المناديل الحمراء) أو أوشحة حول أعناقهم، وأمّا الأكثر جرأة منهم فيحملون صحفاً مطوية تُلقّب بشارة بامبلونا الفخرية، التي تدل على نيتهم في الاقتراب من الثور، لكنهم يخسرون شرف المحاولة إن هم عجزوا عن لمس الثور.

وإن سار كل شيء على ما يرام، يستمر الثور في الجري لدقيقتين أو ثلاث، لكن ينفصل أحياناً عن القطيع، ويرتبك، ويبدأ بالتأرجح والتمايل، ويرفع رأسه ويهاجم من يراه في طريقه بضراوة وعنف. يصف إرنست همنغواي في روايته «وتشرق الشمس أيضاً»، والتي سميت في الأصل «فيستا»، بقرَ ثورٍ لأحد المتبارين بقرنه حتى مات: «رأيت الثيران تخرج من الشارع إلى حظيرة الجري الطويلة. كانت تركض بسرعة، وتقترب من الحشود. في تلك اللحظة قفز أحد الثملين، من المتفرجين من على السياج بكابٍ في يده. أراد أن يصارع الثور بالكاب، الذي يحمله الذي انتزعه منه شرطيان وأمسكا به من ياقته وضربه أحدهما بهراوة وسحباه إلى السياج، وأوقفاه هناك إلى أن مضت آخر الحشود والثيران. كان هناك العديد من الناس يركضون أمام الثيران، حتى كبر الحشد وتباطأ عبر البوابة المؤدية إلى الحلبة، وبينما كانت الثيران تعدو ثقيلة موحلة الأطراف وتهز القرون، تقدم أحدها إلى الأمام، وأمسك برجل في الحشود الراكضة في الخلف ورفعه عالياً في الهواء. كانت يد الرجل على جانبيه، ورأسه إلى الخلف عندما اخترقه قرنا الثور الذي رفعه من جديد ورمى به



الغضب الأرجواني: الحدث الملون في جاليكاتو. يقام سنوياً في مادوراي- الهند.

إلى الأرض. التقط الثور رجلاً آخر يركض في المقدمة، لكن الرجل اختفى في الحشود التي اندفعت عبر البوابة إلى الحلبة والثيران تركض خلفهم[lx].

مذ بُدئ بتوثيق سجلات الأحداث في عام 1924 قُتل 14 شخصاً خلال مهرجان بامبلونا، وبُقر أكثر من مئتين بقرون الثيران. آخر من قتل على قرني ثور شابٌ أمريكي في عام 1995.

رياضة الثيران في آسيا

تعدّ رياضة « جاليكاتو» أو « مانشوفيراتو» أو مطاردة الثور التي جاءت من جنوبي الهند المعادل الموضوعي لمهرجان ركض الثيران في بامبلونا. يجري هذا الحدث السنوي في قرى تاميل نادو في اليوم الثالث من مهرجان بونغال (عيد الشكر في أيام الحصاد) حيث يتم الاحتفاء بالماشية. تهدف هذه الرياضة الهندية إلى «ترويض» ثور

هائج ثمل، يركض في الخلاء أو في مكان مسيّج من خلال السيطرة على قرنيه، أو عنقه، أو ذيله. تقليدياً كان المتنافس الذي يفوز يحصل على عروس، بعد أن يظهر بسالة ومهارات ضد الثيران البرية [lxi].

أمّا الرياضة التي لا تقل عنها خطورة، فهي سباق الثيران، وهي رياضةٌ ريفية شعبية في باكستان وبالي، في منطقة البنجاب الهندية وفي جزيرة مادورا في أندونيسيا. يُشد ثوران من الزيبو إلى النير ويزينان ببهرجة، وفي الغالب يُطعمان وجبة «سباق» خاصة، تتألف من الحبوب والأعشاب. كما يُقدم إليهما مزيج من الزنجبيل والفلفل، والفلفل الحار والعسل والجعة والبيض لمدهما بمزيد من الطاقة. يتجسد الهدف من السباق بالنسبة «للجوكي» (الفارس) في الوقوف على لوح معدني، أو عربة وراء الثورين عندما ينطلقان بسرعة على أمل أنْ يسيرا بخط ثابت لمسافة كيلومترين، ويتمسك إما بذيلي الثورين، أو بلجامين يربطان إلى النير فقط [lxii].

وهناك رياضة أخرى في آسيا تعتمد على الثيران أيضاً، لكن من دون أن يشترك فيها بشر. هي نزاع وجهاً لوجه بين ثورين. تجري هذه المناسبة السنوية في تايلاند وكوريا الجنوبية، فيُدربان ويطعمان على نحو خاص لهذه المناسبة. في تلك المناسبة يتلقى صاحب الثور الفائز (أي الثور الذي يصمد في المكان) نقوداً، كما درجت العادة على أن تكون الجائزة تقديم أفضل أرض كلأ [lxiii].

ثيران في مواجهة حيوانات أخرى

في الوقت الذي تميل فيه الرياضات التي أسلفنا ذكرها إلى تمجيد الثور، اخترع بنو البشر أيضاً نزالات أقحمت الثور في دور أشد مرارة، تجلى في جعله يقاتل الحيوانات الأخرى حتى الموت. لعبت الثيران دوراً كبيراً في «فيناسيونز» أو «ألعاب الصيد». فقد كانت تُدفع لتقاتل الفيلة في «سيركوس ماكسيموس» في روما في عام 79 قبل الميلاد، وفيما بعد تطور الأمر لتقاتل النمور، ووحيد القرن

تعذيب الثور، مشهد من حكايات عن الكلاب لإدوارد جيسي (1846).



والخنزير البري والأسود. يمثل القتال حتى الموت فيما بين الحيوانات صراعات الغابة التي كانت تصور حالة الفوضى البدائية للعالم الطبيعي»[lxiv]. يروي لنا سينيكا، الفيلسوف والمسرحي الروماني الذي عاش فيما بين عامي 4 قبل الميلاد و65 ميلادية، أن الثور والنمر كانا يربطان سوية، ويقطعان بعضهما الآخر إلى مزقٍ وقطعٍ قبل أن يتحررا أخيراً من بؤسهما.

وبينما استخدم الرومان الثيران لإحياء المشاهد العنيفة المثيرة التي تحدث في الطبيعة، كان الإنجليز يعذبون الثور قبل أن يذبح، وذلك لتطرية لحمه. رغم أن تعذيب الثور بالكلاب كانت رياضة وطنية في إنجلترا فيما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر، بدت هذه «الرياضة» أنها ممارسة مغلوطة لتحضير الطعام وطهيه[lxv].

وما هو على جانب من السخرية، أن الآلام التي يعاني منها الحيوان،

تجعل من لحمه أكثر قسوة.

كان للجزارين كلابهم الخاصة، التي كانوا يرسلونها ليأتوا بأحد الثيران من الحقول، فيطاردونه ويرمون به إلى الأرض ويثبتونه. وفي اللحظة التي يوثق فيها الثور إلى الوتد، تبدأ الكلاب بمهاجمته كلباً إثر آخر. تتميز هذه الكلاب وهي من فصيلة « بولدوغ» التي رُبيت خصيصاً لهذا العمل بعنادها وشجاعتها. كانت بغية الكلاب تثبيت الثور والإمساك بمنخريه، وهما نقطة ضعفه التي تجعله عاجزاً عن الدفاع عن نفسه. ولطالما كان الثور يريد أن يثأر لنفسه من خلال وضع قرنيه تحت جسد الكلاب وقذفها إلى الأعلى.

نمّى جمهور تلك الأيام ميلاً لهذه الممارسات العنيفة والوحشية، فقد كانت تجري «حفلات» التعذيب هذه في المعارض التي تقيمها البلاد، وفي مجالس العزاء أو في فناءات الحانات حيث تدعى الكلاب المحلية لتتحدى الثيران المرتحلة. أما الرهانات فتنصب على النتيجة «عين الثور»، وهي كراون تم تداوله في بدايات القرن الثامن عشر توضع فيه نهاية «حفلة» العذاب. في تلك الأيام كان لمعظم المدن والبلدات حلبة للثور/ الدب، التي عرفت عموماً أنها «حديقة الدب»، وفي لندن في القرن الثامن عشر كانت الثيران تُعذب مرتين في الأسبوع في «هوكلي إن ذِ هول وكلاركينويل في ماريليبون فيلدز (حقول ماريليبون)، وسوهو، وتوتهيل فيلدز ووستمينستر[lxvi].

كانت الثيران تُستعرض في الشوارع قبل أن تبدأ المناسبة. يصف جون غراي هذا المشهد في كتابه «Trivia 1716» في منطقة هكلي إن ذِ هول الخطرة، سيئة الصيت: «...يقاد من المنخر ويمشي الدب المكمم خلفه، ويتحرك بفتورٍ جليل، الثور المكفهر، إنه مجد هكلي هول....»[lxvii].

ولمزيد من المتعة، وصفت صحيفة ذِ ويكلي جورنال في التاسع من تموز من عام 1716 ثوراً برياً «ألصقت على جسده ألعاب نارية. لكنه

تخلص منها، وبدأ يندفع في الشوارع. طُلب من المتفرجين أن يحضروا في الساعة الثالثة «لأن هذه الرياضة تدوم وقتاً طويلاً»[lxviii]. هناك حدث شبيه كان يجري سنوياً في ستامفورد، لنكشاير وفي تتبري في ستافوردشاير، حيث عرف هناك «بركض الثور». وفيه تُصلم أذنا الثور، ويُقص له الذيل حتى الجدع، ويُلطخ جسده بالصابون ويُنفخ في منخريه الفلفل. ثم، وفي حالة بالغة من الاهتياج والجنون، يحرر الثور، ويبدأ الجميع، في ملاحقته بغية الإمساك به.

وبعيداً عن كون تلك الأحداث تسلية وتمضية وقت بالنسبة للجماهير، كان «تعذيب» الثيران يشكل متعة للعائلة الملكية أيضاً. فقد عرف عن الملكة إليزابيث الأولى أنها اعتادت أن تنظم هذه المناسبة لزيارة أصحاب المقامات الرفيعة، وكبار الشخصيات في وايت هول، حتى أنها كانت تزور هذه الحفلات في باريس غاردن في بانكسايد..

أثمرت المحاولات الأولى التي هدفت إلى منع هذه الاحتفالات التي تجعل من الثور ضحية، ويعود السبب في ذلك إلى مطالبة السلطات بتحسين نوعية لحوم الحيوانات. لم يكن غريباً أن يقدم عمدة مقاطعة انتخب حديثاً لمواطنيه ثوراً من أجل تعذيبه. وعندما قدم أول اقتراح برلماني يطلب إلغاء «تعذيب الثور» في مذكرة أرسلها السير ويليام بولتني إلى مجلس العموم في عام 1800، لم يكلف أي من السياسيين أنفسهم عناء الحضور إلى مقر البرلمان. أما صحيفة التايمز اللندنية، التي نشرت على صفحاتها الخيبة التي منيت بها المذكرة، فقد هللت لكون المذكرة «لا تليق بكرامة البرلمان»، وأما رئيس الوزراء البريطاني جورج كانينغ فقد دافع عن هذه الرياضة بناء على أن «المتعة تلهم الشجاعة، وتولد نبلاً في المشاعر، وسمّوا في العقل والتفكير»[lxix].

وفي النهاية حُظر تعذيب الثيران في عام 1835. ربما لم يكن الدافع إلى ذلك هو القسوة والفظاعات التي تمارس على هذه الحيوانات،

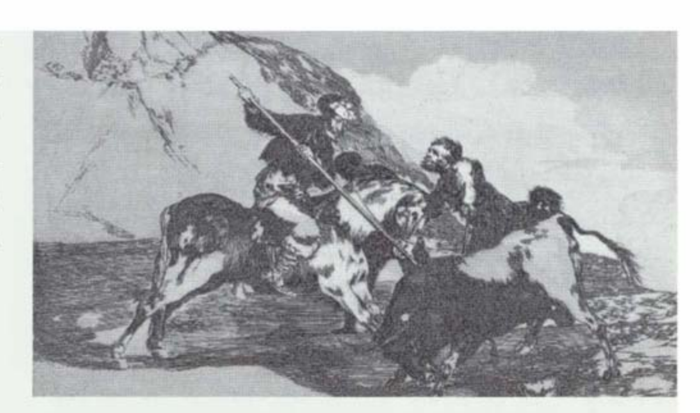
وإنما لأن ذلك يهدد النظام الاجتماعي. أما صُنّاع القوانين (كانوا في الغالب أسياداً يترددون على تلك المناسبات) فقد اهتموا بالآثار التي تتركها مشاهد الدماء على الطبقات الأدنى من المجتمع، الذين كانوا يفضلون مشاهدة تعذيب الثور على العمل. ويسود الآن إحساس أن تشجيع هذه الممارسات العنيفة، والدفاع عنها، ما هو إلا وحشية وفظاعات ترتكب ضد الإنسانية[lxx].

قتال حتى الموت، الإنسان وجها لوجه مع الثور

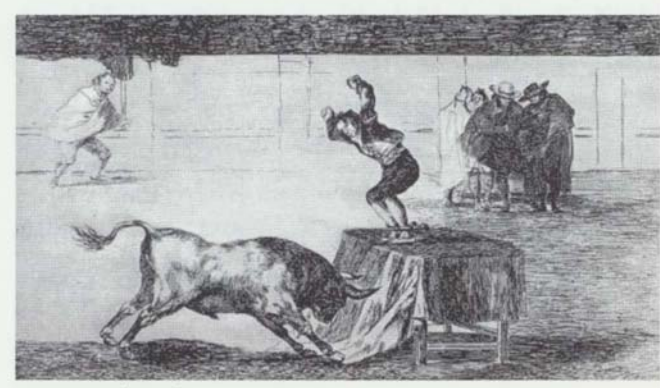
إن نحن عدنا إلى المسارح والمدرجات الرومانية، سنجد منافسة أخرى دفعت الإنسان إلى قتال الثور في عراك حتى الموت. وبما أن الثور رمز للوحشية في العالم المتوسطي، فقد كان عدواً مثالياً للرومان يجب قتاله وقهره. يصف بليني الأكبر هذه النزالات في كتابه التاريخ الطبيعي: «للثور مسحة من كبرياء وفخر، وجبين صارم متجهم، وأذنان خشنتان، وقرنان يبدوان جاهزين ومتحدين. يبدي الثور غضبه من خلال قائمتيه الأماميتين. فعندما يزداد غضبه يقف ويضرب بذيله إلى الخلف من وقت لآخر، ويثير الغبار والرمال على معدته. فهو الحيوان الوحيد الذي يبهج نفسه بتلك الممارسات»[lxxi].

كان مصارعو الثيران المتخصصون ويدعون «توراري»، يقاتلون على أقدامهم برماح وحراب. وكان يوليوس قيصر قد جاء بمقاتلين على ظهور الجياد مجردين من السلاح في عام 45 قبل الميلاد، وهي فكرة جاءت من شعب ثيسالي (مقدونيا). كان الفرسان الذين يمتطون ظهور الجياد، يقفزون من جيادهم إلى ظهر الثور، ويحاولون مصارعته، وتثبيته إلى الأرض من خلال ليّ عنقه.

وما عالم الفيناتيشنز الروماني سوى صرخة بعيدة عن حلبة الثيران الحديثة، رغم أن النتيجة النهائية هي ذاتها (الموت العنيف للثور). أما الكوريدا وهي مصارعة الثيران أيضاً، التي حُوّلت إلى



فرانشيسكو دي غويا لاتاوروماكيا اللوحة 19 «المزيد من جنونه في حلبة الثور ذاتها»، 1816 نقش ونقش محفور بالأحماض.



فرنشيسكو دي غويا لاتاوروماكيا اللوحة الأولى: «الطريقة التي كان الإسبان القدماء يصطادون فيها من على ظهور الخيل في الأرياف، 1816 نقش ونقش محفور بالأحماض Etching and aquatint.

تجارة رابحة، فليست برياضة كما أنها ليست نزالاً عادلاً، ولكن هل هي فرجة، أم طقس، أم احتفال، أم تضحية، أم فن؟ أعلن بابلو بيكاسو، وهو أحد المتعصبين لمصارعة الثيران منذ نعومة أظفاره، أن الكوريدا فن: «من النادر أن يجد المرء فناً ذكياً بذاته». تلك كانت كلماته التي توجه بها إلى من كان يشتري لوحاته بعد زيارته نيمس (أحد مراكز مصارعة الثيران في فرنسا) في عام 1912 [lxxii].
كانت مصارعة الثيران مؤسسة اجتماعية إسبانية نخبوية، على الأقل منذ العصور الوسطى. في حوالي 1090 وفي قصيدة بعنوان

«إل سيدو يقاتل البطل» والذي يحمل الاسم ذاته، الثيران في حفل زفاف ابنتيه. أشرك الإسبان العاديون مصارعة الثيران، (بالرغم من أنها لم تكن مصارعة حتى الموت)، في بعض طقوسهم التي تتعلق في معظمها بالزواج. فنجد طقساً يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر في أرياف إسبانيا، ويبدأ قبل يومين من الزفاف. كان العريس وأصدقاؤه يركضون مع الثور عبر المدينة ويضايقونه بمعاطفهم. وعندما يصلون إلى بيت المخطوبة، يقحم العريس سهمين زينتهما خطيبته في ظهر الثور. والهدف من هذا هو انتقال القدرة الجنسية للثور إلى الزوجين الجديدين[lxxiii].

جاء فرانسيسكو روميرو بمصارعة الثيران الحديثة في عام 1726: فيقاتل مصارع الثيران وهو يقف على قدميه وليس على ظهر الحصان، وكانت عدّته كاب «موليتا»، وسيفاً يساعد على قتل الثور من الأمام وبضربة واحدة.

جُسد تاريخ مصارعة الثيران الإسبانية، التي تبدأ بصيد الثيران في الريف المفتوح في ثلاثة وثلاثين نقشاً شكلت تاوروماكيا للفنان الإسباني غويا في عام 1816. وبالرغم من أنها تشكل جزءاً من الذاكرة وآخر من الخيال، فإن الصور تكشف عن الجانب التجاري لحلبة الثيران: المصارعون المشهورون ومآثرهم المذهلة.

الثيران المقاتلة

كلمتان تصفان ما يمكن أن يجعل من الثور مقاتلاً جيداً، (برافورا) الوحشية أو الضراوة، و(نوبليزا) الأمانة والاستقامة والهجوم المفاجئ والحدس. وكي يصبح الثور منافساً جديراً، يجب أن يظهر عدوانية خالصة، وتحملاً وقدرة كبيرة على مقاساة الألم.

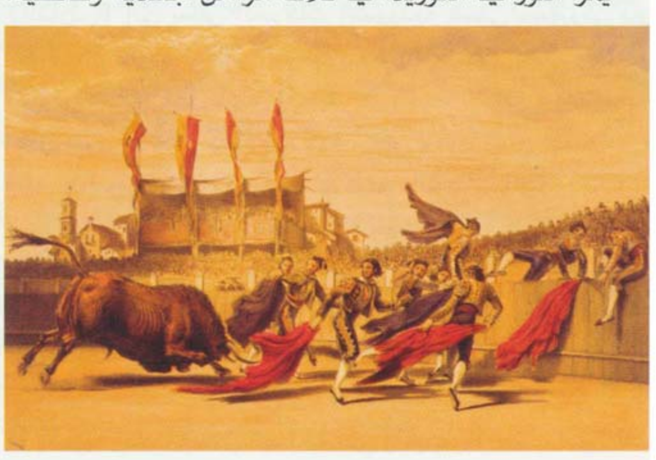
عندما تزايد عدد الكوريدا بدأ متخصصون في الاستيلاد والتربية، يستولدون ثيراناً على نحو انتقائي تلبية للطلبات، وبغية تجنب آثار التدجين التي كانت تهدئ من وحشية الثيران، منذ

أواخر القرن الثامن عشر وصولاً إلى الآن. فيما مضى كان منظمو هذه المناسبات يتعاقدون مع الجزار المحلي لتقديم ثيران متوحشة مناسبة من تلك المُعدّة للذبح(lxxiv).

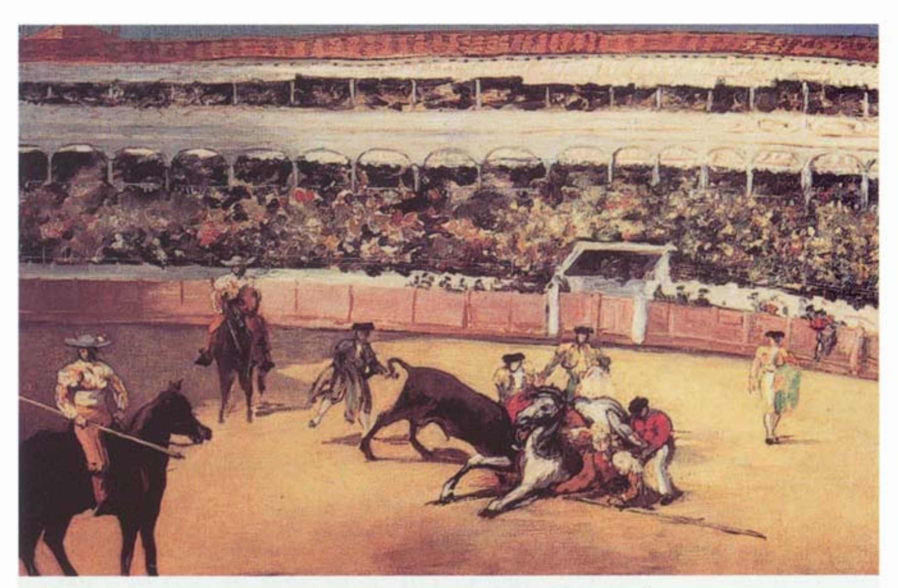
تربى الثيران في أيامنا هذه، في مزارع كبيرة للمواشي (غاناديرياس) لمدة أربع سنوات، بهدف تسمينها لتصل إلى 500-600 كغ، بحرص وعناية لتقتل أو تُقتل. ورغم أن الثور حيوان ذو نسب وتاريخ، فهو لن يبقى في الحلبة إلاّ لمرة واحدة. فالمتفرجون لا يرونه حيوان حسب، وإنما سيتذكرون ثوراً جيداً أو سيئاً أو حيواناً غير مبالٍ مالم يقتل الفارس، وهنا يصبح شهيراً(lxxv).

إن صورة الجماهير عن الثور الخطر الذي يدلي رأسه إلى الأسفل، وينبش الأرض بحوافره قبل أن يهاجم، صورة كونية ما تزال الأثيرة في أفلام هوليوود والرسوم المتحركة وباحات المدارس. لكن أي ثور مقاتلٍ يستعرض هذا السلوك في الحلبة الإسبانية الحديثة يصنف جباناً، رغم أن ما يقوم به عمل خطر. فالثور هنا متردد وغير واثق من أنه سيهاجم.

يمر الثور في الكوريدا في ثلاث مراحل جسدية وعاطفية.



ليك برايس: كولوس يلاعبون الثور 1860-1870 طباعة حجرية. (الكولو وهو الشخص المتأنق ومساعد مصارع الثيران).



إدوارد مانيه «مصارعة الثيران» 1865-6 رسم زيتي على كنفا. تُعصب عيون الجياد في مصارعة الثيران الحديثة وتغطى بلبادات شعرية، لكن الثور يصر على عدّها عدوه الطبيعي.

الأولى دخول «تورو برافا» (الثور البري) إلى الحلبة. وهنا يلقاه المرء قوياً وفخوراً ويسعى للقتال. والثانية عندما يستجره المتادور (الفارس) إلى بعض الحركات التمهيدية تسمى «سويرتي دي كابوتي» (التلويح بالكاب). وهنا يندفع الثور إلى الكاب ويهاجم بضراوة، وهنا المثل الذي ينطبق على هذه الحالة هو «ثور في محل صيني». ومثل بطل الملاكمة جاكي لاموتا الذي جسد دوره نجم هوليوود روبرت دي نيرو في فيلم «الثور الحانق» (1980)، يستشيط غضباً وعنفاً وعاطفة، ما يجعل إيقافه في الحلبة أمراً شبه مستحيل.

تظهر معظم صور مصارعة الثيران المرحلة الثانية من الكوريدا، أي احتكاك الثور مع البيكادور (الذي يمتطي ظهر الحصان). رغم أن الجياد مسلحة على نحو كبير ومعصوبة العينين، فلم يكن لديها ما يحميها وكانت تتحمل الصدمة التي يتسبب بها غضب الثور. لقد




الإسبادا (المبارز) يلاقي الثور المندفع ويدفن السيف في كتفيه، ويسدد الضربة الأخيرة في هذا النزال، في إشبيلية 1902. صورة ستيريوغرافية (صورة التقطت بثلاثة أبعاد على سطح ببعدين).

حصل بيكاسو غويا ومانيه على أشياء تلطخت بدماء جياد البيكادور.

يكسب الثور في نهاية المواجهة، عندما تغادر الجياد الحلبة ويترك وحيداً. لكن بعد ذلك، وكما كتب همنغواي في روايته «موت في الظهيرة (1932):

«في الجولة الثانية أربك الثور رجلاً غير مسلح، وهنا حل به عقاب الباندريلا (حرابٌ حادة مثل السهام) الوحشي، وتلاشت ثقته بنفسه وغضبه الذي أعماه، وركز كل ضغينته على ذلك الشيء، الباندريلا، التي جهز ليطعن بها. إنها الحكم بالإعدام. المرحلة الأولى هي المحاولة، والثانية هي الحكم بالإعدام، وأما الثالثة، فهي تنفيذ الحكم بالإعدام»[lxxvi].

تخفف الباندريلا من غضب الثور الجيد واندفاعه، لكنه يكون في قمة خطورته، فقد بات الآن يعرف عدوه. كما أنه يتطلع إلى الهجوم، فلا يزال مقداماً وقوياً. وتتجسد المرحلة الأخيرة في سيطرة المتادور (المصارع) على الثور بعون من الموليتا. تهدف هذه المرحلة إلى إنهاك الثور إلى أن يدرك أنه خسر المعركة. وهنا يخفض هذا الأخير رأسه، ويفقد سرعته وتتثاقل خطواته، ويبدأ التعب يأخذ منه كل مأخذ.

عندما ينفذ الحكم بالإعدام -لحظة الحقيقة- أو الإيستوكادا، على نحو صحيح يتجه المتادور (المصارع) إلى قرني الثور ليغرز سيفه بين قوسي عظمي كتف الثور. يظهر المتادور البطل أنه واجه الموت بحزم ورشاقة، ومن خلال سيطرته ومهارته أخضع الثور وتفوق عليه دهاءً. لكن الموليتا يحمي المتادور في حال لم يسبق للثور أن واجه رجلاً من قبل فقط. وإن كان الأمر كذلك، فإن الرجل هالك لا محالة. ولهذا السبب، لا يدخل ثور مقاتل الحلبة مرتين.

استثارة المشاعر

مال معظم الفنانين إلى تصوير انتصارات الثور في حلبة المصارعة، أكثر مما رغبوا في تصوير موت الثور. تظهر لوحة غويا «موت بيكادور» (1793) وهي جزء من سلسلة تتألف من ثماني دراسات تتعلق بمصارعة الثيران، ثوراً يبقر حصاناً وفارسه بقرنيه.

كانت مصارعة الثيران ورمزيتها جزءاً مألوفاً من أعمال بيكاسو خلال حياته، لكن الأكثر تميزا منها والأكثر بروزاً، جاءت من منتصف العقد الثالث من القرن الماضي. استخدم بيكاسو عنف مصارعة الثيران (الثور يمثل الذكورة، وأما الحصان فيرمز إلى الأنوثة) لينفس عن الغضب والإثم والرغبة التي تضايقه في حياته الخاصة: أي في علاقته السرية مع ماري تيريز في الوقت الذي كان فيه متزوجا من أولغا. كما أنه الميناتور في سلسلته مينوتاوروماشي [lxxvii]. لكن ربما كانت أشهر لوحة لثور رسمها بيكاسو تحفته «غورنيكا» (1937)، التي رسمها ردةَ فعل على قصف النازيين الألمان لمدينة غورنيكا في السادس والعشرين من نيسان من عام 1937 خلال الحرب الأهلية الإسبانية. وبالرغم من أنه لم يفسر رمزية اللوحة، فالثور يرمز إلى الشعب الإسباني الذي وقف يتحدى المعتدين، أو ربما كان رمزاً لوحشية وظلامية الحرب والفاشية.

بعد الانتقال من الرسم على الكنفا إلى السيليلويد، شكلت مصارعة الثيران-مع إمكانية تحولها إلى مشهد- موضوعاً للعديد من الأفلام السينمائية القديمة التي صورها فرنسيس دوبلير في مدريد في عام 1895. لقد ضم الفيلم الذي عرض في «الغراند كافي» في باريس على أجزاء من الاستعراض والقتال، والاندفاع المفاجئ والتهديدات التي أطلقها الثور والمتادور الذي حاول أن يقتله. أما فيلم «مصارع ثيران إسباني» الذي أنتج عام 1900 فقد خضع للرقابة في بريطانيا على خلفية إبرازه قسوة بالغة حيال الحيوانات. أظهرت الصور، الفظيعة التي التقطت بالأسود والأبيض وعرضت صامتة، موت الثور من دون الخلفية المعتادة التي توحي عادة بصخب الحشود، والعواطف الشديدة، وأشعة الشمس الدافئة. فهو قتال وحشي لا ينتهي إلا بالموت(lxxviii).

كما استخدمت حلبة القتال لتوضيح غاية أخلاقية بعينها أيضاً: وهي أن السلام والعذوبة، أفضل من القتال والموت. لقد أبدع مونرو ليف شخصية الثور فردناند في كتاب له ذاع صيتهونشر في عام 1936، يُجبرالثور فرديناند الرقيق المحب للسلام، الذي لا يبغي سوى الجلوس، وتنشق عبير أكاليل الورود التي جاءت بها المتفرجات من النساء اللواتي قذفن بها إلى المصارعين، على الدخول إلى إحدى حلبات المصارعة في مدريد. حُوّلت الرواية إلى فيلم رسوم متحركة أخرجه ديزني وايت في عام 1938 تحت عنوان «الثور فردناند» Ferdinand The Bull.

كانت الثيران بعيداً عن إسبانيا، تُوّرط في قتالات في فرنسا والبرتغال وكولومبيا والإكوادور وغواتيمالا والمكسيك وبناما وبيرو وفنزويلا. كما افتُتحت مدرسة لتعليم مصارعة الثيران في سان دييغو في كاليفورنيا. رغم ذلك وفي عام 2004 أعلنت برشلونة نفسها «مدينة معادية لمصارعة الثيران»، بعد عدد من الاحتجاجات

الشعبية والتماس قُدم إلى مجلس المدينة. وحذا حذوها ثمانية وثلاثون مجلساً بلدياً كاتالونيا. وفي كانون الأول من عام 2006 أعلن عن إغلاق آخر حلبة مصارعة ثيران في إشبيلية بعد تناقص أعداد الزوار. ساد الاعتقاد في الماضي أن برشلونة هي المقياس لجميع النزعات الثقافية الحضارية عبر البلاد، وبهذا فالكوريدا يمكن أن تندثر من إسبانياوإلى الأبد.

3 - صوفية البقرة والأنشودة الريفية

تقف صفات البقرة ورمزيتها، التي تقترن بها على تضاد مباشر مع تلك التي للثور، كما في الطبيعة. ففي الوقت الذي يرتبط الثور بالقوة والقدرة، تشعّ البقرة لطفاً ورقة. هو يجأر وهي تخور. يُخشى منه، أمّا هي فتعشق.

ربما ليس هناك من حيوان آخر أُحيط بمثل هذه المعاني الشاعرية، ونقاء الريف كما حدث مع البقرة، فهي الحيوان الذي يحتاج إلى مداعبة من الحلابات الرقيقة كي تدر الحليب، كما أنها مصدر عزائنا وراحتنا وسلوانا من صخب المدينة. فهي «الراحة للمتعب»[lxxix]. ليس هناك من حيوانٍ آخر يقترن بمثل هذه الحميمية، وذلك القرب من الأنثى البشريةٍ كما هي البقرة. فالبقرات أمهات حقيقيات، وفتيات حسناوات، وقادة أرستقراطيات، ونساء مضطهدات.

احترام البقرة

أولى البشر حتى عهدٍ قريب، عبر أرجاء العالم البقرة احتراماً، وعاملوها على نحوٍ جيدٍ، ذلك أنها كانت (ومازالت في الثقافات الرعوية)، نموذجاً بدئياً للخير والفائدة. فهي التي توفر لنا العجول لاستخدامها في الحقول دون تذمرٍ أو شكوى، لابل تفعل ذلك بمنتهى العذوبة. كما أنها تمدنا بالحليبٍ ومنتجاته، وتقدم الأسمدة للوقود والمخصبات للمحاصيل. إنها الواهب المطلق لموارد لاتنضب. ولأنها حيوان ضخم، وعزيزٌ ثمنها، والاحتفاظ بها يقتضي يسراً في الموارد، فقد تمت العناية بها وُدلّلت، ولاغرو فهي البضاعة الأغلى.

وكما كتب فيها، العالم وأحد رجال البلاط في إنجلترا السير كينليم ديغبي في عامٍ 1658: كل الريفيين وسكان الأكواخ من أعلاهم إلى أدناهم شأناً، لديهم بقرة تمدهم بالحليب. إنها العون والقوت الرئيس، لأشد الناس فقراً........وهذا ما يجعلهم يعتنون



بقرة تبكي تدر حليبها لرجل جوعان، وتحرم منه عجلها الصغير. مصر الأسرة الحادية عشرة، (2134-1991) قبل الميلاد.

بأبقارهم ويعتنون بصحتها[lxxx].

البقرة هي الحيوان الذي نحتاجه كل يوم، ونراه كل يوم أيضاً. فهي ليست غريبة ولا مثيرة. إنها تقبع هناك، وتمدنا بالخير والخيرات دائماً، وتعيش بالقرب من بني البشر سعيدة فرحة. يبدو أن في الأمر تناقضاً، أن يصبح حيوان صبور مستكين، نجماً مهولاً في التراث العالمي والميثولوجيا القديمة.

لكن مقطعاً في رواية (1999) The Cow للكاتب بيت ستيرشي يوجز السبب في ذلك، وهو الاحترام: كان أمبروسيو الراعي الإسباني، الذي اعتاد على كبرياء ثور فتي من كورونا ومسحة من غضب، يعتني بقطيع يتألف من اثنتي عشرة بقرة حلابة من نوع سيمنتال[1] في سويسرا. لم يكن أمبروسيو قادراً على أن يُعجب بالأبقار، لكنه لم يستطع أن ينكر أن هذه الأجساد مفرطة البدانة تعانق احتراماً، وتواضعاً يمنح المرء الراحة. ربما كانت البقرة حيواناً كئيباً مضجراً،

(١) نسل من الأبقار الأبيض والأحمر يربى للحمه وحليبه. سمي كذلك تيمناً بوادي سيمنتال Simmental الذي يقع في وسط سويسرا؛ (المترجم).

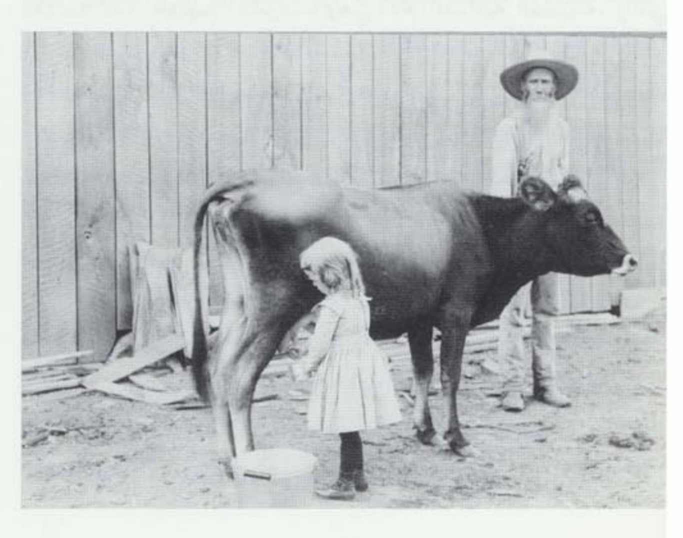
لكن الدفء الذي تحنو به وحيوية دواخلها المتدفقة أبداً، واجترارها للطعام وهضمها له، وتكاثرها، وإدرارها الحليب، وخيراتها التي تمنحها حتى وهي نائمة، ذلك كله مارس تأثيره في أمبروسيو رغم أنفه. أحياناً، يبدو عطاء البقرة المتواصل دائما، واللامحدود كأنه هبة تمن بها الآلهة عليه. وماكان عليه إلا أن يحترمها[lxxxi].

تمثل البقرة الغذاء الأمومي، بسبب قدرتها على توفير الحليب. وفي واقع الأمر هي أم البشر جميعاً. واستنتاجاً يمكن القول، إنها أم الآلهة أيضاً. فقدرتها على منح الحليب، جواز مرورها إلى العظمة. وهل هناك ما هو أعظم؟ فحليبها سبب وجودها. وها هو أوغدين ناش (1902-1971) الشاعر الأمريكي يقول:

كائن ينتمي إلى البقريات،
خوار وحليب هي[lxxxii].

تراث البقرة وميثولوجيتها

في الوقت الذي نجد فيه الإلهات البقرات زوجات الآلهة الثيران

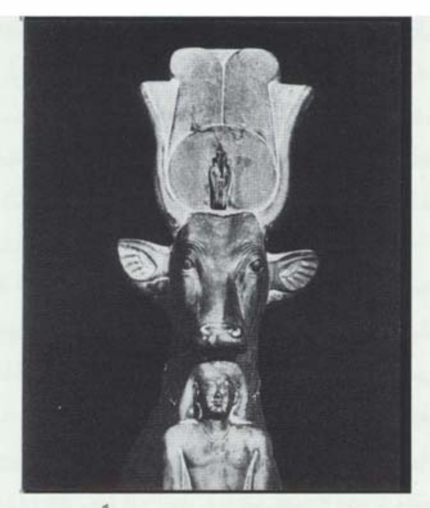


توفر بقرة المنزل متطلبات العائلة كلها من الحليب ومشتقاته. صورة من عام 1902.

(كما رأينا في بلاد الرافدين)، تحتل البقرة الموقع الرئيس في عدد من أساطير الخلق. «فأودوملا» هي البقرة البدائية في الميثولوجيا الاسكندنافية التي عرفت باسم «المرضعة»، أي التي تمنح الغذاء، وتوفر أربعة أنهار من الحليب لـ«يمير» عملاق الجليد الشرير، الذي تشكل أطراف جسده العالم. تتغذى أودوملا على الملح الذي يغطي قطع الجليد في «غينونغاب» اللجّ العظيم المتخم قدرة خبيئة ينتظر الخلق. ظلت أودوملا في غضون أيام ثلاثة، تلعق القطع الجليدية المالحة إلى أن ظهر «بيري» البشري الأول. أنجب «بيري» ولداً أسماه «بور» الذي أنجب بدوره ثلاثة أبناء الذين كرهوا «يمير» ليهاجموه في النهاية ويقتلوه. بجسده صنعوا الأرض، ومن دمائه سكبوا البحر، ومن جمجمته رفعوا السماء. لذلك تعرف «أودوملا» بوصفها القوة الخلاقة أيضاً.

ووفق كتاب هيروديت «تقرير عن مصر» لم يُضّحِ المصريون القدماء بالبقرة كما أنهم لم يتناولوا لحومها، وبما أن «نيث» كانت مقدسة عند آلهتهم البقرات، وهي الأم البدائية العظيمة، والتي كانت «سايس» مركز عبادتها، تشبه «أودوملا». أما الحكاية الأكثر اكتمالاً من جانبها في عملية الخلق فقد كتبت على جدران المعبد في «إيسنا». في بداية الحياة ظهرت كبقرة «إيهيت» تطفو على «النون» (كتلة مائية من شواش مظلم هائم من دون أي اتجاه). ومن خلال استحضار أسمائهم، شكلت ثلاثين إلهاً بدائياً ساعدوها في خلقها للعالم. بدأت من خلال إنجاب «رع» إله الشمس، ولذلك فهي أم جميع الآلهة.

أرسل المصريون في أزمنة لاحقة، عدداً من الإلهات البقرات «نوت» و«هيثور» و«إيسيس»(lxxxiii) أحياناً تُصوّر «نوت» ملكة السماء، أنها بقرة، ذلك أن هذا هو الشكل الذي اتخذته عندما حملت «رع» على ظهرها ووصلت به إلى السماء. تنحني البقرة المطيعة حتى



هيثور كبقرة، يسهر على الفرعون بساميتيكوس الأول 572-525 قبل الميلاد.

تلامس قدماها الأرض، لكنها تشمخ عالياً عندما يتشتت منها الذهن. عُيّنت أربع بقرات لدعم ساقيها (أصبحوا الآلهة الأربعة أعمدة السماء) أمسك «شو» إله الهواء بمعدتها التي أصبحت «قبة السماء التي ربط «رع» إليها النجوم والكواكب لينير الأرض.

أخذت «نوت» في واحدة من الأساطير، تمنح الحياة لـ«رع» كل يوم، وبدوره كان يمر على جسدها إلى أن يصل إلى فمها عند الغروب. ثم يلج فمها وجسدها، ليولد من جديد في الصباح التالي. وأما هيثور الإلهة الأم فهي التي تتفوق وتشمخ فوق جميع الآلهة المصريين، وعندما تكون في قمة عطائها ورعايتها للآخرين، تُصور على شكل بقرة. باتت «هيثور» إلهة الأمومة، ونالت ألقاباً شأن «البقرة العظيمة التي تحمي طفلها». وكُهّانها «ذكوراً وإناثاً» كانوا وسطاء روحيين وقابلات، وكانت رعايتها وحمياتها للأطفال والنساء الحبالى تُستحضر دائماً. ومع إيزيس، كانت توفر القوت والغذاء، لأرواح الموتى في العالم السفلي أثناء تحنيطهم، وعندما تكون قلوبهم

مثقلة في قاعة الحساب. كما تُصوّر أيضاً على شكل بقرة بوصفها خليلة نيكروبوليس الطيبي.

إذاً وضعت الميثولوجيا، البقرة في مركز الكون كما جعلتها أماً للبشر والآلهة. أما الفلكلور من جهة أخرى، فمال إلى تصوير البقرة في وظيفتها العادية بوصفها الكائن الذي يوفر القوت والغذاء، ولو أن تصويرها هنا يتم بطريقة سحرية مبجلة.

تظهر في الفلكلور السلتي أبقار على نحو سحري أمام أي شخص يستحق حليبها، وتوفر له مؤونة لاتنتهي مجانا. فهناك البقرة الويلزية السحرية المقلمة بالأسود والبني «فوك فريش»، و«غلاس غايبنيش» البقرة الرمادية من أصل إيرلندي(lxxxiv). رغم ذلك تختفي البقرة فورا إن ضُربت وحُلبت في دلو يرشح، أو إن تمت أذيتها بطريقة أو أخرى. وأما ردة فعل بقرة «الدون»، وهي بهيمة مهولة تنتمي إلى أحد العمالقة، وتربى في ميتشل فولد في شروفشاير، فعنيفة ولا سيما عندما يتوقع منها أن توفر حليباً أكثر مما تريد. وكما هي الحال مع معظم البقرات الأسطوريات، فحليبها لا ينضب. ذات يوم، أرادت امرأة عجوز كانت قد ملأت دلوها حليباً أن تملأ دلواً آخر يرشح. لكنها ضيّعت الحليب الثمين. وهذا ما أغضب البقرة، حتى تحررت من المربط، وأخذت تتجول في مروج دونسمور، حيث قيل إنها لازمت خندقاً وبدأت تصب أذيتها على العديد من البشر. في النهاية ذبحها البطل غي، إيرل وارويك.

دايسي بقرة أخرى جاءت من أعماق الفلكلور الذي أضفى عليها صفات سلبية. تنتمي هذه البقرة إلى «كيت أو ليري» المهاجر الإيرلندي الذي بات أسطورة الشاشة الفضية. أشيع أن دايسي تسببت بحريق شيكاغو العظيم في الثامن من شهر تشرين الأول من عام 1871. بعد أن ركلت مصباحاً، يعمل على الكيروسين فأوقعته. ورغم اعتراف مايكل أرين، المراسل الذي كتب حكاية هذه البقرة في

عام 1893 أنه اخترعها، فقد باتت الحكاية أسطورة تخص المدينة، وصُوّرت في فيلم حمل عنوان (1935) «In Old Chicago». وباتت شيكاغو تعرف «بالمدينة التي أضرمت بقرة النار فيها»[lxxxv].

ثمة أسطورة ريفية تتصل بأبقار كشف النقاب عنها باحثون في كندا مؤخراً. إن الفكرة التي تقول بإمكانية أن يقلب المرء إلى بقرة باستخدام قوة كبيرة عرفت «بقلب البقرة» ما هي إلا مغالطة. وقد ورد في صحيفة التايمز البريطانية أن التسلل إلى بقرة غافلة، وقلب ذلك الحيوان المسكين رأساً على عقب، يشكل متعة يمارسها السكارى والثملون من البشر في الأرياف»[lxxxvi].

أبقار عدوانية بطبيعتها

تبدو الأبقار أنها تقاوم، لكن الأبقار العدوانية بطبيعتها، موجودة فعلاً. وغالباً ما يتم الاحتفاء بها. ففي نهاية ركض يومي للثيران في بامبلونا وعندما تزرب في حظائرها، يجتمع الهواة وينتظرون «الفاكويلا». يشهد هذا الحدث على إطلاق خمس بقرات مقاتلات إلى الحلبة. والمناوشات الخطرة هنا مسموحة ولكن من دون مواجهة.

لعبت البقرة الخطرة دوراً في استشهاد بيبيتوا واحدة من القديسات اللواتي كنّ يعتنين بالماشية. وُضعت بيبيتوا في مسرح روماني مقابل عِجلة صغيرة هائجة لتبشرها بالتعاليم المسيحية. تمضي الحكاية لتقول: إن العجلة ركلت القديسة التي تنهض لتساعد عبدتها فيليسيتاس التي كانت في الحلبة أيضاً. في النهاية تقتل بيبيتوا نفسها بسيف مصارع قبل أن تُقتل رغماً عنها.

هناك سلالة أخرى من الأبقار العدوانية على نحو طبيعي وهي سلالة «هيرينز» (تعرف أحياناً بسلالة إرنفر) التي جاءت من إقليم فالي السويسري. كانت تلك الأبقار تشترك بنزالات غريزية لتحديد التراتبية على قيادة القطيع إلى مراعي الصيف في جبال



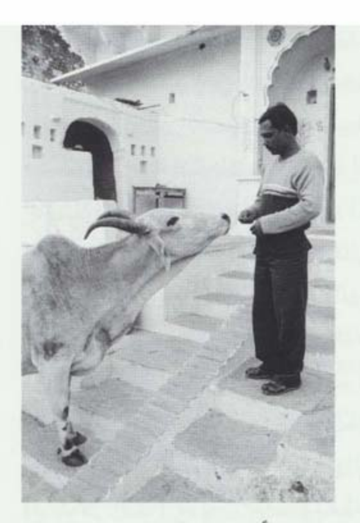
أبقار «هيرنز» تقتل من أجل التسيد على القطيع، خلال منافسات الربيع في رارون في مقاطعة فالي السويسرية.

الألب. ومنذ العام 1923 شهدت هذه النزالات المنظمة حشوداً هائلة كانت تتجمع لمشاهدة مباريات إقليمية بين الأبقار التي ربيت على نحو خاص، مع «ملكة القطيع» أو «ملكة المقاطعة» التي تتوج في أيار في النهائيات التي تقام في أبروز. أما العجول التي تولد للملكة، فتبلغ قيمتها 3600 دولار أمريكي[(lxxxvii)] على الأقل.

وفي الوقت الذي لا تكون فيه أبقار «هيرنز» خطرة على البشر، هناك دائماً مخاطر عندما يعمل المرء مع ماشيتها، فهي مهنة خطرة. ووفق المكتب التنفيذي البريطاني للصحة والسلامة، فقد قتلت الماشية نحو 23 شخصا فيما بين عامي 1994 – 1999 مع مئات من الجرحى. تقع الحوادث التي تشترك فيها الأبقار عندما تستفيق غريزة الأمومة عندها لحماية عجولها من أناسٍ خطرين[(lxxxviii)].

البقرة المقدسة

ليس عجيباً أن الهند، هي موئل أكبر عدد من الأبقار من بين جميع البلدان.فنجد هناك الكثير من الحبً الذي يمنح للبقرة.



إطعام بقرة مقدسة: تبعد الشر وتحقق الأمنيات.

ومثل العديد من البلدان، فللهند بقرتها الأسطورية الخاصة واسمها «سورابهي» المعروفة بـ«بقرة الوفرة» (وتعرف أيضاً بكامادينو أي «البقرة التي تحقق الرغبات والأمنيات»). تعد هذه البقرة أول الثروات والكنوز التي ظهرت من محيط الحليب البدائي الذي مخضه «فيشنو». ويسود الاعتقاد أنها أم البقرات جميعا.

تتخم حيوات الهندوس اليومية الطقوسُ والممارسات والعادات التي تدور حول البقرة. فهي تُعبد في المهرجانات. وفي بعض أصقاع الهند يُكرس يوم من شهر تشرين الثاني يدعى «غوسثاستامي»، للبقرة. تجول ثيران شيفا في الطرقات دون أن يعترضها أحد، وأما حليب الأبقار وخثارته وسمنه فيستخدم في الطقوس التي تتم في المعابد بوصفها أعطيات للآلهة. وأما السائل المسكر المعروف باسم «بانشا-غافيا»، فهو محلول صنع من خمسة منتجات من بقرة حية هي: الحليب والسمن والخثارة والبول والروث. وهو أكثر المواد فعالية، وقداسة عرفها الهندوس. وإليه تنسب خصائص سحرية وتطهيرية

مثل إبعاد الشر ومباركة الزيجات.

ولكن، كيف ومن أين نشأ مفهوم البقرة المقدسة؟ رغم عدم وجود دليل على الكيفية التي أصبحت فيها البقرة مقدسة في وادي الهندوس، فقد ارتبطت مع الإلهة الأم التي كانت هي نفسها البقرة التي تدر الحليب بوصفه «واهب الحياة»، لكنها لم تصبح حيواناً رئيساً في المجتمع الهندي إلا خلال الحقبة الفيديكية: الأبقار هي أمهات الكون. تقترن البقرة في «الريغ – فيدا» أناشيد هندوسية مع بريثيفي (الأرض الأم) وهي صاحبة «ديافا» (السماوات). أما الآلهة «أديتي» فتدعى «بقرة الحليب»[lxxxix]. كما ترمز الأبقار إلى عناصر الحياة مثل المطر والغيوم والمياه الكونية، التي خلق العالم منها[xc].

وبصرف النظر عن التقدير والعاطفة التي تنصب على البقرة، لم ينظر إليها الآريون بوصفها مقدسة منيعة. فقد ضُحي بها إلى الآلهة، مع لحمها الذي يُؤكل ويتناوله كهنة البراهمة في الطقوس. وفي مناسبات الدفن (يتدثر الرجال بجلودها لحماية أنفسهم في رحلاتهم). وفي مناسبات أخرى مثل بناء بيت جديد.

لم ينتشر مبدأ «أهيمسا»، وهو العقيدة الأخلاقية، لدى الهندوس والبوذيين والجينستيين[1]، الذي ينادي بالحنو والشفقة وعدم الأذية، فقد عدت البقرة مقدسة على نحو كامل، حتى وقت متأخر من العصور الوسطى. وباتت فكرة قتل الأم البديلة للجنس البشري بغيضة. لكن بالرغم من أن هذه العقيدة استُقدمت إلى الهند في حوالي القرن السادس قبل الميلاد، فقد تطلب الأمر وقتاً لمخالفة القانون البراهمي وتغيير سلوكيات المجتمع.

ترسخ تحريم التضحية بالبقرة وحظر تناول لحمها في الهند الهندوسية قبل الفتوحات الإسلامية في القرن الحادي عشر. لكن مجيء الثقافة الإسلامية إلى الهند، ساعد في تعزيز قداسة

(١) Jainism فرع من فروع الديانة الهندوسية. (المترجم).

البقرة وطهارتها. فقد كان المسلمون يتناولون لحم الضأن، وكانوا «قَتلة أبقار». وبهذا باتت البقرة رمزاً للحضارة الهندوسية والسبب الرئيس لمقاومة الهندوس انتشار الإسلام. وبالمثل ساهم الاستياء الذي قوبلت به الهند المغولية والوجود البريطاني في الهند في حماية الأبقار إلى حد كبير. وحتى يومنا هذا، نرى صدامات بين الهندوس والمسلمين على خلفية التضحية بالماشية والمآدب والولائم التي تقام خلال عيد الأضحى عند المسلمين.

ثمة سبب مهم هو الآخر لازدياد تقدير الهندوس للبقرة، وتبجيلهم لها يتصل بعبادة كريشنا. فهو الأكثر أهمية من بين الأفاتارا (تقمصات) فيشنو حامي الكون، ويصوره جانب كريشنا الرعوي كرب رعاة القطيع، وغوفيندا (الشخص الذي يرضي الأبقار) والذي يحيط به جنس البقريات والغوبيس (إناث الأبقار) التي كرست له. يصف كريشنا أهمية الأبقار:

نحن رعاة الأبقار نجول في الغابات
ندافع عنها بأنفسنا فهي ثروتنا
وآلهتنا وجبالنا وغاباتنا[xci].

ربما كان الدليل الأكثر إقناعاً على مفهوم البقرة المقدسة الباقي حتى الآن في الهند الحديثة، هو الوجود المستمر لـ«بينجرابولس» (موطن الحيوانات القديمة)، و«غوشالاس» (ملاجئ الماشية) حيث تنهي قلة من البقرات المحظوظات أيامها. تعد إدارة ملاذات الأبقار تلك مكلفة جداً، ذلك أن تكاليف تربيتها تتجاوز إلى حد كبير أي دخل آخر من بيع الخثارة والجلودوهياكلها العظمية. رغم ذلك فهذه الملاذات موجودة. ومايزال القول بوجوب ذبح البقرات المصابات جميعها، أو عديمات الفائدة بغية إطعام العديد من المتضورين جوعاً في الهند، نوعاً من الانتحار السياسي. وما جاء على لسان أنديرا غاندي في عام 1975 يؤكد على ذلك: «ليس هناك من سياسي



مهرجان الماشية – راجستان 1830 قبل الميلاد، رسم بألوان الغوش على القماش. تظهر هذه المعلقة الجدارية على المعبد ثري ناثجي (ألوهية كريشنا) محاطاً بالأبقار وقطيع الأبقار كإشارة إلى ميدان كريشنا القديم، ويسمى «غولاكا» أو «مكان الأبقار»

في الهند يجرؤ على أن يفسر إلى الجماهير تحليل تناول لحوم الأبقار»(xcii). لكن ما يثير السخرية أن هناك كثيرا من الأبقار التي تعاني نتيجة لهذه السياسة، فعدد الأبقار في المدن بات مهولاً. ففي مدينة دلهي يعيش جُلّ الأبقار التي يقدر عددها الإجمالي 40000 بقرة تتنقل بحرية بين 13 مليون نسمة، ويترك معظمها تتجول بحثاً عن الطعام والماء في القمامة. كما أنها لا تُعترض عندما تسد طرقات المدينة وشوارعها. وكثير منها مهمل ولا يطعم إلا قليلاً، وأما الأمراض فتعشش فيها. ويستخدم العديد من موظفي المدينة «رعاة البقرمن أهل المدن» لجمع وسوق الحيوانات السائبة عديمة الفائدة من الضواحي إلى المحميات(xciii).



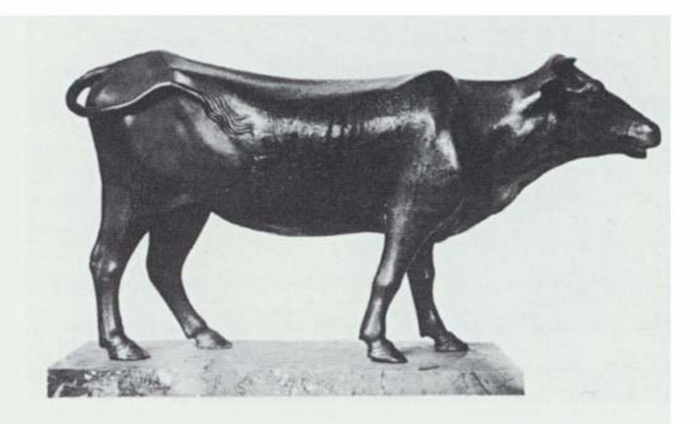
النتائج التي أفرزها أفراد العديد من الماشية التي تعيش في المدينة في كاتماندو، نيبال حيث لا تجيز القوانين ذبح الأبقار، لكن لحمها يمكن أن يؤكل (تستورد لحومها من القسم المسيحي أو المسلم من الهند).

تأتي التقارير الحديثة التي تتناول الأسفار إلى الهند على ذكر البقرة المقدسة والتبجيل الذي تحاط به دائماً. لكن وكما يظهر المقطع التالي من كتاب نورمان لويس A Goddess in the Stones (1991) ثمة واقع مختلف بين أبقار المدينة وأبقار الأرياف:

فجأة ألفينا أنفسنا في بلاد الأبقار. أبقار لم أشهد لها مثيلا من قبل. فمدن مثل «بانتا» تتخمها أبقار كان يجب عليها أن تدافع عن أنفسها. كان غذاؤها يقتصر على القمامة ما مسخها وباتت عجفاء. في الريف -ورغم قسوة الظروف- كانت الأشياء مختلفة جداً. ففي قرية مجهولة الاسم، تقع بعد «بهر»، حيث مررنا بموكب جليل من رجال هزيلين منتصبين يجوبون المكان، يصطحبون بقرة نظيفة جليلة. ربما كانت في طريقها لترأس مهرجان. كانت تلك البقرة تساس بكثير من العناية، بينما تتهادى في مشيتها يرعاها صبيان يحيطان بها من الجانبين. كان الأطفال يركضون ويطيّرون طائرات ورقية زرقاء[xciv].

شخصية البقرة: تصوير الأدب لها

إنّ للأبقار والبشر علاقات جسدية حميمة (طبعا بمفردات الحياة، والعمل جنباً إلى جنب)، نجم عنه تطور وثاقٍ من العاطفة، منح تلك الحيوانات أسماءً وعوملت بوصفها جزءاً من العائلة. يتيح هذا الاحتكاك اللصيق للمالك أن يدقق في شخصية البقرة. ومن أجل الذين لم يحالفهم الحظ بما يكفي «ليعرفوا» الأبقار معرفة حَقة، بذل عدد من الكتاب جهودهم الخالصة؛ ليستكشفوا أساليبها. إن «هدوء البقر» هي صفة ابتكرها ستيرشي خصيصاً ليصف بها الطريقة التي تقف فيها الأبقار بهدوء وسكينة[xcv]. فهي تجتر بشكلٍ طبيعي، وتتأمل وتحدق في الفضاء وتبدي سلاماً كاملاً. يصف جلبرت وايت هذا أفضل ما يكون فيما يتعلق بغريزة البقرة في بحثها عنِ الماء في قيظ الصيف:... بتلك الغريزة تنسحب تلك الماشية ثيراناً، كانت أم أبقارا، عجولاً أم عجلات إلى الماء خلال



سلام وسكينة جلية: لوحة من البرونز تجسد بقرة. تعود هذه اللوحة إلى الإغريق.

ساعات القيظ الشديد، وهناك تتحرر من الذباب وتستمتع ببرودة الماء. بعض منها يغوص حتى وسطه في المياه، ويكتفي بعضها الآخر، بغمر قوائمه حتى منتصفها. تجتر وتسلي أنفسها من العاشرة صباحاً حتى الرابعة ظهراً، ثم تعود إلى طعامها[xcvi].

يطمح البشر أحياناً، إلى حالة الهدوء الكامل التي تُظهر البقرة متحفظة منشغلة البال. تهدئ الأبقار من روع أشد الأشخاص عاطفة. نجد في رواية «دومبي والولد» 1967 للروائي الإنجليزي تشارلز ديكنز، أن السيدة سكيوتن تحب الأبقار التي تجسد بالنسبة إليها الطبيعة التي تتمنى أن تحيط بها:

رُميت في نفايات المجتمع. الأبقار شغفي. أن أنسحب إلى مزرعة سويسرية وأعيش هناك تحيط بي الأبقار، هو توقي ولهفتي. وياللصين... ما أريده هو الصدق والصراحة، والتزام أقل بالتقاليد، وحرية أكبر في روحي. نحن مصطنعون على نحو مخيف»[xcvii]. كما أسهب دي. إتش. لورانس الروائي الإنجليزي في علاقته بسوزان، وهي بقرة سوداء كان يحلبها كل يوم باكراً في الصباح فيما بين عامي 1924-5 في مزرعته في تاوس – نيو مكسيكو. قائلا: «غفلتها

البقرية، خمولها البقري، همودها البقري» وسكينتها البقرية[xcviii].
وتساءل إلى أينٍ تمضي بأفكارها عندما تكون في غشيتها. لكنه يعتقد أنها تقبع دائماً في حالة «تشويش بكر بعينه»[xcix] لا يمضي بها بعيداً . يكتب لورانس عنها عندما يقطع عليها أحد سكينتها، مثلاً عندما تخيفها الذئاب الصغيرة ليلاً « ثمة شيء يهدر في تشويش عالمها»[c].

لكن لشخصية البقرة جانب آخر يجده لورانس أقل جاذبية: «بالنسبة لي هي نكدة متعبة، عنيدة»[ci]. هذا لأنها تتأكده عن عمد مثل التلويح بذيلها في وجهه وهو يحلبها: «أحياناً تلوح بذيلها عامدة، وتنظر إلي من زاوية عينها السوداء الرائقة العظيمة، وذلك عندما أعنفها»[cii]. ثمة لحظة حرجة أخرى عندما تلح عليها غريزتها، وتبدأ في البحث عن ثور: «بعد ذلك وعندما أقترب منها، تدوّر كفلها المرن الحاد في الهواء برفسة ونقرة وتندفع مثل ذكر أرنب، أو مثل شيطان أسود بين أشجار الصنوبر. أما ضرعها فيتأرجح كأجراس كنيسة[ciii].

يصف لورانس وعلى نحو خلاب متعة العمل والحياة مع الأبقار والإزعاجات التي تتسبب بها. فإن يأتي المرء بالأبقار من الحقول بغية حلبها، متعة كبيرة في أيام الدفء والشمس. لكن ذلك يسبب إحباطاً عندما لا يكون هناك متسع من الوقت، لأن الأبقار تتحرك على مهلها فهكذا خلقت. أكان لذلك علاقة بحجمها أم بعنادها فهذا أمر قابل للنقاش. وأمّا « على أن تأتي البقرات إلى البيت» فهي استعارة تعبر عن فترة طويلة من الوقت. فمجموعة من أبقار ملطخات بالأوحال، والأوساخ تساق من الكلأ يشبه مجموعة أطفال يسيرون الهوينى أو مجموعة من العبيد يساقون. تعطي قصيدة « Fetching Cows» للشاعر نورمان مككيغ (1910-1996) ميزة واضحة لصالح من يسوق الأبقار. فمجموعة الأبقار تخضع لتراتبية اجتماعية. وهي



بيتر بريغيل الأكبر «عودة القطيع» 1565 زيت على خشب. في الخريف القرويون يحلبون ماشيتهم من كلأ صيفي في الجبال لإسكانهم في القرية في الشتاء.

نادراً ما تحيد عنها:

تحرك البقرة السوداء التي تقبع دائما في المؤخرة، رأسها وتلف لساناً أسود على باقة من أعشاب. أراقب وزنها الخفيف يتهادى، وامتداد أقدامها المتشققة. وفي المقدمة تتمايل الأخريات غافلة، وتدور أعينها الإغريقة الباهرة. وتنفث طيبها من خياطيم سوداء لامعة كفحم ندي[civ].

يشير هذا المقطع أيضاً إلى جمال البقرة، وحسنها ولا سيما تلك العجلات الصغيرة. «فالعيون الإغريقية» ربما كانت إشارة إلى شكل العجلة الصغيرة التي تحولت إليها الإلهة «إيو» بأمرٍ من «زيوس» بغية إخفائها عن زوجته الغيورة «هيرا».



حلاّبة تنادي على سلعتها بين سكان لندن. قطعة خشبية تعود إلى القرن الثامن عشر نشرها أندرو وايت تيور في «صرخات أسواق لندن القديمة» (1885).

حب يغمر الأبقار، الحلاّبات

ترسخ اقتران الفتيات الصغيرات بالأبقار بعمق في الأفكار الأوروبية التي تدور حول البراءة، والجمال الريفييّن. فالحلاّبات بريئات بسيطات وصحيحات الأجساد. تلك هي الصورة التي رسمت عنهن: أشيع في القرن الثامن عشر أن للحلابات بشرة جميلة. يعود السبب في ذلك إلى تعرضهن إلى مرض جدري البقر الذي أكسبهن مناعة ضد مرض الجدري. لذلك لم تظهر على بشرتهن بثور شاعت عند المصابين به.

وفي عقد السبعينيات من القرن الثامن عشر احتُفظ بالأبقار في لندن خلف المحلات، حيث ترعى في حديقة الهايد بارك والغرين بارك. اشتمل جانب من عمل الحلابات على بيع الحليب الطازج لبيوت المدينة بالطريقة التقليدية التي كن يُعلنَّ فيها عن سلعهنّ: «حليب، حليب نحن الحلابات». هكذا كن ينادين على الحليب.

لقد تماشت التصويرات المرئية لتلك الحلاّبات مع وجهات النظر



أربع وأربعون صورة نموذجية لإحدى الحلابات. 1906 صورة فوتوغرافية.

التقليدية. فقد ضمّنها الفنان فرنسيس ويتلي (1747-1801) في لوحته «صيحات لندن» (1793) والتي سعت إلى الحفاظ على صور لمجموعات من اللندنيين الأصليين من سكان المدينة الباقين على قيد الحياة، المحتفظين «بدفء وسحر الماضي»(cv). رغم ذلك، أظهر الواقع في المدن-على الأقل بالنسبة للصحافي البريطاني جورج أوغست سالا الذي سجل مشاهد للندن عام 1859- حلابات «ضخمات الأجساد غليظات، ذوات وجوه ميالة إلى البني لون أخشاب الماهوغاني، كستهن الريح والجو بهاءً. يجبن الشوارع ويبعن حليباً ذا طابع متروبوليتاني أكيد»(cvi).

لكن صورة الفتاة الريفية مثال الإثارة الجنسية التي تعمل في منشآت الحليب والألبان استوطنت أذهان سكان المدن. كانت الحلابة طاهرة عفيفة متواضعة وفتاة كادحة نظيفة. ولا عجب، فهي توفر الحليب الطازج والقشدة لسكان المدن(cvii). وهي صورة بعيدة جداً عن المنتجات القذرة التي تخلو من أي أثر للحليب الطبيعي الذي كان يبيعه تجار المدن. ربما كانت «تيس دوربيفيلد» التي وجدت السلام

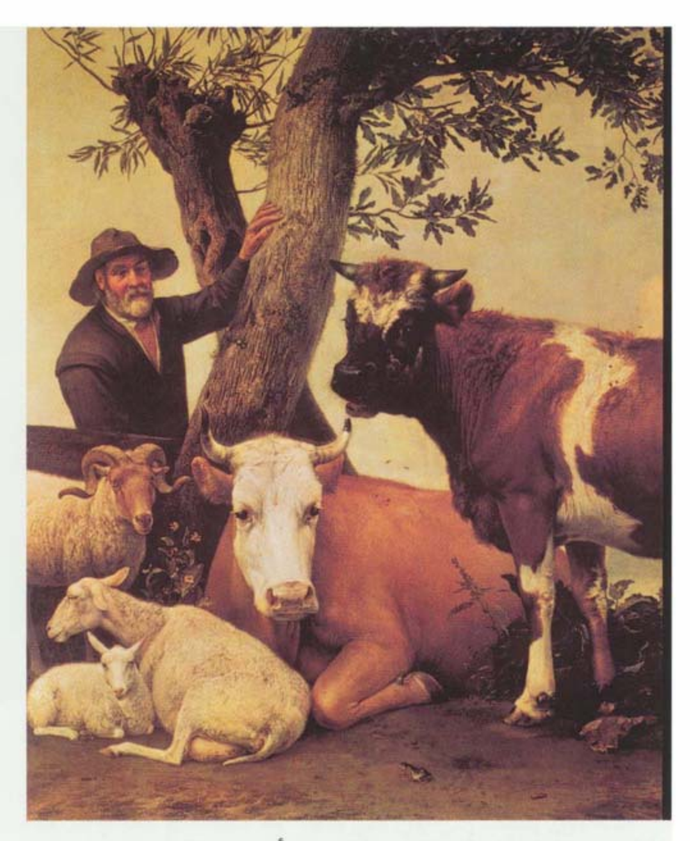
والسعادة في مزرعة «دايري مان كريك» بطلة رواية توماس هاردي (Tess of the D›Urbervilles: A Pure Woman(1891 أكثر الشخصيات الروائية التي تحدثت عن الحلابات، شهرة.فقد يصفها طالبها للزواج أنجل كلير: «ابنة عذبة بتول للطبيعة»[cviii]. وكما يبين المقطع التالي لم يتمكن كلير من أن يقاوم سحر تيس وهي تحلب «أولد بريتي» إحدى البقرات الحمراء الداكنة: كل الرجال، وبعض النساء يقحمون جبهاتهم في الأبقار عندما يحلبونها ويحدقون في الدلاء. لكن القليل، وفي معظمهم الأفتى والأكثر يناعة، ينحّون برؤوسهم جانباً. تلك كانت عادة تيس. فهي تضغط بصدغها على خاصرة ذلك الحيوان الحلوب، وتذهب عيناها إلى نهاية المروج بهدوء شخص تائه في التأمل. كانت تيس تحلب «أولد بريتي» بهذه الطريقة. وصادف أن قبعت خيوط الشمس على الجانب الذي كانت تحلب فيه تيس البقرة، وأشعت على جسدها الذي لفه اللون الوردي، وعلى قلنسوتها التي علقت كستار، وعلى مظهرها الجانبي أيضاً جاعلة منها رهيفة كحجر كاميو الكريم قُدَّ من الخلفية البنية للبقرة.

لم تعرف تيس أن كلير، كان يتابعها بنظراته. وأنه جلس تحت البقرة ليراقبها فقط. كانت حالة السكينة، والهدوء التي وسمت رأسها وملامحها بادية للعيان. كانت ترى كلّ شيء في غشية، فعيناها مفتوحتان، رغم ذلك لم تر أي شيء. إذ لم يتحرك في الصورة شيء سوى ذيل «أولد بريتي». وأما يدا تيس الورديتان فبدتا كخفقات أو ربما نبضات إيقاعية، وكأنهما تطيعان منبها لفعلٍ منعكس مثل قلبٍ ينبض»[cix].

فن الأبقار، الباقي، والذي مضى

ظهرت الحلابات وأعمالهن على قماش الكنفا، أكثر مما ظهرن في الأدب. وبسبب صورتها المألوفة التي يراها البشر كل يوم، باتت البقرة واحدة من أكثر الصور انتشاراً في الرسوم التي تناولت الأرياف، أي

تفصيل من باولوس
بوتر «الثور» 1647
رسم زيتي على كنفا.



سكان الريف العاديين الذين يقومون بأشياء ريفية عادية. برزت البقرة وهي تُحلب وتتسكع في الحقول، وتحرك فاهاً في كلأ الأعشاب. وصُورت أيضاً، وهي تساق على طول دروب قذرة متسخة، وهي تغوص حتى الركبتين في برك مائية أو أنهار. لقد صُوّرت البقرة عموماً تسير ضمن قطعان. وأما البقرة الحلوب فهي المليكة. ولكن وحتى بالرغم من أن تصويرها في أثناء قيامها بأشياء طبيعية له علاقة ببنات جنسها، فإن تصويرها بحد ذاته عكس قيماً مجتمعية متبدلة[CX].

تطور الرسم الذي تناول الماشية في أواسط العقد الأول من القرن السابع عشر، أولاً في هولندا. وهنا باتت مزارع الألبان وتربية الماشية خلال تلك الفترة، الاستخدام الرئيس للأرض، وذلك بسبب برامج استصلاح الأراضي، وبالتالي باتت مصدراً للدخل والمجد القومي. فقد باتت البقرة الحلوب شعاراً للرخاء الهولندي وظهر العديد من لوحات تصور البقرة «الطبيعية».

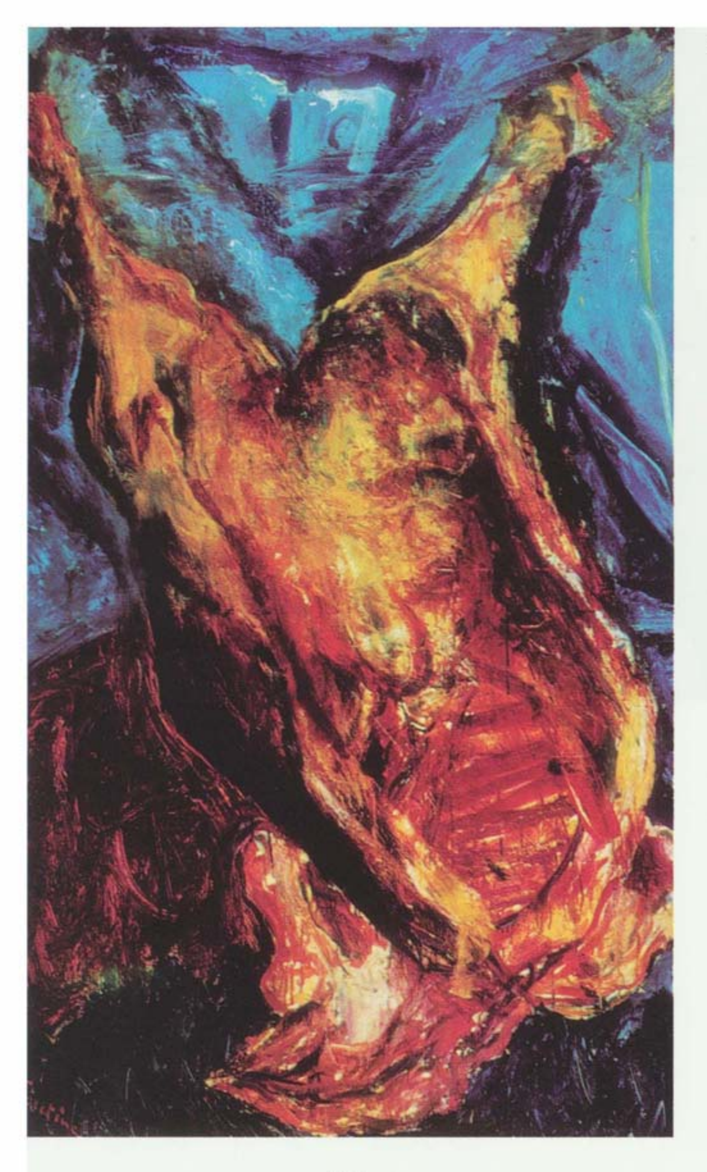
كان باولوس بوتر (1625–1654) واحداً من أوائل الذين تخصصوا في هذا النوع من الرسوم، وسرعان ما أبدع أول تجسيد له بعنوان لوحة «الثور» (1647). لقد طمح العديد من الرسامين الآخرين إلى تصوير تفاصيل جلود الأبقار والثيران، وتجعداتها، وتصميم عضلاتها. رغم ذلك أظهرت الدراسات التشريحية الحديثة أن بوتر أبدع لوحة الثور من رسومات لعدد من الحيوانات في أعمار مختلفة[cx]. ووصولاً إلى العقد الأخير من القرن الثامن عشر، كانت صور الماشية تُجسَّد على نحو واقعي في معظمها، ذلك أنها صورت واقع الحيوانات العاملة والفلاحين الذين يكدون في الأرض. ثم ظهرت صورة الريف والأبقار التي تحولت إلى صور رومانسية حالمة، واستمرت حتى القرن التاسع عشر. ومن بين الفنانين البارزين في تلك الحقبة كان فيربيكهوفين في بلجيكا وتوماس سيدني كوبر في إنجلترا، وبراسان في فرنسا وفولتس في بافاريا. رسم أولئك الفنانون، مشاهد طبيعية، وأبقاراً عبر زجاج تخلله اللون الوردي على نحو طفيف. فقد صُوّرت مراعي الكلأ خصبة معطاء. والماشية ساكنة هادئة. واستمر الأسلوب السائد آنذاك إلى منتصف الخمسينيات من القرن التاسع عشر، عندما استحوذ مزيد من الاتجاه الموضوعي الواقعي على الرسم الأوروبي. وهنا بدت الماشية، والمشاهد الطبيعية التي احتضنتها أكثر صرامة وازدادت فيها العناصر الطبيعية والحياتية اليومية، بما أنها تأثرت



فرانز مارك «بقرة صفراء» 1911. رسم بالزيت على كنفا.

بالمدرسة البريزونية التي ظهرت في فرنسا ومدرسة هوغو في هولندا.

ثمة قول ينسب إلى بول كلي يفيد أنه كلما كان العالم مرعباً، ازدادت تجريدية الفن[cxii]. كما صورت البقرة في أعمال عدد من الفنانين الأوروبيين، الذين سعوا إلى الهروب من العالم الحديث؛ ليعودوا إلى حالة بدائية طفولية. فلوحة «أنا والقرية» (1911) للرسام مارك شاغال (1887–1985) تعبر عن اندماج ذكريات من طفولته الروسية البيلاروسية. يعود شاغال على نحو نوستالجي إلى الماضي، إلى عالم سُلِب منهوتواشجت فيه الأبقار وعائلته وجيرانه.



كاييم سوتيين «جثمان عجل» 1925. رسم بالزيت على كنفا.

ومقارنة مع العلاقة الحميمة بين البشر، والأبقار

تخيل الفنان الألماني فرانز مارك (1880-1916) عالماً خالياً من البشر. فلوحته «البقرة الصفراء» (1911)، تمثل مخلوقاً بهيجاً غُمر في محيطه، ويتحرك بحرية وعلى نحو لعوب وبقليل من جلال ونبل. وما البقرة التي رسمها سوى تجسيد مبطن لزوجته ماريا فرنك التي كان قد تزوجها حديثاً، والذي استخدم فيها اللون الأصفر رامزاً إلى الأنوثة والنزعة الحسية والفرح(cxiii).

إن الفن الذي يوحي برعب أكبر، هو الذي يجعل من موضوعه البقرة الميتة. لقد استخدم فنانون لحم جسد البقرة، والبقرة الميتة نفسها لنقلِ معانٍ عديدة. فالجثة في لوحة رامبرانت «ثور ذبيح» (1655) تبدو مشهداً صاعقاً شأن مشهد الصلب، التي تبدي اللحم جميلاً بتدرجات اللون الأحمر الوفيرة الغنية فيه. ألهمت هذه اللوحة عملاً للفنان البيلاروسي كاييم سوتين (1893-1943) الذي رسم بحالة وكأنها مسّ شديد، جثمان ثور مدفوعاً بأسباب شخصية وخاصة جداً. احتفظ سوتين بالجثمان في مرسمه وأخذ يجصصه بدماء طازجة مرة إثر مرة. خلال هذه الفترة التحضيرية، وقبل أن يبدأ بالرسم كان سوتين يصوم. فقد كانت لديه مشكلات كبيرة مع الطعام، ويعود ذلك في جانب منه إلى الجوع الذي عانى منه في شبابه. وهناك سبب آخر أيضاً، يتجسد في أنه كان عاجزاً جسدياً عن تناول اللحم. لكن لوحته «جثمان لحم العجل» أطلقت العنان لنزعاته اللاحمة.

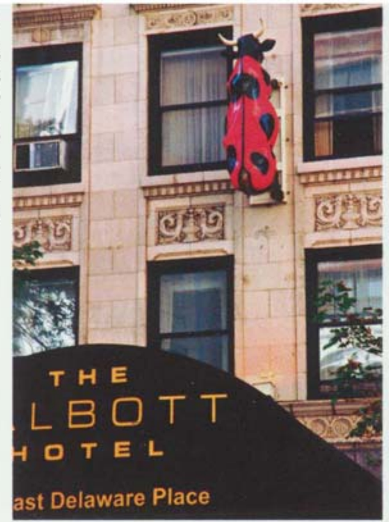
استخدم فرنسيس باكون (1909-1992) المظهر الجسدي ككناية عن رعب الألم البشري، والمعاناة التي اختبرها الناس إبان الحرب العالمية الثانية.فقد شكلت الجثث المعلقة في وضعية صلب، خلفية لبطله المتوحش في لوحته «رسم» حيث حافظت الجثث على مظهر لحم الجسد الحي، فلحم الجسد البشري ولحم الحيوان،

لا يمكن تمييزهما في الواقع. وعلى صعيدٍ أكثر تفاؤلاً، استخدم داميان هيرست (1965..) البقرة الميتة؛ ليظهر سيرورة الموت على أنها دورة الحياة. فقد ضُفرت البقرات الحبلى من جوانبها في اثني عشر فصاً وعُرضت- خارج سياق التسلسل- في كبائن على شكل غاز سُميّ عديم اللون. ظهرت اللوحة بعنوان «بعض الراحة التي تأتينا من قبول الكذب الكامن في كل شيء» (1996). وكما في أعمال هيرست الأخرى التي تناولت الحيوانات، سمحت التجهيزات والمعدات للمشاهد لأن ينظر إلى المظهر الجسدي للبقرة من الداخل والخارج، وتظهر الأبقار من الوهلة الأولى حية يوشيها قلق أو فلنقل عدم راحة.

ومن بين أبقار أخرى ظهرت في الفن هناك «الأبقار الإسمنتية (والعجول أيضاً)» في ملتون كينيز التي أبدعها النحات الأمريكي (ليز لي) في ستينيات القرن المنصرم. رامزاً إلى ريف مفقود، نثر الفنان السخرية على الفكرة المسبقة التي تقول «بالمدينة الجديدة» وهي أفكارتشبه تلك التي أطلقها الشاعر جون بيتمان في قصيدته Slough 1937:

هلمي أيتها القنابل الودودة، واسقطي
في سلوت.
فهي لم تعد تناسب البشر.
فلم يعد هناك من عشب ترعاه الأبقار
واحتشدي على الموت[cxiv]!

وأي طريقة أفضل نذكّر بها الأطفال الذين يشبون عن الطوق في ملتون كينيز بصورة البقرة هذه؟ لقد عاشت الأبقار الإسمنتية حيوات محفوفة بالمخاطر، بعد أن اختطفت طلباً لفدية، وجُعلت في وضعيات مخزية، وألبست لباس النوم، وكتبت عليها عبارات مرض جنون البقر السوقية، وضربت أعناقها (أعيد بناؤها بعد ذلك).



برايان كالفن كاوسينيلا نوفيمنوتاتا (بقرة رُقّط جسدها بتسع خنفساءات) معرض للأبقار في استعراض، شيكاغو 1999.

كما غزت أبقار مذهلة صُنعت من الألياف الزجاجية، وهيمنت على المدن الرئيسة في العالم منذ عام 1998 في معرض الفن الجماهيري الدولي «كاوباريد». تمت صناعة هذه الأبقار على طراز السلالة السويسرية البنية، بعد المعرض الأصلي الذي أقيم لها في زوريخ في سويسرا. فقد رسمها فنانون من مختلف الأعمار، وعرضوها لشهور عدة في الأماكن العامة، من مثل محطات الحافلات وساحات المدن والبلدات والحدائق العامة. وكانت تعرض في مزادات علنية يذهب ريعها إلى جمعيات الإحسان، والأعمال الخيرية في نهايةً كل معرض. لكن لمَ وقع الاختيار على الأبقار؟ بحسب موقع معرض «ماوباريد» الإلكتروني: من ذا الذي يستطيع أن يقاوم البقرة؟ هي حيوان جذاب، حلو يعشقه الكون كله. كما أنها تشكل مفاجآت عظيمة في المراكز الحضرية الرئيسة. هي توفر قطع كنفا مطوية فريدة بثلاثة أبعاد. انظروا بأنفسكم، انظروا إلى واحدة من البقرات، وحاولوا ألا تبتسموا[CXV].

أبقار محببة ظريفة

الأبقار حيوانات ممتعة، ولا جدال في ذلك. لكن الأبقار الظريفة التي تظهر على شاشات التلفزة وفي كتب الحكايات، تُصوّر أنها أبقار غريبة تختلف عن جميع الأبقار.يبدو وكأنها تخفي سراً عظيماً، فهي -ونقصد جميعها- تؤدي أعمالها على نحو كامل عندما يدير البشر ظهورهم إلى الناحية الأخرى. وأحد الأمثلة على ذلك هو مسلسل الرسوم المتحركة البريطاني «بلو كاو» (البقرة الزرقاء). تعيش إحدى البقرات الزرقاء في حقل تملؤه البقرات السوداء والبيضاء. وفي كل حلقة تصعد إلى إحدى الحافلات المتوقفة خارج حقلها، وتنخرط في مغامرة. وعندما تعود في المساء تكاد تموت لتحكي لأصدقائها عن يومها المثير. لكنهم يتجاهلون، ولايبدون اهتماماً. فهم يتنهدون ويقولون: «لقد خرجت من جديد». وبالمثل، فالبقرة في سلسلة الرسوم المتحركة «كاو أند تشيكن» (بقرة ودجاجة) تمتلك « أناً» ego بديلة «تسميها» «السوبر كاو» أو «البقرة الخارقة» التي تطير وتتحدث الإسبانية. لكن هذه ليست ظواهر جديدة: دعونا نفكر بأغنية الأطفال «خدعة، خدعة، القطة والكمان/ البقرة قفزت فوق القمر».

ربما كانت البقرة الكوميدية «إرمينترود» هي الأكثر شهرة، التي ظهرت في المسلسل التلفزيوني البريطاني «ماجيك راوند أباوت (أرجوحة سحرية)، وفي أفلام ظهرت بالاسم ذاته. بعد أن ابتكرها سيرج دانوت في عام 1963 في النسخة الفرنسية في الأصل بعنوان «Le Manege Enchante تحت اسم «أزالي»، تأتي بلمسة من رفعة إلى حياة صديقتها الملة الكئيبة، مع حب للموسيقا الكلاسيكية، وفن العمارة والغناء والرقص، رغم أنها ترقص على نحو سيئ.

ومقارنة مع الصورة العذبة التي أضفيت على البقرة في الأدب (انظر رواية توماس هاردي التي أسلفنا ذكرها)، أبدعت الروائية



ملصق «إيفانجيلين الجميلة» 1896: وهي الأوبرا الهزلية التي كتبها إدورد إي. رايس نجمتها عجلة راقصة يجسدها رجلان بالإضافة إلى تجسيدهما إيفانجلين على هيئة بشر.

ستيلا جيبونز (1902-1989) رباعية لم تكن على القدر ذاته من الجاذبية وأسمتها «فتيات» جيرسي في روايتها الكوميدية «Cold Comfort Farm (1932)»: الفتاة (البقرة) الأولى واسمها سمجة (غريسليس) التي سقطت ساقها بينما كانت تمشي في زقاق تملؤه الحفر والأخاديد. وأما الفتاة الثانية فاسمها حمقاء (بونتليس) وضعيفة (فيكليس) ومشتتة (أيمليس). وجميعها تقدم بها العمر وباتت عاقرة يحلبها آدم وهو رجل عجوز تركت الشيخوخة آثارها في عقد في أصابعه.

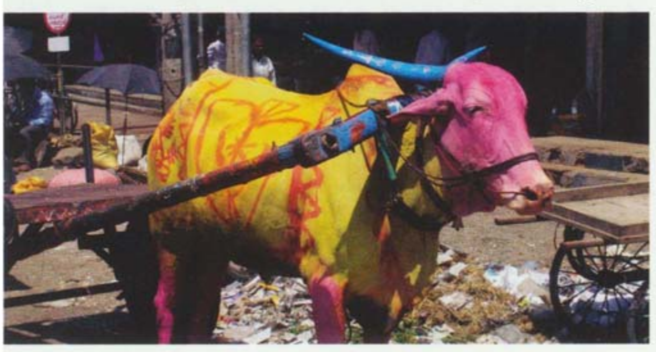
وهناك أبقار أخرى شهيرة وهي حقيقية هنا وليست روائية، وهي أبقار جيرسي (they have the ah factor). فقد كانت نجمات دعاية وإعلان مثل إلسي البقرة (إلسي ذِ كاو) (وهي الشخصية البارزة لمزرعة بوردن الأمريكية)، أو نجوم سينما مثل البقرة (براون آيز) التي لعبت دور البطولة إلى جانب بوستر كيتون في الفيلم

الكوميدي الصامت «غوويست» (يمم وجهك نحو الغرب) الذي أنتج في عام 1925 وفيه جسد كيتون شخصية اسمها «من دون أصدقاء «فرندليس» الذي كان على علاقة مؤثرة مع سيدته (على الشاشة وخارجها). الفيلم يضج بالعواطف والمشاعر (يوثق قرنيه برأسها لتحمي نفسها بين القطيع)، ويتبادلان النظرات العارفة واللمسات الحميمة. ومذاك لا ينفصلان. كما يتم تصويرهما بموضوعية في الفيلم عندما يرتبطان جسديا بقطعة من خيط أسود[cxvi].

ليس كل الحليب والعسل

تستحضر كلمة «بقرة»، بعيداً عن الظرف والفكاهة، وفي شكلها الأقل تحبباً، خصوصاً عندما تستخدم لوصف الأنثى البشرية، صوراً سلبية توحي بالعناد والغطرسة والنزق والعدوانية. إنها لإهانة أن يتقافز في المجتمع رجال ونساء يتماثلون بنساء يجسدن سلوك الأبقار. لربما تعود عبارة «بقرة عجوز بشعة» المهينة إلى البقرة المسنة العاقرة، التي تربيها العائلة، التي كفت عن إدرار الحليب والغذاء. والتي يجب أن تذبح للاستفادة من لحمها وجلدها، والنتيجة كان أن أصبح موتها أهم من حياتها..وهذا ما جعل بعض المجتمعات، ولا سيما الهندوس، يشعرون بالقلق حيال الخطيئة التي تتجسد في قتل البقرة.

مع مرور الزمن، باتت الأبقار رمزاً للغباء والمعنويات السيئة للكائنات



في شوارع الهند: حتى الثيران المقدسة تعيش أيام بؤس وشقاء.

الذليلة، ورمزاً للزراعة أيضاً. كل ذلك تحدث عنه الفيلم الإسباني «فاكاس» أي «أبقار»، الذي أنتج في عام 1992. يحكي الفيلم عن ثلاثة أجيال من الأبقار كانت تسهر على نزاعات ومودات عائلتين باسكيتين تعملان في قطع الأشجار. الأبقار تراقب دون أن تحكم في الوقت الذي يُجبر فيه البشر على أن يواجهوا الخطر الذي يهدد وجودهم في الأرياف. وفي إطار مشابه يُظهر الفيلم الإيراني «غاف» (البقرة) الذي أنتج في عام 1969 فلاحاً يهيم ببقرته الحبلى ويودي به موتها في أثناء غيابه إلى اليأس ثم إلى الجنون. يُترك الفلاح وحيداً دون أسباب رزق وعيش. يكذب القرويون عليه ويخبرونه أنها اختفت، لكنه يتماهى مع بقرته ليجسدها روحاً وجسداً. على المستوى السياسي، يقف عبث الحياة الريفية في الفيلم في تناقض مباشر مع الدعاية لسياسة الإصلاح الزراعي التي قام بها شاه إيران، وهذا ما جعل الحكومة تمنع عرضه.

يتم سبر أغوار، واستكشاف صورة المرأة التي تطأها الأقدام، والتي تعيش في محيط المدينة في فيلم «بقرة بائسة» الذي أنتج في عام 1967 وهو أول تجربة إخراجية للمخرج البريطاني كين لوك. ينبني الفيلم على رواية لـ«نيل دون» حملت الاسم ذاته. يروي الفيلم حكاية «جوي» (وهنا السخرية الكامنة في الاسم مقصودة) فتاة شابة تعيش في لندن في عقد الستينيات من القرن الماضي، في شقة كئيبة مع جوني ابنها الشاب. أما زوجها الشرير فيقبع في السجن بتهمة سطو مسلح، وبما أنه الرجل الذي تحب، تنتظره. حياتها اليومية متخمة بالقذارة، وفي الوقت الذي تحاول فيه أن تبتكر شيئاً أفضل، تختار جوي الحلول الخطأ. أما الشيء الإيجابي الوحيد في حياتها فهو ابنها. وعلاقتها به تشبه إلى حد كبير علاقة البقرة والعجل، فهما لبعضهما بعضاً. تؤكد الأبيات الأخيرة التي تأتي على لسان جوي في الرواية على زاوية رؤية المجتمع لها: عندما أسترجع طفولتي كنت أخطط لقهر العالم، ومن يراني الآن سيقول: إنها تمضي ليالي مريرة، يا لها من بقرة مسكينة» [cxvii].

4 - الكدح في الحقول، وعقدة الماشية

بعد أن ألقينا نظرةً متأنية على التاريخ الثقافي للثور والبقرة، ثمة نسخة أخرى من «البوس» Bos تركت على مجتمعاتنا في دول العالم النامية، بصمة دائمة وما تزال. لم يُكتشف الثور، وهو الذكر المخصي إلى أن بدأ الإنسان ينظر من جديد إلى حيوانات الأرخص التي دجّنها، بغية التأكد إن كانت تلك الحيوانات ذات فائدة أكبر، وهي على قيد الحياة أكثر منها ميتة. ومن خلال اختراع المحراث وعربة الثِيران في حوالي 3200 قبل الميلاد، تمكن سكان بلاد الرافدين الأوَل من تطويع قوة ماشيتهم التي دُجِّنت حديثاً. أما الابتكار الآخر فتجلى في حلب البقرة المنتظم، وربما تم ذلك في الوقت ذاته.

أدت هذه الخواص التي استُثمرت حديثاً إلى تشكيل مجتمعين مميزين ومنظومتي وجود، فهناك المزارعون الذين حرثوا التربة القاسية وبنوا بيوتهم الدائمة، والرعاة الذين اعتمدوا على الحليب؛ لضمان تدفق لا ينضب من الطعام، دون أن يضطروا إلى ذبح أنعامهم. (وخير مثال على ذلك سواء في الماضي أم في الحاضر هو القارة الإفريقية)(cxviii).

المحراث والثور

قبل أن يخترع المزارعون الذين عاشوا في الحقبة النيوليثية المحراث، درجوا على استخدام عصيٍّ يحفرون بها، ومعازق لحرث التربة. لكن هذه الأدوات والوسائل لم تكن المحراث الذي نعرفه اليوم، بل عبارة عن أدوات خادشة أو مكاشط. ألفى السكان الذين كانوا يتزايدون أنفسهم مضطرين إلى حراثة المزيد من تلك التربة القاسية، التي كانت تقتضي جهوداً كبيرة، وهنا كان عليهم اللجوء إلى قوة الحيوان، واتضح أن الماشية هي المرشح الأقوى.

لعب الثور ولفترة طويلة دوراً في طقوس الخصب حيث حرث وحفر أثلاماً باحتفاليات طقسية، أو أنه كان يدوس الحبوب في الأرض





هوان هوانغ
(الثيران الخمسة)
من حقبة تانغ، حبر
وألوان على حرير.

المحروثة. لكن مزاجه وحساسيته كانت إشكالية وموضع جدل، فقد كان عنيداً متصلباً وخطيراً إلى درجة كبيرة، بات امتلاكه في حقل مفتوح لفترات طويلة ضرباً من مغامرة. لذا تزايدت الحاجة، إلى حيوان أكثر خضوعاً، ولهذا السبب كانت الثيران تخصى بغية الحد من جموحها.

يشرح الجراح البيطري الإسباني سانز إيغانا التحولات الهرمونية للثور، التي نقلته من ثور فحل إلى ثور مخصي:

«يسبب الخصاء تغيرات خليوية جوهرية على الغدد النخامية، مع تأثيرات على النشاط النفسي. لقد مورس الخصاء على العديد من الحيوانات؛ بغية تطويعها وجعلها سهلة الانقياد. فالثور المخصي يُظهر مزاجاً هادئاً ساكناً مسالماً، يخلو من العدوانية مع ردود أفعال بطيئة متمهلة خاضعة، وأما بث روح الخوف عنده فسهل جداً[cxix]».

يمتلك الثور المخصي كل قوة الثور الفحل، ولكن مع مزاج ليّن، ويمكن تدريبه على جر المحراث، والعربات التي تجعل من نقل البضائع الضخمة مهمة أكثر سهولة وسرعة.

محراث بقبضتين، وقُمع
لنثر البذور إلى قرني
الثور مباشرة اللذين كانا
رمزاً للخصوبة في بلاد
مابين النهرين القديمة.
2300 قبل الميلاد.



ورغم توافر أدلة مصورة عن استخدام الثيران المخصية، لا يوجد إلا القليل من الأدلة المدونة تفسر الطريقة التي دُرّبت فيها الثيران المخصية وعُوّدت على النير. يقول الشاعر اليوناني هيسيود (700 قبل الميلاد) في قصيدته «أعمال وأيام» Works and Days: إن الحصول على الثيران المخصية كان أول مهمة للمزارع الشاب، لكن ليس هناك من ذكرٍ لتدريبها. هناك تعليمات فقط لصناعة المحراث. يقول هيسيود: إن الثيران ذات القرون المحنية النموذجية هي ذكور تبلغ من العمر تسع سنوات:

... لأن قوتها
لن يُنتقص منها
وهي في كامل نضوجها، وفي أفضل حالاتها؛ لتبدأ العمل،
لأنّ هذين الثورين لا يقاتلان وهما يمشيان عبر أخاديد الأرض، ويكسران المحراث. وبهذا فهما لا يتركان العمل كله الذي أنجز يذهب هباءً[cxx].

ويضيف إن أفضل يوم لشد الثيران إلى النير هو السابع عشر من الشهر[cxxi]. فيما بعد وصف فيرجيل وهو ابنٌ لأحد مربي الماشية في قصيدته The Georgics التي يتناول فن الزراعة، طريقة تدريب الثيران المخصية التي تدل على حرفية، بدءاً من مرحلة العجل:

حَرِّر العجول الأخرى لترعى كما ترغب:
وابدأ فورا بتدريب تلك التي تحتفظ بها

لتعزق الأرض، وعلمها الصراط المستقيم
لتجعلها طيِّعة، مستعدة للتعلم.
ضع حول أعناقها خاتماً صغيراً من أملود، واجعله فضفاضاً
وعندما تعتاد هذا القيد،
اجمعها بالأطواق التي ترتدي، وأقم الود فيما بينها لتسير في أزواج.
ابدأ بتدريبها على جر عربات فارغة.
بوطئها الخفيف الذي لا يترك أثراً على الأرض المغبرة.
ثم ثَقِّل محور الزان إلى أن يتصدع وينكسر.
بينما تجرّ عمود البرونز وتسير العجلات إلى الأمام.
أطعمها الأعشاب وأوراق الصفصاف النحيلة
وبردى المستنقعات، وإن بقيت دون أن تروض
اجمع القمح وضعه أمامها[cxxii].

يضيف رتينوس فارو: إن اشتريت ماشية فيجب أن تكون غير مروضة، تتراوح أعمار أفرادها بين الثالثة والرابعة، ويفضل أن يكون لونها أسود بقرونٍ سوداء كبيرة، وجبهات عريضة، وأنوفٍ مسطحة، وصدورٍ واسعة، وسكن مجهز على نحو جيد[cxxiii].

وكما هي الحال مع الثيران، علّمت التجربة بني البشر كيفيّة السيطرة على أقوى الثيران وتطقيمها. وفي الواقع لم تستثمر الحضارات القديمة الأولى بهائمها على نحو فاعل. فالحبال التي كانت تربط بالمحراث كانت توثق مباشرة بقرني الثور، أو إلى قضيب يُثَبت على القرنين اللذين شاع الاعتقاد أنهما يحتويان على قوة الخصوبة السحرية لآلهة القمر وإلهاته. وفي حوالي 3000 قبل الميلاد أتاح استخدام النير الذي وضع حول أعناق الثيران، أن تبذل جهوداً كبيرة لجر المحراثوالعربات، وذلك باستخدام أجسادها كلها وليس بقرونها فقط.

كما رُبيت سلالات مختلفة من الثيران، ودُرّبت على أن تتعامل وتواجه خصائص متنوعة من التربة والبيئة، مثل البيئة الإيطالية وتربتها التي وصفها كولوميلا في كتابه De Re Rustica (On Agriculture) الذي انتشر مع الرومان في أرجاء إمبراطوريتهم:

تنتج كامبانيا عموماً ثيراناً صغاراً بيض اللون، أُعدّت جيداً للقيام بمهماتها وحراثة تربتها الأصلية. أنجبت أمبريا ثيراناً بيضاء ضخمة الأجساد، لكنها أنتجت الثور الأحمر أيضاً، بروح ومعنويات عالية لا تقل عن إمكانياته الجسدية المهولة. بينما أنشأت كل من إتروريا ولاتيوم ثيراناً ممتلئة، لكن ذلك لم يقلل من جِدٍّ عملها وقوته. وأما الثيران التي كانت تربى في الأبينييه فهي صلبة، وقادرة على أن تتحمل كل مصاعب العمل وقسوته، خلا أن أشكالها لم تكن مسرّة للعين[cxxiv].

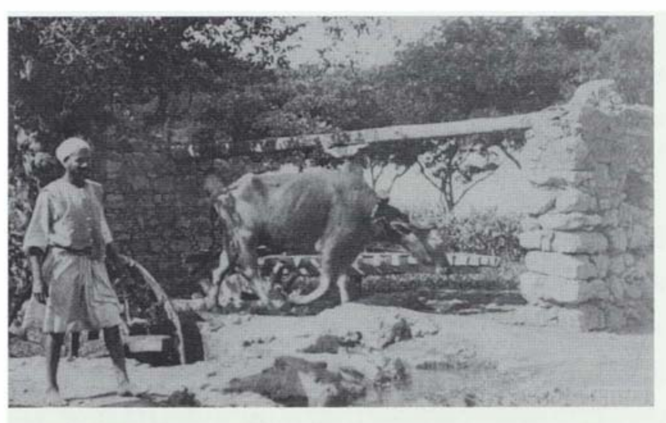
استخدمت تلك الثيران خلال فصول السنة جميعها، وليس في أثناء موسمي البذور والحصاد فقط، كما تستخدم الثيران في أيامنا هذه على وجود أنظمة الزراعة. فهي تستخدم لنقل البضائع بالعربات، ورفع الماء وتقطيع الأشجار وطحن الحبوب وبناء الطرقات، وليس من الصحيح من الناحية الاقتصادية بالنسبة للهند والبلدان الإفريقية في معظم الحالات أن تستبدل ثيرانها العاملة بزراعة مُمكننة.

الزراعة المعيشية، إفريقيا

على الرغم من أن الثيران استخدمت في مصر لدرس الحبوب، وجر المحراثوحيوانات للحمولة قبل الفترة الكولونيالية (الاستعمارية)، لكن استخدامها في بقية أرجاء إفريقيا كان غير مألوف، لقد جاء الأوروبيون بتقاناتهم معهم[cxxv]. ومن القرن السابع عشر إلى التاسع عشر، استُقدمت عربات الثيران إلى موانئ الجزر الإفريقية. ففي جنوبي إفريقيا كانت الماشية الأصيلة تقايض بالبضائع الهولندية. فقد استخدم المستوطنون الماشية لجر


lignantes: aut quis ſtabit mecum ad
uerſus operantes iniquitatem
Niſi quia dominus adiuuit me: pau
lominus habitaſſet in inferno anima
mea
Si dicebam motus eſt pes meus: mi
ſericordia tua domine adiuuabat me.
Secundum multitudinem dolorũ
meorum in corde meo: conſolaciones
tue letificauerunt animam meam.
Numquid adheret tibi ſedes iniqui
tatis: qui fingis laborem in precepto.
Captabunt in animam iuſti: et ſan
guinem innocentem condempnabũt.

ثيران قروسطية (تعود إلى العصور الوسطى) تُدرّب على الحراثة في
إنجلترا: من The Lutttrell Psalter، c.1340



ثور تقليدي سُخّر في العمل، يرفع الماء من البئر في مصر. 1908

العربات المحملة بالبضائع، والمواد من وإلى السفن الذاهبة إلى المستوطنات والآيبة منها. فيما بعد درج المستوطنون الهولنديون شبه الرُحّل، المعروفون باسم «تركبورز» trekboers، على السفر في عربات كاكيبين kakebeen بأربع عجلات، يجرها عشرة ثيران إفريقية على الأقل إلى مناطق نائية وقصية من الكاب، وقبل تطور السكك الحديدية، استخدم جميع التجار، وعمال المناجم، والبعثات التبشيرية، والإدارات الحكومية، والسلطات العسكرية التي ترتحل في أرجاء إفريقيا عربات تجرها الثيران.

جاءت السلطات الكولونيالية (الاستعمارية) من عام 1900 إلى 1960، بعمل الثيران إلى العديد من البلدان شبه الصحراوية، من خلال مشاريع تعتمد على الزراعة من الجو (بالطائرة)، ودورات تدريبية للمزارعين أصحاب المشاريع الصغيرة. لكن النجاح تمركز في المناطق التي زرعت فيها محاصيل للتصدير، وحيث كانت هناك خدمات تتصل بالرعاية الصحية للحيوان، توفرت المساعدات المادية والتدريب.

حاولت معظم البلاد شبه الصحراوية بعد أن أحرزت استقلالها



لقطة سينمائية من فيلم The Big Trail 1930)) تظهر ثيراناً تجر عربات الرواد على طريق أوريغون في أربعينيات القرن التاسع عشر، وهي عربات شبيهة بوسائل النقل التي استخدمها المستوطنون الهولنديون شبه الرحّل trkbores، لدى قيامهم باستكشاف مدينة كاب منذ تسعينيات القرن السابع عشر.

ثيران تستخدم لدرس المحصول في فلسطين عام 1900. نلاحظ هنا أن الثيران مكممة؛ لمنعها من تناول ثمار عملها.

نموذج من الطين أعيد بناؤه، يمثل عربة ثور قديمة يجرها ثوران من نوع زيبو zubu، عثر عليها في مدينة موهينجو-دارو. والمدهش في الأمر أن تصميمها يشبه العربات التي عثر عليها في الهند وباكستان في أيامنا هذه.

أن تمكنن حراثتها للأرض، أي: استخدام المحراث الآلي (الجرار)، لكن، وبسبب أسعار الوقود المرتفعة، وفشل برامج الاستئجار، شهد عقدا السبعينيات والثمانينيات من القرن المنصرم بعثاً جديداً وإحياءً لدور الثور عبر مشاريع التوسع والتطوير المدعومة.

في إفريقيا اليوم كما في إفريقيا القرون الوسطى، كانت الأسر والعائلات تشترك بالثيران والأدوات، وأما مُلاّك الأرض الأكثر ثراءً فيوزعون القروض والأعمال على جيرانهم الأكثر فقراً. كما أزاحت الأبقار الثيران، ولا سيما في المناطق التي تقل فيها تلك الأخيرة، أو المناطق التي تمتد فيها موارد الغذاء، والتي تجعل من إثبات ملكية القطيع مستحيلة.

ما تزال الثيران تستخدم على نطاق واسع في الهند، ونيبال أيضاً. ولأن البقرة حيوان مقدس في تلك البلدان، والثور على جانب من التقديس أحياناً بسبب اقترانه بالإله شيفا، تتخذ ثيران الزيبو zebu دور البهيمة التي تحمل الأثقال وتجر المحراث. تلك كانت



حراثة حقل أرز بثيران بالي –إندونيسيا.

الحالة لألفية كاملة. توحي الشوارع الفسيحة في مدينة موهينجو-دارو الهندوسية القديمة أن العربات التي كانت تجرها الثيران قد استخدمت ذات مرة، وعثر على نماذج طينية من العربات كانت تجرها العجولوتعود إلى 2400 قبل الميلاد.

عامل مجدٌ لا يكترث

مقارنة بالثور البري والبقرة، لم يلهم الثور تدفقاً في العواطف أو إعجاباً. فكونه خنثى نسبياً، فقد كان من الصعوبة بمكان أن يُصنّف. فهو محط إعجاب لقوته وأخلاقيات العمل التي يتحلى بها. كدّت هذه البهيمة الصريحة الواضحة في الحقول لمنفعة بني البشر، وبعزم لا يلين وتهادت بإيقاعها الرتيب عبر مراحل التاريخ.

يرافق الفلاحِ الثيران، فهم يعملون جنباً إلى جنب حتى كادوا أن يتماهوا سلوكاً. يمكن أن نرى هذه الفكرة قد تجسدت في كتابات جون لوكوود كبلنغ 1837-1922 والد روديارد، الذي وصف النتائج التي نجمت عن عمل الهنود مع الثيران:

ربما تجبر الخطوة المتلكئة المتأنية، العقل على مجاراة إيقاعها. أما ما يخفف من رتابتها فيمكن أن يلطف ويهدئ من المزاج..... يقيناً أن الحُرَّاث الهنود يشبهون الثيران.... فهم صبورون، ويحتملون القحط والفيضانات، والعواصف وطاعون الماشية، ويستطيعون أن يتعاملوا برباطة الجأش ذاتها، التي تحتمل فيها الثيران الضربات. فعندما يجتر الثور في الوقت الذي يتناول فيه سيده الطعام، ترى الفكين سواء للرجل أم للبهيمة يتحركان بالطريقة ذاتها تماماً[cxxvi].

تضع أخلاقيات العمل الثيران في حلف مختلف عن الحيوانات الداجنة الأخرى. فطبيعتها الكادحة تجعل منها حيوانات مثالية لأعمال الجر في ظروف قاسية، ولاسيما عند تكسير التربة المليئة بجذور الأشجار والأجمات. فمثلاً استخدم الكولونياليون الذين قدموا من نيو إنجلند الثيران وفضلوها على الجياد والأحصنة، لأنه وفي الوقت الذي تجر فيه الثيران بثبات ورسوخ وتواجه مقاومة التربة، تتيبس الجياد في مكانها، أو أنها تكسر النير وتجعله قطعاً وأشلاءً[cxxvii].

في كتاب Domesday الذي ظهر عام 1086 لم يؤتَ على ذكر الأبقار والثيران إلا قليلاً مقارنة بثيران الحراثة[cxxviii]. لقد كانت وحدة القياس المستخدمة في هذا الكتاب الهايد hide وتساوي 120 فدانا، وهي مساحة الأرض التي يستطيع فريق مكون من ثمانية ثيران أن يحرثها في كل عام[cxxix]. لقد صورت البيستياريز Bestiaries (وهي توصيفات مصورة لعدد منوع من الحيوانات تعود إلى القرون الوسطى) الثور بوصفه «بهيمة قوية يمكن أن تتنبأ بالطقس». تعزى هذه القدرة الغامضة عادة إلى الماشية عموماً بما أنها أي، الماشية تجلس- هكذا يقال- عندما تقترب الأمطار[cxxx].

وبالمثل استخدم إيسوب Aesop في واحد من حكاياته الخرافية، تَميِّز العِجلة الصغيرة، والثور المخصي للتحذير من المخاطر التي

تنتظر المتبطل. تعبّر العِجلة الصغيرة عن تعاطفها مع ثور تتجسس عليه، وهو يعمل في الحقول. لكن في تلك اللحظة، يمر موكب ديني ويتحلل الثور من نيره، لكن العِجلة تقع في أسر رجال يحضرونها للتضحية بها. لدى رؤيتها يبتسم الثور في قرارة نفسه ويقول: «أيتها العجلة، هذا لأنك خالية الوفاض من العمل. فلقد نشأتِ ليُضحى بك»[cxxxi].

لقد كان الثور بالغ الفائدة، والنفع للإنسان حتى أنه لم يتعرض للقتل طلباً للحمه، إلى أن تنتهي مقدرته على العمل. وأما الشخص الذي يقتل ثوراً، فيدفع غرامة كبيرة (انظر الفصل الأول). لقد جسد الإغريقيون طقساً أسموه بوفونيا bouphonia أو «قتل الثور»، الذي بدا أنه يشير إلى الإثم الذي كانوا يشعرون به حيال التضحية بالثور، حتى لو كان ذلك لزيوس إله السماء والأمطار.

خلال ذلك الطقس كما وصفه جيمس فريزر[cxxxii]: يترك عدد من الثيران في مكان فيه مذبح وعليه وضعت الأعطيات، وأما الثور الأول الذي يتناول هذه الأعطيات فيتطوع إلى التضحية بنفسه. بعد أن يقتل الثور يعد من قتله مذنباً بجريمة، وتعقد محاكمة لتحميله المسؤولية. كما يطال الاتهام، جميع من اشترك في هذه المراسم الاحتفالية. لكن القاتل الفعلي في أثناء ذلك كان يهرب. أخيراً تُتّهم السكين التي قطعت للثور حنجرته، لأنها لا تستطيع أن تدافع عن نفسها. وكعقاب لها على فعلتها يُرمى بها في البحر، وأما جلد الثور فيُملأ ويشد إلى نير إلى محراث للترميز إلى تجدده.

توصف الثيران رغم جَلَد عملها وربما بسبب كدحها، في الغالب بطرق عشوائية مختلفة. بدا وكأن الإنسان أحياناً، كان يدفع الثور اللطيف إلى أقصى حدود صبره واحتماله، كما نرى في كتابات الرحالة العظيم السير فرنسيس غالتون 1822-1911 الذي عاش في القرن التاسع عشر. فهو يصف الثيران على أنها حيوانات

محمل بالحطب يبدو
هذا الثور متضايقاً.
كوريا 1904.



«فظة، قاسية، لا مبالية»[cxxxiii]، يتفاوت سلوكها بين «العبوس والضراوة»[cxxxiv]. من الممكن تبرير هذا السلوك عندما يأخذ المرء باعتباره أن غالتون استخدم الثيران بوصفها حيوانات حمّالة تُمتطى، ويصر على أن الطريقة التي تستطيع بها إيقاف ثور عنيد تتجلى في البدء «بلف أو عضٍّ ذيله..... أو إضرام حريقٍ صغير بعصي، أو أعشاب تحت منخريه». ويضيف غالتون أن ثوراً نصف مروض لا يمكن فهمه»[cxxxv].

كما وفر لنا غالتون تبصرات في الفائدة الكبيرة للثيران بالنسبة للمستكشفين الأجانب. فهم يتصرفون كأنهم منقذون للإنسان في الصحراء، حيث يمكن للمرء أن يقتطع قطعة لحم من الثور الحي،

ثم تضمد له الجراح (شوهد سكان الحبشة يقومون بذلك وفقا لجيمس بروس في عام 1769) أو يستخدم كترس لرياضيّ يلحق بطريدة. قيل إن الثور:

يدخل إلى روح الأشياء ويعرض مهارة رائعة، ويمشي حول الشيء (الطريدة) بدوائر ضيقة، ويتوقف ليرعى ببرود وعدم اكتراث لدى مشاهدته أدنى إشارة تنبهه إلى خطر. تُدّرب الثيران علي أن تطيع الأوامر بلمس قرونها. والطريقة الأقسى أو الأكثر شيوعاً لتدريبها على ذلك، هي طَرق القرون وضربها لساعات ولعدة أيام متتالية، بعد ذلك تصاب جذورها بالالتهابات وترتفع حساسيتها»[cxxxvi].

هنا، نرى الدليل على التدريب الجسدي المسيء، وأحياناً الوحشي الذي تخضع له الثيران. لكن وفي الوقت الذي صاغ فيه بنو البشر الثور في قالب من الإخضاع، تمكنت البقرة من الحفاظ على القدر الكبير من كرامتها، في الوقت الذي بدأ فيه البشر يلجؤون إلى الخداع والحيلة؛ ليحصلوا منها على الحليب، كما سنرى مع المجتمعات الأخرى التي أوليناها قليلاً من اهتمامنا في الفصل التالي، ونقصد الرعاة ولاسيما الأفارقة منهم.

إدرار الحليب والرعويون (الرعاة) الأفارقة

تبنى الرعويون نمط حياة يعتمد على نقل الماشية من كلأ إلى آخر، وذلك وفق المواسم والمناطق وعلى مر شهور العام. بإمكان الماشية أن ترعى الغطاء النباتي الضئيل في الأراضي القاسية والوعرة وتهضمه، الذي يتحول بدوره إلى مصدر غذائي يمد البشر بالبروتينات. وهذا واحد من أساليب قليلة لإطالة أمد العيش، ومنح الحياة وأسباب الرزق، في أراض لا تتلقى سوى القليل من أمطار.

إن الغذاء الرئيس بالنسبةِ للرعاة الأفارقة، هو حليب البقرة ودماؤها الذي يعد جمعه من الماشية مسألة سهلة نسبياً. ففي كينيا وتنزانيا يطلق «الماساي»، وهم قوم يعيشون في كينيا سهاما

من مسافات قصيرة إلى أوردة البقرة الوداجية، ثم يجمعون الدم المسفوح في يقطينة جُوّفت لهذا السبب. وأما الدماء التي تُجمع فتُغلى لتضفي نكهة اللحوم على العصيدة غذائهم الرئيس، أو أنها تترك لتتخثر، ثم تشوى على جمرات النار أو تُمزج مع الحليب للحصول على وجبة طعام غنية بالبروتينات. عندما تُطلق السهام على البقرة، لا تتعرض إلى مخاطر كبيرة وفي الغالب تضمد بعد قليل بالآجر والأعشاب. وسرعان ما أدركت الحضارات القديمة المشكلات الرئيسية التي يتسبب بها حليب الأبقار في غذاء البشر. ففي المقام الأول هناك مشكلة تتجلى في الحصول عليه من الأبقار، وأما المشكلة الثانية فقوامها تكييف الجسد البشري ليهضم اللاكتوز الذي يحتويه الحليب الخام.

أولاً، يقتضي الحصول على الحليب بكميات وفيرة، إبعاد العجول عن الأبقار الأمهات أثناء النهار؛ حتى لا تتمكن العجول الصغيرة من استهلاك الكميات الكبيرة من أثداء الأم أثناء الرضاعة، (بالطبع تبدو تلك الكميات ضئيلة مقارنة بالكميات التي تدرّها البقرات الحلوبات في الغرب). ثم على شعوب الحضارات القديمة أن تجمع الحليب. ربما بدت هذه المهمة سهلة، لكن البقرة لا تتيح ذلك إلا بوجود عجلها. وفي منشآت الألبان الحديثة التي يتم فيها حلب البقرة حيث تغيب العجول، يعد التعامل معها بهدوء وإطعامها والعناية بنظافة الحلمات قبل تثبيت جهاز عناقيد الحلب، هو المحرض البديل للبقرة لتدر حليبها.

استخدم الرعاة من البشر وما يزالون طريقة خاصة للاحتيال على الأبقار وجعلها تدر الحليب في غياب العجول، ولا سيما إن كان عجلها ميتاً. في البداية يحاولون خداعها بجعلها تشعر أن عجلها قريب منها. يمكن إنجاز هذا بتدلية جلد العجل الميت، وتعطيره ببوله، ووضعه على ظهر أحد الأشخاص أو الأشياء، ثمرة قرع مثلاً،

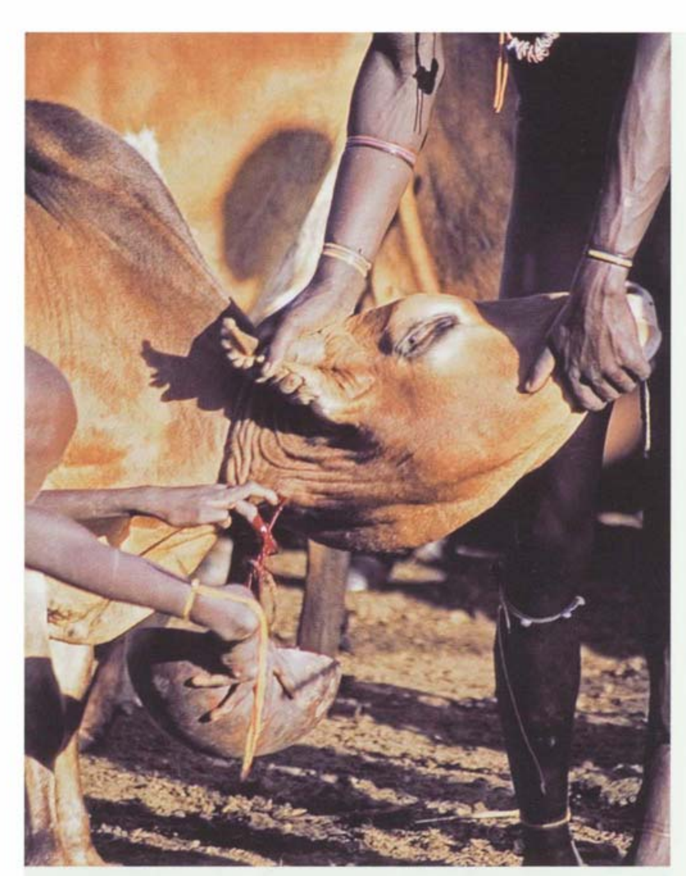
أو حشو الجلد بالقش أو التبن. وفي اللحظة التي تبدأ فيها البقرة تمرر لسانها على العجل المزيف تدر حليبها. والاستعاضة عما سلف ذكره، تتم بربط ساقيها الخلفيتين أولاً (لمنعها من الرفس)، ثم يُحدث تيار من الهواء باستخدام أنبوب خاص في مهبلها أو في مستقيمها. يتم هذا في اندفاعات قصيرة إلى أن يمتلئ مهبلها بالهواء. تحرضها هذه الطريقة على أن تهدأ لتدر حليبها في النهاية.

بعد أن تعلم البشر الأوائل جمع الحليب، أدركوا أن أجهزة الهضم عندهم لم تكن مجهزة لامتصاص اللاكتوز أي سكر الحليب المتوفر في الحليب الخام الذي تدره البقرة. فقد مرّوا بأعراض مرضيّة جعلتهم يمتنعون عن تناول الحليب الذي عملوا جاهدين للحصول عليه، فقد بدؤوا يعانون من الإسهالات والانتفاخات والغازات وتشنجات المعدة.

لكن مع مرور الوقت ومع إصرارهم على تناول الحليب الخام، تكيفت أجهزة الهضم عندهم، وتساهل اللاكتوز الذي تطور في ثقافات تناول الحليب. فالرعويون (الرعاة) وخلافاً للعديد من الأقوام المتوسطية والصينيين، مكنتهم قدراتهم من تناول الحليب



حلب البقرة في أثناء غياب العجل. يقتضي هذا العمل فريق عمل وحيلة لتشجيعها على در حليبها (يظهر في الصور أحد أفراد قبيلة الكويكوي في جنوب إفريقيا).



يجمع السورما (وهو لقب يطلق على ثلاثة أقوام رعوية في أثيوبيا) الدماء من الأبقار مثل قبيلة الماساي.

الخام دون أن يحولوه إلى قشدة أو أجبان.

الماشية: أساس المجتمعات

لم يستخدم الرعويون الماشية بوصفها سبباً من أسباب العيش فقط، كما رأينا في كتاب الرحلات لجورج شفينفورث الذي سافر من الخرطوم إلى فاشودا في عام 1868. يصف جورج رعاة قبائل الشيلوك الذي التقى بهم في مسيرة رحلته بمفردات ملؤها الازدراء



لوحة لقرية دنكا في جنوب السودان تعود إلى عام 1873 من كتاب جورج شفينفورث The Heart of Africa. يحرق الرجال -على يسار الصورة- روث الأبقار لصد لسعات الحشرات. ويوثق كل حيوان، بياقة جلدية بوتده الخشبي.

والانتقاص:

كان الرجال عراةً تماماً. أما أجسادهم الهزيلة فناتئة العظام وجُصّصت برماد... روث الأبقار (لصد لسعات الحشرات)، ما منح جلودهم أثراً من لون تناوب فيه الأحمر والصدأ....، كانت شعورهم مسرحة بطريقة لافتة، حافظوا على أشكالها باستخدام الآجر والصمغ وبول والبقر وروثها، ما نجم عن هذا كله روائح مريعة كريهة ميزتهم. وبما أنهم كانوا يستخدمون بول الأبقار لغسل الأواني التي استخدموها للحليب كبديلٍ عن الأملاح، لم يكن الغرباء يستسيغون الشرب معهم[cxxxvii].

ورغم ذلك ثمة علاقة تتجذر في العمق بين الرعاة الأفارقة، وماشيتهم بعيداً عما تنتجه البقرة. فكما أسلفنا القول، الماشية ثروة للرعاة، تسير على الأقدام كما أنها إرث أسلافهم. ولأن الأمر كذلك فهي تحاط بكثير من الحب والرعاية. يحدد عدد الماشية التي تملكها العائلة، بغض النظر عن نوعيتها، حجم تلك العائلة وموقعها الاجتماعي و/أو نفوذها السياسي في المجتمع. لذلك كان تجميع

الماشية الهدف الرئيس للرعاة، وهذا ما كان يستدعي- تقليدياً على الأقل- القيام بغزوات على ماشية الآخرين، وسفك الدماء بين القبائل المتجاورة.

ثمة أسطورة عند شعب النيور في شرق إفريقيا تفسر موت المزيد من البشر من أجل البقرة أكثر من أيِّ سبب آخر. تقول الأسطورة: إن رجلاً ذبح أم بقرة وجاموسة، فقالت الجاموسة إنها ستنتقم لذبح والدتها بالهجوم على الرجل وقتله في الدغل، بينما قالت البقرة بأنها ستبقى للعيش مع الإنسان. ولكنها ستنتقم لأمها أيضاً من خلال التسبب بنزاعات لا تنتهي، تعود إلى الديون ومهر العروس والزنا التي ستؤدي جميعها إلى حروب وميتات بين الناس[cxxxviii].

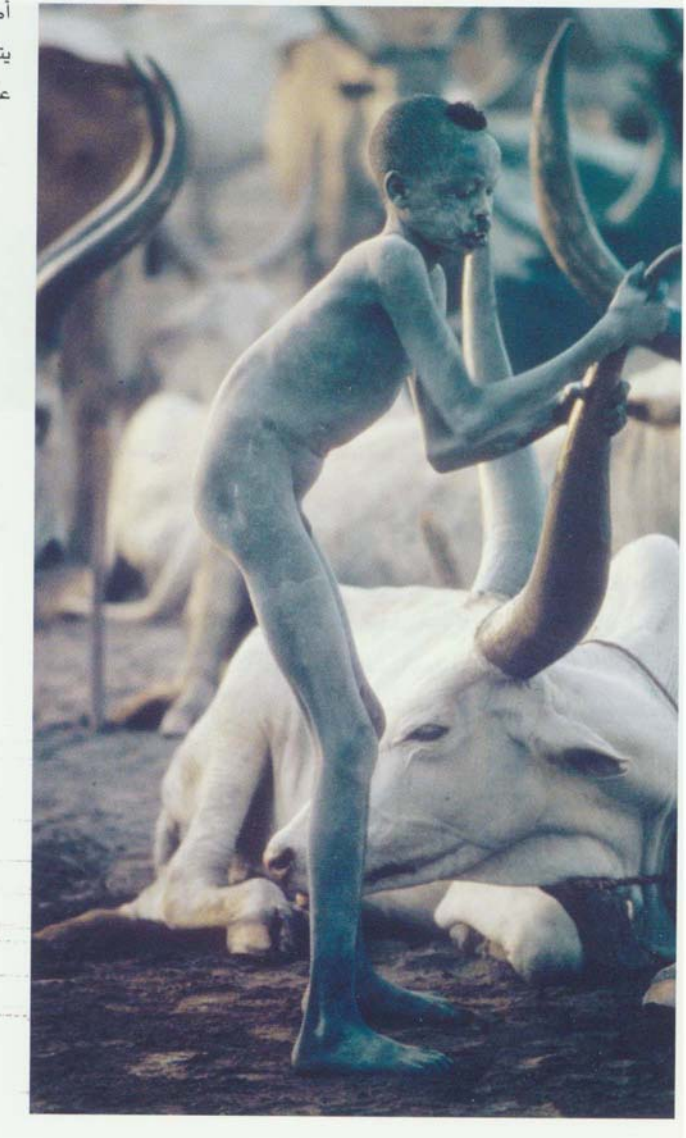
وحتمياً -وهذا يعتمد على الماشية- أن تحل الكارثة بسهولة تامة على العائلات في أوقات القحط والأمراض التي تصيب الماشية. إن وجود الرعاة محفوف بالمخاطر. لكن امتلاك الماشية على جانب كبير من الأهمية أيضاً، فحتى الرعاة الأكثر نقاءً يتاجرون أو يقايضون ماشيتهم مع القبائل المجاورة لقاء حبوب الدخن ونبات السرغوم[1]، أو الذرة أثناء المجاعات والقحط، ويبيعون فضلات الماشية نقداً لدفع أقساط المدارس أو ضرائب ومكوس أخرى، أو لشراء دواجن وما شابه.

وصف عالم الأنثروبولوجيا ملفل هيرسكوفيت (1895-1963) ثقافة رعاة إفريقية الشرقية، التي تمليها عليهم «عقدة الماشية» Cattle Complex التي تبرز في ارتباط البشر القوي بماشيتهم، وحبهم لها، وتماهيهم مع الحيوانات، والامتناع عن قتلها ما عدا في سياق الطقوس[cxxxix]. وبالرغم من أن القبائل الشرقية خُصَّت بعناية محددة، بدا كأن العقدة ذاتها، يمكن أن تُعرّف في أرجاء إفريقيا.

---

(١) Sorghum نبات استوائي مقاوم للجفاف. (المترجم)

أطفال رعاة
يتفاعلون مع الماشية
عبر اللعب والعمل.





أثيوبيون يقتلون بقرة «من نوع خاص» لغايات تتعلق بالطقوس، أو ربما من أجل وليمة خاصة. مخطوطة تعود إلى القرن الثامن عشر.

رعاة إفريقيون شرقيون: الماشية بوصفها أسلافاً

كانت ملكية الماشية تنتقل من طرف الأب في العائلة. لذلك فرغم استقدام الأطفال إلى الماشية من خلال اللهو، ثم إلى العمل في ماشية العائلة، فالذكور هم من يرثون. وخلال حيواتهم يتحمل الذكور مزيداً من المسؤوليات تجاه الماشية، وإدارة شؤونها، في الوقت الذي تُمنح فيه الفتيات حقوق العناية بالحليب لبقرات محددة.

وخلال تدريبهم على رعاية الماشية، يتعلم الأطفال كيفية وصف المظهر الجسدي لكل بقرة في قطعانهم. يحدد شعب النيور الماشية بناءً على ألوانها، وكيفية توزع تلك الألوان على أجسادها. فهم يميزون عشرة ألوان أساسية، وأمزجة الأبيض ولون آخر، يمكن تصنيفها في اثني عشر نموذجاً مختلفاً، ما يؤدي إلى المئات من التبديلات في الألوان.

يبدأ الصبية الرعاة خلال فترات تدريبهم الأولى، بتولي شؤون ملكية ماشية آبائهم على نحو رمزي. فيهدي الوالد ابنه ثوراً، يصبح حيوانه الشخصي، الذي يشكل هوية الولد عندما يمنحه اسماً يرتبط إما بلون جلد الثور ونموذجه، أو شكل قرنيه وحجمه، أو صفات

أخرى. ويترنم الصبي باسم الثور بينما يرقص قبل أن يتزوج، أو عندما يشترك في رياضة أو منازلات، في الماضي كان يصرخ بالاسم عندما يقذف برمحه إلى عدو أو طريدة صيد[cxl].

وبعيداً عن التماهي مع الثور، يؤلف الصبي أغنية أيضاً تمتدح بهيمته تلك. وهذا أمر نموذجي بالنسبة للقبائل الرعوية حيث يُحتفى بملكية الماشية رقصاً وغناء. تضم هذه الأغنيات إشارات وإحالات إلى أسلاف الماشية، وحتى إلى الأمكنة التي ترعى الكلأ فيها. ويتم تجسيد الماشية في رقصات تُرفع فيها الأيدي عالياً ما يوحي بشكل الحيوانات ذات القرون الضخمة، وفي حالات بعينها يجثم الرجل منهم على أربع، ويخدش الأرض بقدميه ليثير الغبار، بينما ترقص المرأة حوله وتبقي يداً على رأسه للسيطرة عليه[cxli]. تحتفي هذه الرقصات والأغنيات بالماشية، لكن الرعاة يحتفون بأسلافهم وأرواحهم الطبيعية أو آلهتهم الأسمى أيضاً، وما هذا سوى مثال على « الهوس بالبقرة» cowmania وليس على عبادتها[cxlii].

تتصرف الماشية بوصفها وسيلة للاحتكاك بالأشباح والأرواح والاتصال بها. ويعود ذلك إلى ملكيتها التي تعود إلى نسب العائلة. يفرك شعب النيور ظهر بقرة أو ثور بغية الاتصال مع الروح أو الشبح الذي يقترن بها. ثمة طريقة أخرى في الاتصال، بغية تكريم الأسلاف والأرواح، أو إضفاء البهجة عليهم عبر التضحية بثور أو بقرة عاقر، (رغم أن مخزن الجثث يطلب بقرة خصبة). يلعب هذا الطقس دوراً مهماً في الاحتفالات أيضاً.

عندما يولد لقبيلة مساي طفلٌ، يُغسل فوراً في روث البقر، ويضحي الأب ببقرة. أما الأم فتصنع قلادةً من شعر ذيل بقرتها الخاصة، التي أهداها إياها زوجها في الزفاف، وتعد تعويذة تبعد الشر عن الطفل، وتجلب له الحظ السعيد[cxliv]. وفي مناسبات الوفاة تذبح معظم المجتمعات الرعوية بقرة خاصة من قطيع العائلة المفجوعة.



قفزة عن الثور يؤديها شعب حَمَر، الذي يقطن وادي أومو في أثيوبيا. لزاما على الفتية هناك أن يعبروا ظهور ماشية اصطفت لهذا الغرض أربع مرات، ليختتموا فترة تدريبهم وتعليمهم، ما يسمح لهم بالزواج بغية البدء بالعناية بماشيتهم الخاصة، والتصويت على القضايا التي تهم القبيلة.

يُلَّف جسد الميت في جلد البقرة قبل الدفن، ثم تشارك العائلة في وليمة الدفن التي ضحيتها البقرة الخاصة هذه.

تمتلك كل عائلة من عائلات الدنكا بقرة مقدسة وفقاً لفريزر. وعندما تُهدَّد البلاد بحرب، أو مجاعة أو أية نائبة أخرى، يأمر زعماء القرية عائلة محددة بتسليم بقرتهم المقدسة ككبش فداء. تُساق البقرة من قبل نساء القرية (وهذا عمل غير مألوف بما أن سوق القطيع عمل يقتصر على الرجال فقط) إلى النهر وعبره إلى الضفة الأخرى. وهناك تُترك البقرة لتجول في القفار والبراري، وتسقط ضحية لوحوش غزاة. تعود النساء إلى القرية دون أن ينظرن إليها، وإن فعلن، فلن يعود للاحتفال أي أثر[cxlv].

إن قتل الثور الأبيض الذي يتم عبر طقوس، لهو مؤشر على انتقال محاربي المساي الفتيان إلى البلوغ، وذلك خلال احتفال يقام كل خمس أو عشر سنوات. يقاد الثور إلى منطقة حُضِّرت سلفاً، ويُطعم

مزيجاً مخدراً من كحولٍ صنع من العسل وأوراق أشجار مخدرة، إلى أن يدوخ. بعد ذلك يُحشى المنخاران بأوراق الأشجار، ويخرّ الحيوان على الأرض دون أية إشارة على ألم أو عذاب. وهنا يشرب المحاربون دماءه التي امتزجت بخمرة العسل والحليب، ويُطعمون قطعة من لحم مطهو، هم أنفسهم لا يمسوها بأيديهم. في النهاية يأخذ كل محارب منهم خاتماً صُنع من جلد الثور المضحى به ليضعه في إصبعه[cxlvi].

ثروة تمشي على الأقدام

أما الطقس التالي فيتجسد في انتقال الذكور من مرحلة العزوبة إلى الزواج. لكن هذا لا يتم إلا عندما تكون العائلة قد جمعت ما يكفي من ماشية. أما الشكل التقليدي من ترتيبات الزواج، فهو دفع مهر العروس إلى عائلتها على شكل أبقار تبقى في تداول مستمر بين الأسر، والعائلات التي تغرق مرات ومرات في الثروة والرفاه عندما تُزّوج بناتها، ومرات عديدة في الفقر والحرمان عندما يتزوج الأبناء. أما عدد الماشية المستخدمة مهرا فيتم التفاوض بشأنه بين العائلات، وفي الغالب تدفع هذه الأعداد على شكل أقساط. وفي معظم الحالات، يكون عدد الماشية أكثر أهمية من نوعيتها.

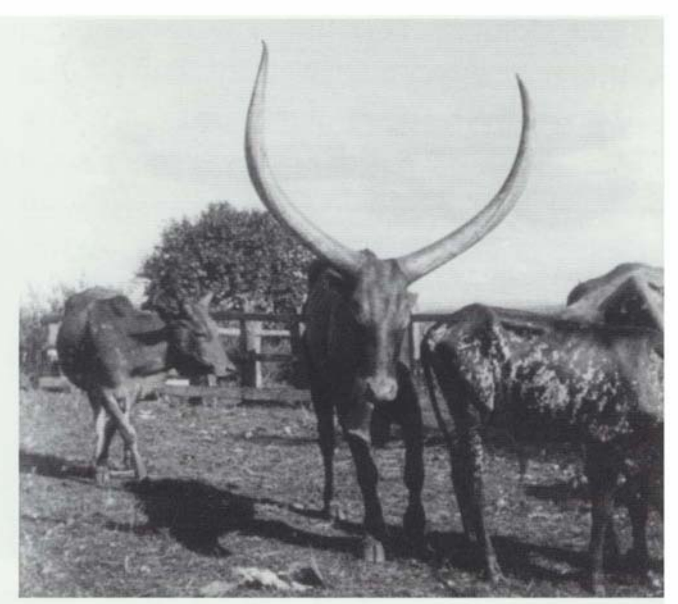
يبرر العديد من الجماعات ممارسة مقايضة الفتيات بالماشية، زاعمين أن الثروة الوافدة إليهم تعوضهم عن الوقت الذي يهدرونه، والمشكلات التي يواجهونها أثناء تربيتهم للفتاة. وفي الواقع هي كلمة شكر تصدر عن أسرة طالب يد الفتاة لتربية كنّتهم ورعايتها (زوجة ابنهم المستقبلية). بينما ترى جماعات أخرى مهر العروس بوصفه تعويضاً لخسارة خدمات ابنتهم التي تقاس بمصطلحات الاقتصاد الحديث، أو كدفعة للأطفال التي تضيفهم إلى عائلتها الجديدة.

رغم ذلك، فالقطيع الذي يُسلّم إلى عائلة الفتاة لا يمكن التخلص

منه. فإن فشلت الفتاة في إنجاب أولاد أو انخرطت في علاقة خارج قفص الزوجية، أو إن طُلقت، فيجب على والدها أن يعيد المهر. لذلك فالماشية تحدد حجم العائلة. فكلما كبرت الملكية، ازداد عدد الزوجات اللواتي يمكن ابتياعهن، وكبرت أعداد الأطفال الذين يُنجبون بغية مد يد العون لرعاية الماشية. ومن جهة أخرى، يمكن لرب العائلة الميسور أن يملك أعداداً كبيرة من الماشية، لكن لا ينظر إليه أنه رجل على جانب من الأهمية، والمكانة دون علاقات اجتماعية واسعة ذات علاقة بالماشية. ففي بوتسوانا -مثلاً- يعرف إقراض الماشية باسم «ماهيسا» mahisa. وليس هناك من وقت يحدد القرض، لكن الملاّك عموماً يحصلون على عجول الأبقار في الوقت الذي يمكن أن تُستخدم فيه البقرة من قبل المستأجر؛ للاستفادة من حليبها وتسخيرها في أعمال الجر. ومن خلال إقراض الماشية، يقلل المالك من المخاطر التي يمكن أن تصيبها إلى الحد الأدنى. وفي حالات الطوارئ، مثل أعمال السرقة، أو الأمراض فيمكنه أن يستعيد ماشيته[cxlvii].

تخلق ملكية الماشية تقسيماً حاداً بين العائلات الغنية، والفقيرة كما كان الأمر عليه في عام 1200 للميلاد، في دولة زمبابوي العظمى. هناك يعيش ملّاك الماشية الأثرياء، في أعالي النجود والتلال ضمن أسوار تحتضن زرائب ماشيتهم. أما الفقراء منهم فيعيشون في الوديان، ويرعون الماشية عبر الأنهُر.

ثمة نظام آخر تجذر تاريخه في ملكية الماشية، وتسبب في الجور وعدم المساواة بين البشر، ما أسفر عن سفك دماء بين الإثنيات المختلفة في رواندا ما بعد الاستقلال. ففي الثمانينيات من القرن التاسع عشر، ازدهرت في رواندا طبقة عسكرية أرستقراطية من الرعاة، حيث كان لعُزّاقِ الأرض من الهوتو زعاماتهم التي تسلل إليها الرعاة من التوتسي. لقد تمكنت الأقلية التوتسية من الماشية ووزعتها إلى العائلات الزراعية في الأكثرية الهوتية مقابل ولائها. وكان لملك



ماشية الملوك أو ماشية أنكولي التي تنتمي إلى شعب التوتسي. قيمتها تكمن بوصفها رموزاً للمكانة الاجتماعية. كما لعبت دوراً بالغ الأهمية في الاحتفالات.

التوتسي يداً مطلقة على الأرض والماشية والامتيازات الملكية، فقد عُدَّت الماشية دليلاً على السلطة والثروة والنعمة وشعاراً لها.

وفي ظل الاستعمار - الألماني أولاً، ثم البلجيكي - فُرض على الشعب هناك المزيد من التصنيفات الإثنية القاسية. ففي العشرينيات من القرن المنصرم استقدم البلجيكيون نظاماً من البطاقات الشخصية تحدد القبيلة التي ينتمي إليها حاملها. كانت هناك صيغة بسيطة تطبق على الحالات الحدودية، أي على الأقوام التي تعيش على الحدود بين الدول والبلدان، فأولئك الذين يملكون عشر بقرات أو ما يزيد قليلاً كانوا من التوتسي، أما الهوتو فملكيتهم أقل[cxlviii]. تنامى هذا الحقد الإثني إلى درجة كبيرة، وبات عنيفاً عندما أخذت الأكثرية الهوتية، التي رزحت تحت اضطهاد دام طويلاً، زمام السيادة السياسية ونالت الاستقلال في عام 1962، وثأرت لنفسها

من الهيمنة الاقتصادية والاجتماعية (الاجتصادية) التي كان للتوتسي في الماضي، وتأجج الثأر ليصل أقصاه في الإبادة الجماعية في رواندا التي امتدت من السادس من نيسان إلى السابع عشر من تموز في عام 1994، وقتل فيها أكثر من مليون من التوتسي والهوتو المعتدلين على يد المتطرفين من الجماعات المسلحة من الهوتو.

لا ماشية = لا مجتمع

لقد كانت النزاعات على الماشية، وما تزال، المسؤولة عن كثير من البؤس وإراقة الدماء في إفريقيا، ولا سيما بين القبائل التي تعيش في شمالي غرب كينيا، وشمال شرقي أوغندا وجنوب السودان: «تذهب بنا الماشية إلى أعدائنا» هو قول مأثور لقبيلة توركانا[cxlix]، في الوقت الذي تقول واحدة من أساطير النيور إن قبيلة دينكا كانت قد حصلت على بقرة بالحيلة والخديعة، وهذا ما يبرر غزوات قبيلة النيور على ماشية الدينكا.

شاب عُفريّ من أثيوبيا يتقلد سكيناً لحماية نفسه من غزاة الماشية، يعود إلى المخيم بعد أن أطعم ماشيته كلأً في الدغل طوال النهار.





تنزانيون يجمعون الماشية إلى بحيرة فيكتوريا لتروي ظمأها وتستحم .

ثمة أسباب عديدة تجعل من الغزوات والغزوات المضادة، والاشتراك في حرب كاملة من أجل الماشية، أمراً ضرورياً. فالسبب الأول يتعلق بالتراث والتقاليد، ويكمن في أن فتية القبائل يعدون الغزو طلباً للماشية طقساً من طقوس بلوغ انتقالهم من مرحلة الفتوة إلى البلوغ، حيث يجب أن يقدموا ما سلبوه مهراً للعروس. وهذا واحدٌ من الأدوار الرئيسة للغرِّ من قبيلة الماساي في أن يتحول إلى مقاتل وراعٍ للقطيع. وهذا يعني أنه سيدافع عن أرض الكلأ، والماشية ضدَّ الجيران الغزاة. كما تقع الغزوات من أجل الفوز بماشية جديدة أيضاً، وتوسيع المراعي وأراضي الكلأ. وأما هذه العدوانية فتوضحها إحدى الأساطير، حيث «نغاي» وهو إله المطر عندهم، وهبهم كلَّ الماشية ليحفظوها بأمان، ويعتنوا بها على أكمل وجه، عندما تنفطر الأرض والسماوات.

أياً كان السبب أو المسوغ، فقد مزقت الغزوات حيوات القبائل



أكوام من جثث الماشية في النيجر تعود إلى عام 2005: قضت الماشية بسبب محصول العلف السيئ، الذي يعود إلى القحط والجفاف والجراد الذي هدد الرزق وأسباب العيش لقبائل مثل الطوارق والفولاني.

الإفريقية لقرون طويلة. فقد باتوا الآن عاجزين عن شكر البنادق الآلية التي تدفقت إلى بلادهم في السبعينيات من القرن المنصرم. فموت الماشية والبشر وبمعدلات مخيفة، وإقفال الطرق في وجه التجارة والمؤونة الطبية، أدى إلى إهمال المحاصيل، ما نجم عنه قلّ في موارد الطعام، وتفشي الأمراض ومزيداً من الخسران في الماشية[cl].

وبعيداً عن غزو الماشية هناك العديد من الكوارث الطبيعية، وتلك التي سببها البشر وأبادت أعداداً هائلة منها. وما هو جدير بالملاحظة أن وباء طاعون الماشية الذي تفشى فيما بين أعوام 1880-1890 جلبه الكولونياليون (المستعمرون) الأوروبيون إلى المناطق شبه الصحراوية من إفريقيا، الذي قضى على ما يقارب من تسعين بالمئة منها[cli]. قاسية كانت النتائج التي حصدها الرعاة، الذين كانوا يعولون على الماشية ليس بسبب تقديسهم للأسلاف، ومهر العروس فقط، وإنما لأنها تشكل وجودهم وبقاءهم على قيد الحياة، فقد

قضى العديد منهم جوعاً[clii].

لم يكن طاعون الماشية الكارثة الوحيدة التي تضرب إفريقيا في القرن التاسع عشر، فقد كان هناك الجدري الذي صدّرته أوروبا أيضاً، بالإضافة إلى وباء البراغيث وحروب التهدئة والجفاف الشديد. نجم عن آثار هذه النوائب مجتمعة محق الماشية، وخسارات مواسم الحصاد، وتناقص عدد السكان إلى درجة كبيرة، وهذا ما ساهم بدوره في تجدد الأجمات وبعثها من جديد، مما أنتج ظروف عيشٍ مثالية، لعودة ذبابة تسي تسي وانتشارها من جديد.

تُعد ذبابة تسي تسي الإفريقية خصم الماشية العنيف الذي يقاسمها بيئتها. فقد حدّت هذه الحشرة طيبة المظهر مخادعته، من تقدم الماشية عبر مناطق غابات إفريقيا الغربية في أواسط الألفية الثانية قبل الميلاد ولألفي عام تقريباً. تمتص هذه الذبابة دماء الأبقار، وبينما هي كذلك ترسل بطفيليات دقيقة من الدماء إلى ضحيتها، حيث تبدأ تلك الطفيليات بنقل مرض «ناغانا» الفتاك، ما يسبب في نهاية الأمر التهاباً وتورماً في الدماغ. لم تتمكن بعض أنواع من الماشية، ومنها (سلالة ناداما والشورتهورن القزمة)، من اكتساب مناعة ضد هذه الطفيليات، حتى جاءت الحقبة التي امتدت ما بين 1-200 للميلاد، حين تمكنت الماشية أخيراً من الوصول إلى جنوبي إفريقيا[cliii].

لذلك شكل الأمر كارثة للرعاة عندما عادت هذه الذبابة، بسبب تجدد الأجمات هناك. ساد الاعتقاد في أواخر القرن التاسع عشر أن الدور الذي لعبته الحيوانات الطرائد بوصفها ناقلة لمرض «ناغانا» لعبته أيضاً في تطور شكلٍ آخر أصاب البشر عُرف بمرض النوم القاتل، أو ما يعرف باسم «تريبانوسومياسيس».

ورغم استسلام الأفارقة السود لمرض النوم القاتل، لم يتم البحث في أسباب المرض والتقصي عنه ومعرفة الإجراءات التي يجب اتخاذها

من قبل المستعمرين، إلى أن ابتليت ماشية الأوروبيين به. وبناء على ذلك تشكلت لجنة ترأسها السير ديفيد بروس فيلا عام 1911، وذلك للتحقيق في الأمر وبحث الإجراءات الممكنة. ارتأت اللجنة ضرورة إبعاد جميع الحيوانات الضخمة، ولا سيما الظباء، لإيقاف انتشار هذه الذبابة. ونُفذ الأمر فعلاً بدءاً من عشرينيات القرن المنصرم، وصولاً إلى ستينياته، ولو أنه تم بغير كثير من العناية.

بدا أن سياسة الإبعاد هذه نجحت في روديسيا الجنوبية، حيث كانت هناك مستوطنات ضخمة ونافذة للمزارعين من البيض الذين تعرضت ماشيتهم إلى تهديد تلك الذبابة. ومن عام 1948 إلى 1951 أفلح 987 من الصيادين الأفارقة، الذين انتخبوا لهذه المهمة في قتل 102، 025من الطرائد، ما أثار حنق أنصار حماية البيئة والحيوان الذين فتحوا جبهة ضد هذه الإبادة[cliv].

يبدو أن الماشية تسببت في أنواع المتاعب جميعها للأفارقة ولحياتهم البرية. لكن أيّاً كان السبب في موت الماشية، فالاعتماد عليها فقط، هو الذي وضع المجتمعات الرعوية على حافة الأخطار، أنى توزعت تلك المجتمعات في مشارق الأرض أومغاربها. فمثلاً اقترب رعاة منغوليا الداخلية والصين القبليون من الموت جوعاً خلال الشتاءات القاسية في أعوامٍ 1999/ 2000/و2000/ 2001 عندما ضرب «الدزود»، وتعني حرفياً النقص في الكلأ، وتترجم أيضاً «التضور جوعاً بسبب نقص العلف»، فلم تستطع الماشية أن تصل إلى العشب الذي غلفته طبقة من الجليد. قدرت منظمة الصليب الأحمر أن «الدوزد» قتل فيما بين عامي 2000-2001 ما يقارب من 220000 رأسٍ من الماشية، وتسبب في موت ما يقرب من 40 شخصاً عجزوا عنٍ مقايضة ماشيتهم بالطعام والعلف في المدن والبلدات[clv].

5 - نجوم الماشية والجمعيات الرومانسية

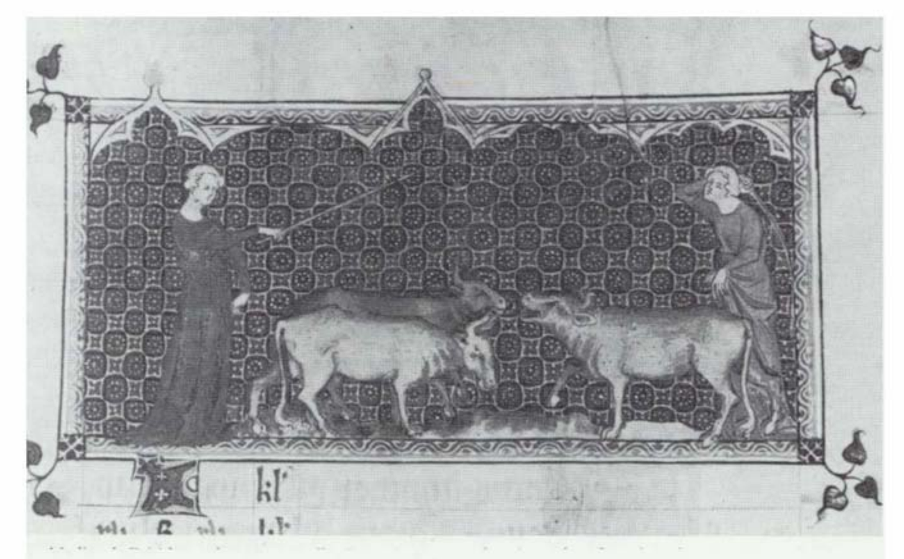
تحوّل الأوروبيون، خلافاً للرعويين الذين ما انفكوا يجاهدون للاعتماد على البقرة الحية كسبب رئيس من أسباب رزقهم ومعيشتهم، للاعتماد بشكل شبه كامل على البقرة الميتة، وذلك طلباً للحمها وجلودها. وفي الوقت الذي مازال فيه الرعويون قادرين على المحافظة على علاقاتهم مع الماشية، دفعت أوروبا وأمريكا الشمالية الماشية إلى تخوم المجتمع. لكن في سيرورة تمزيق أوصال الرابطة الحميمة مع الماشية، بنت أمريكا الشمالية ثقافة كاملة على سلالة لونغهورن من تكساس التي ما تزال تحافظ على جمعياتها الرومانسية، وباتت بريطانيا مهد سلالات ماشية مُنتَخبة.

وعلى الرغم من مساهمة هذه الموروثات الثقافية في تذكيرنا بأهمية البقرة الميتة بالنسبة للمجتمعات الغربية، احتفظت للماشية بحيزٍ في تواريخنا الثقافية.

بريطانيا : الماشية التي تنتج اللحوم

خلال ألفية كاملة من استعباد المزارعين البريطانيين والمجتمع، للبقرة، لم تُمنح خصائص رومانسية كما لم يتم الاحتفاء بها في الحياة العامة أو الثقافة قبل القرن الثامن عشر. ففي إنجلترا القروسطية وبداياتها الحديثة، عاشت الماشية جنباً إلى جنب مع السكان الريفيين، توفر لهم الحليب، وقوة العمل، وصولاً إلى تزويدهم باللحوم عندما تبلغ من العمر عتياً.

مكّن تسييج الأرض في بدايات القرن السادس عشر من إنتاج الحليب، والألبان، وتسمين الماشية بغية توفير مزيد من اللحوم، ما أدى إلى تحولها إلى صناعة مزدهرة انطلقت بجناحين واثقين. كما ساهم ذلك في تعزيز مكانة البشر القادرين على التنعم باللحوم واختيار الأفضل منها. وفي الواقع، وبحلول القرن السابع عشر، اشتهر الإنجليز بوصفهم أكلة لحوم الأبقار. نقل الرحالة الفرنسي

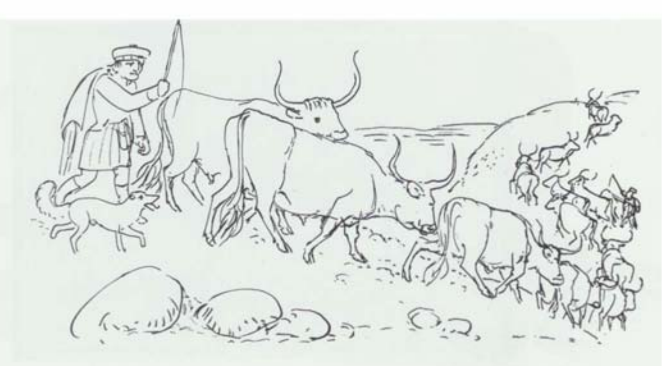


ماشية بريطانية قروسطية صغيرة، ذبحت في أواخر العمر مما قسّى لحمها. من كوين ميريز سالتر Queen Mary›s Psalter.

هنري ميسون في يومياته لعام 1698 مايلي:

«كان تناول قطعة ضخمة من لحوم العجول المشوية أيام الآحاد، التي كانوا يملؤون بها أفواههم إلى أن تضيق بها البطون، ويتناولونها باردة من دون أي أطعمة رديفة في ما تبقى من أيام الأسبوع[clvi]، ممارسة شائعة حتى بين أفراد الطبقة المتنعمة من البشر».

ولتلبية الطلب المتزايد على اللحوم، ولاسيما في لندن التي مرّت بازدهار سكاني أسّي خلال العقد الأول من القرن الثامن عشر، جاء تجار الماشية بقطعان ضخمة من الماشية الاسكتلندية والويلزية، وأخرى من شمالي إنجلترا باتجاه الجنوب سيراً على الأقدام. بعد أن فقدت الماشية كثيرا من وزنها بعد تلك الرحلة المضنية، كان لزام على المزارعين أن يسمنوها في الميدلاند Midlands وإيست أنغليا East Anglia، والهوم كونتي Home Counties، والسبخات الساحلية من هامبشير إلى كنت، قبل أن تباع في سمثفيلد- سوق

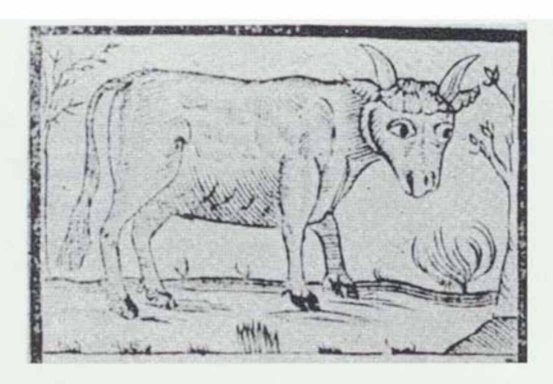


ماشية الهايلاند Highland تساق من قبل تجار الماشية تجاه الأسواق الجنوبية، لوحة (اسكتش) لجيمس هو 1830.

الماشية الضخم- الذي يقع في العاصمة البريطانية.

عبرت ماشية قارب عددها 76، 210 رؤوس، سوق سميثفيلد في عام 1732 (clvii). في ذلك الوقت كانت رؤوس الماشية البريطانية، خليطاً متنوعاً من أنواع محلية متجانسة أكثر منها سلالات كما نعرفها اليوم. لقد أنتجت كل مقاطعة وكل وادٍ تقريباً في تلك الأقاليم

سوق سميث فيلد- لندن 1811 وهو مقصد العديد من الماشية البريطانية التي تنتج اللحوم.



قبل التحسين: ماشية بريطانية «أُعيد إنتاجها» من قبل جيمس لمبرت في كتابه Countryman›s Treasure 1683.

ماشية، تكيفت على نحو نموذجي مع الظروف والمقتضيات المحلية. وصف جورج كولي وهو مزارع بريطاني وأحد مربي الماشية هناك في كتابه: Observations on Livestock (1786) النوع الذي ثَمّنه الناس هناك أكثر من غيره بالكلمات التالية: «حيوان ضخم طويل الجسد ممتد، بعظام كبيرة. فظ شديد، دبق مسطح الجوانب.... بلحم يميل إلى اللون القلوي أو الأسود»[clviii]. تجلت واحدة من المشكلات في عجز أجساد تلك الحيوانات عن تحمّل أثقال لحوم تسد حاجة المزيد من السكان، ناهيك عن ضآلة دُسْمها، التي لم تكن توفر الشحوم الحيوانية الضرورية التي كانت تستخدم لإنارة البيوت في المدن. تجسدت الوسيلة الوحيدة لتلبية الطلبات المتزايدة على الماشية في تحسين نوعية القطيع الوطني، الذي تطلب البدء بإنتاج سلالات حيوانية متميزة.

كان على تلك الماشية أن تنمو بسرعة إلى الحد الأدنى الذي يوفر الغذاء، وأن تعطي هياكل عظمية تحتوي على لحوم صالحة ودُسْم قدر الإمكان. وتلك هي المواصفات، التي كان يجب أن تنتقل إلى ذريتها.

كانت تلك مهمة مربي الماشية المحترفين، التي قادها روبرت



الثور السمين بالقرون الطويلة. تربى في مزرعة دشلي من قبل هونيبورن خليفة ربرت بيكويل حفر على الكليشه لجورج غارارد، وهو فنان اشتغل نماذج جصية صغيرة لسلالات الماشية الرئيسة التي ظهرت في متحف التاريخ الطبيعي في لندن.

بيكويل المزارع المقيم في ليسستر، الذي اشتهر باسم «والد تربية الحيوانات» إشارة إلى مشاعره النبيلة. أخذ بيكويل، ومنذ خمسينيات القرن الثامن عشر، الحيوانات ذات الظهور البيضاء والقرون الطويلة، وانتقى تلك التي تحمل مواصفات وخصائص فطرية كان يريدها «جميع الحيوانات لا فائدة منها إن لم تنتج لحوماً» ذلك كان أحد أقواله[clix]. فقد بيّن أن الحيوانات وثيقة الصلة ببعضها بعضاً يمكن أن تتعاشر ما يسهل ترسيخ مواصفات جيدة مرغوبة على نحو أسرع من حيوانات لاتمت بصلة إلى بعضها بعضاً، إن مورست عملية اختيار وغربلة صارمة عليها.

أنتج بيكويل في ثمانينيات القرن الثامن عشر، سلالة ماشية لونغهورن، وتسمى أيضاً ماشية نيو ليسستر المحسنة، التي وفق كولي كانت:

نظيفة العظام، ونقية بشكل يميل إلى الاستدارة، وهيكل عظمي قصير، ومظهر لطيف مع قليل من البدانة. إنها لحقيقة أن هذه الحيوانات تتناول كميات قليلةً من الطعام، لكنها تسمن أكثر من الآخرين وعلى نحو أسرع............[clx]

بعد ذلك أجّر بيكويل ثيرانه الأصلية إلى مزارعين عاديين، بغية



ثورة أو الإنجليزي الأصيل في فرنسا 1789. حفر على كليشيه.

تحسين قطعانهم أيضاً. وحالما ترسخت أساسيات السلالات المنتقاة، لم يطل الوقت قبل أن تتحول تربية الماشية إلى هواية عصرية بين الملّاك الأرستقراطيين، الذين كان لديهم الوقت والمال للإغداق على ماشيتهم.

شكّل تحوّل «الطبقة الرفيعة صاحبة الثروات»

إلى الاهتمام «بالمصالح الريفية» «فائدة على الصعيد القومي وأدى إلى سعادة الآلاف من البشر»، هذا ما كتبه الكاهن أرثر يونغ في كتابه General View of the Agriculture of the County of Sussex 1813. وأضاف يونغ أنه وكنتيجة «لجهود بيكويل غير العادية سرى في البلاد هوسٌ، اقترن برغبة في تحسين المزايا الجينية للماشية»[clxi].

لكن لم يكن الجميع متحمسين شأن يونغ. إذ قال البعض بوجوب التضحية بنقاء السلالات. بينما جَهَر آخرون بمخاوف طالبت مربي الماشية بإيلاء مزيد من العناية بمظهر الماشية، ولو

كان ذلك على حساب الأداء الاقتصادي والإنتاجية.

اللحوم الوطنية

زعم الملاك الأثرياء أنهم يربون ماشية مُحسّنة، مما أوصل إنجلترا إلى اكتفاء ذاتي باللحوم. وذلك كان - على حد زعمهم أيضاً - واجباً وطنياً. وكما أسلفنا القول كانت لحوم الماشية تلك غذاءً مترفاً عشقه الإنجليز. لكن عندما هُدّدت إنجلترا بغزو أجنبي، وبالتالي بمواقف وأفكار غريبة عنها، احتضنوا تلك اللحوم في ثنايا قلوبهم، ومن يومها بات لها كثير من الدلالات والتضمينات الاجتماعية والثقافية، وسرعان ما تحولت إلى رمز وطني[clxii].

والسخرية في الأمر، رغم أن كلمة لحم العِجل beef صدّرتها اللغة الفرنسية القديمة boef، التي تعني ثوراً داجناً أيضاً، فإن الهدف الرئيس الذي توجهت إليه النزعة القومية للحوم الإنجليز، كانوا الفرنسيين أنفسهم، الذين هددوا بغزو بريطانيا خلال الحروب الثورية النابوليونية (1792-1815).

شاع اعتقادٌ أن اللحوم الحمراء التي كانت تتغذى عليها القوات البريطانية (كان قوامها اللحوم المملحة)، أنتجت مقاتلين أشداء، استطاعوا أن يهزموا الفرنسيين الضعفاء المتباكين الذين كانوا يقتاتون على لحوم أوروبية. يحيلنا المقطع الأول من قصيدة بطولية (بالاد) بعنوان Roast Beef of Old England (كتبها في الأصل هنري فيلدينغ لكنها كتبت من جديد وتم تعديلها مرات عديدة)، إلى هذا الاعتقاد:

عندما كانت اللحوم المشوّية الهائلة قوتاً للإنجليز،
جعلت من مسامعنا أكثر نبلاً، وأغنت لنا الدماء،
شجعان كان مقاتلونا
خيّرون رجال بلاطنا،
يا لحوم إنجلترا المشوية،



ثور درهام الرحّالة الشهير والمولود في عام 1796. تزين صورته جدران العديد من غرف الاستقبال. مالكوه ثلاثة آخرهم كان السيد جون دي، الذي عُرِض عليه مقابل ثوره مبلغ 2000 جنية استرليني في عام 1801، لكنه رفض.

يا لحوم إنجلترا المشوية القديمة!

اقترنت اللحوم بطبقة الملاك الصغار الشرفاء المجدين من المجتمع الإنجليزي أيضاً، من خلال الطابع المجازي لشخصية الإنجليزي الأصيل John Bull، الذي صوره السياسيون الإنجليز الساخرون في تلك الأيام، بوصفه يمثل البريطانيين الذين كانوا تحت رحمة أولئك الذين كانوا في الخارج وحكومتهم. صُورت شخصية الإنجليزي الأصيل أنه يحشو فمه باللحوم المشوية، وأطعمة بريطانية تراثية أخرى، مثل حلوى البرقوق وجعة المِزر.

نجوم الماشية

وهكذا ومع اقتراب مجد بريطانيا من حافة الخطر، شرع الملاك الأثرياء يغيرون بنية الماشية الوطنية، صانعين منها نجوماً مشهورة، وسرعان ما تسيدت ماشية الشورتهورن ذات اللون الكستنائي، التي تطورت من ماشية تيزوتر ودرهام، التي خضعت لتحسينات قام بها الشقيقان ربرت وتشارلز كولنغ، على ماشية بيكويل اللونغهورن، وذلك من خلال توفير الحليب واللحوم. فقد أسس الرجلان قطيعهما في عام 1783 بأربع بقرات الدوقة، وتشيري وستروبري وأولد فيفورت،

وثور بري يدعى هوباك[clxiii].

كان «درهام أوكس» (ثور درهام) أحد ذرية القطيع، النجم الأكبر حجماً الذي جال في أرجاء إنجلترا واسكتلندا، لست سنوات في عربة تدفعها أربعة أو ستة جياد، صممت خصيصاً له. قيل إنه بلغ من الطول ناهضاً خمسة أقدام وستة إنشات، ويزن 3210 ليبرات (1456 كغ). لقد ساهم هذا الثور مع «ذِ وايت هيفر هو ترافلد» The White Heifer Who traveled، ومع وحش آخر ربّاه كولنغ في الإعلان عن السلالة الجديدة والترويج لها، إلى درجة حصدت فيها هذه الماشية أعلى الأسعار عندما انتشر قطيع كولنغ من ثيران الشورتثورن في عام 1810. أما كوميت وهو أفضل ثور، فقد كان الأول الذي يحصد 1000 جنيه استرليني، بينما لم تحصد ليلي البقرة الأفضل سوى على 410 جنيهات.

تحسنت كثير من السلالات الأخرى، وانحازت إليها عائلات بعينها، مثل فرنسيس كوارتلي وعائلته التي عملت على سلالة ديفون، وعلى الحيوانات التي كانت تنتج لحوماً. وفي نهاية القرن التاسع عشر، حلّت سلالة ديفون في المرتبة الثانية عدداً بعد شورتهورن. ولاقت السلالة مزيداً من التحسين على يد توماس كوك (1754-1842) في ملكيته في هولكام نورفولك، واعتبر أنها وصلت إلى الكمال بين السلالات.

تعاون محسّنو كل سلالة؛ لتشكيل جمعيات للسلالات. وانحصر عملهم في الترويج لها، وتسجيل الولادات وتسلسلٍ كل أنسابها، وذلك للحفاظ على نقائها، وعملوا على تحسينها أيضاً. حظيت عديد من الجمعيات بالرعاية الملكية، مثل: جمعية هيرفورد هيرد بوك التي رعتها الملكة فكتوريا منذ عام 1878 .

اشتغلت جمعيات تربية الحيوانات، وتحسين السلالات المختلفة، ووحدت جهودها تحت مظلة جمعيات زراعية وطنية ومحلية، التي

وصل عددها في عام 1803 إلى 32 جمعية على الأقل، كانت قد تأسست لتشجيع الماشية وسلالات الأغنام الأكثر ربحاً، والترويج لها بين المزارعين العاديين. كما درجت الجمعيات على إقامة معارض سنوية، وجاءت أول بادرة من نادي سميثفيلد في لندن الذي نظم معرض في عيد الميلاد في عام 1799. قدم هذا الحدث الذي عرف باسم معرض ماشية نادي سمثفيلد Smithfield Club Cattle Show أول لمحة واسعة إلى جماهير المزارعين عن التحسينات التي طرأت على السلالات الجديدة. وأما بالنسبة للمربين أنفسهم، فقد شكلت تلك فرصة لترسيخ نماذج نوعية، بالإضافة إلى إتاحة الفرصة لإجراء مقارنات فيما بين تجارب التربية وأساليبها التي اتبعوها. بات هذا الحدث تأكيداً مستمراً على نظام اجتماعي في لندن، وبما أن طبقة النبلاء والعائلة المالكة كانوا من زواره المنتظمين. لكنه كان تأكيداً على مواسم المزارعين العاديين أيضاً.

واستمر تسمين ماشية المعرض إلى أن وصلت إلى أحجام جسيمة حتى أواسط القرن التاسع عشر، مثل ثور هيرفوردشاير العظيم الذي انتصب إلى ستة أقدام وأربعة إنشات طولاً، وعشرة أقدام في ضخامة الجسم، أما الوزن فبلغ 5140 ليبرة (2331كغ). ومذاك درج أصحاب محلات اللحوم على الوقوف بصفوف وصلت إلى نهاية معارض سمثفيلد لشراء هياكل الماشية اللافتة. وأخذت الجماهير تحدق مذهولة في قطع اللحم، بالغة البدانة التي كانت تعرض في واجهات المحلات، وأما الأثرياء من الناس فقد كانوا يحصلون على الأفضلية في شراء اللحوم. وكانوا يخلفون أثرا كبيرا في نفوس ضيوفهم، وزوارهم في أعياد الميلاد من خلال منح المعرض أسماء اللحوم المشوية التي كانت تعرض أمامهم.

رغم ذلك، لا يمكن الجزم بردود أفعال المزارعين العاديين الذين كانوا يتحلقون على طاولات مطابخهم، والمقطع التالي المقتطف من

مجلة «كوراترلي ريفيو أوف أغريكلتشر» (6-1835) Quarterly Review of Agriculture يصف ثيران الشورتهورن أنها:

جذابة على نحو آسر...... شُكّل الجسد المتناسق على نحو بديع..... مبهرج، بجلود من أبهى الألوان وأحلاها..... ومُطعّم برأس صغير....... (و) عينين بارزتين تشعان لطفاً[clxiv].

أوحى هذا التمجيد لجماليات الحيوان، أن الدافع الأصلي لتحسين الماشية البريطانية ضاع بين مساعي الملاك الأثرياء المحتاجين إلى هواية اجتماعية. وكانت النتيجة ماشية عانت من العُقم والمناعة الضعيفة، وتعرضها الدائم للأمراض، هذا بالإضافة إلى أوزانها الهائلة التي عجزت سيقانها الطويلة عن حملها[clxv].

كان الملّاك فخورين جدا؛ لأن الفنانين وثّقوا إبداعاتهم للأجيال القادمة، ما جعلهم يطلبون إليهم تضخيم العضلات والشحوم السمينة. كتب الحفارِ الشهير توماس بويك (1753-1828)، أنه وعندما كان فناناً شاباً، كان هناك توق شديد للماشية السمينة، التي غُذيّت بكل القدر الممكن حتى باتت بأوزان هائلة، وأحجام هائلة، لكن هذا كله لم يكفِ، فقد كان يجب تصوير تلك الماشية بأجسادٍ هائلة بدينة قبل أن تَفرج أسارير مُلاكها[clxvi].

كما بات توثيق الأنسابِ هاجساً لمربي الماشية، بما أن ديبريت قام بتوثيق أنسابهم هم في كتابه «بيريج وبارونيتيج». فقد وثقوا أبوة كل حيوان وأصله، وانصبّ الاعتبار الأكبر على «طول الفترة الزمنية التي تتابعت فيها أنبل الدماء وأكرمها. دون أن تعترضها أية دماء وضيعة»[clxvii].

في النهاية أصدر جورج كوتس أول قائمة مفصلة عن كل ثور من نوع شورتهورن أصيل تعود إلى عام 1734 في كتابه General Short-Horned Herd Book (1822) احتوى الكتاب على سجلات لسبعمئة وعشرة ثيران، وثمانمئة وخمسين بقرة، اسُتخدم العديدَ

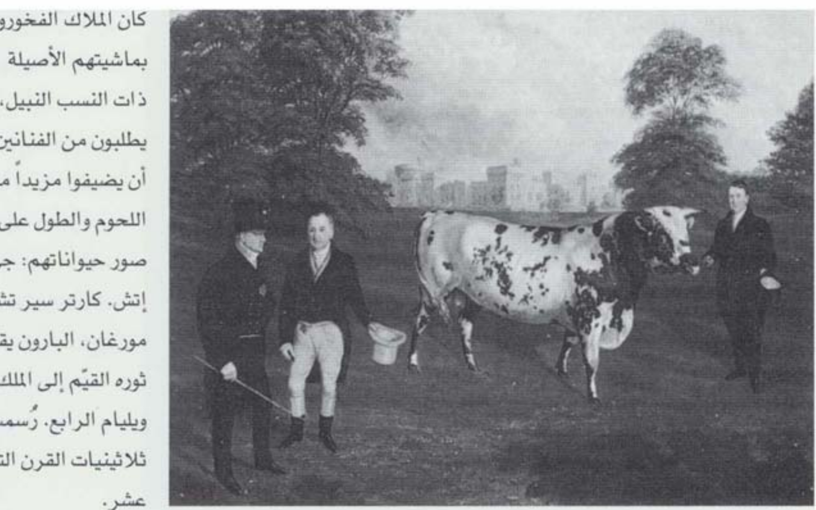
كانت معاينة الماشية الضخمة في معرض نادي سميثفيلد مناسبة اجتماعية في موسم لندن، كما صورتها صحيفة لندن نيوز London News 1851.

من مورثاتها لاحقاً، في تأسيس أربعين سلالة مختلفة في أرجاء العالم كله، مثل سلالة سانتا جيرتود الأمريكية Santa Gertudis وسلالة دروتماستر الأسترالية.

بعد نشر الكتاب الذي حظي تداوله بشهرة الكتاب المقدس في العديد من بيوت المزارعين، حصل بطل كل سلالة على كتاب. دفعت شائعات روجت لأنساب غير صحيحة في عام 1874 مربي سلالة شورتهورن إلى تشكيل جمعية الشورتهورن، التي تولت أمر الكتاب، وكانت أول جمعية لتربية الأبقار من نوعها.

ورغم الأبهة والاحتفاء بل والاحتفالات التي أحاطت بهذه الحيوانات المؤصلة، انتشرت جيناتها مع مرور الوقت عبر الماشية، التي أعدّت للتجارة في بريطانيا. وأما في اسكتلندا، فقد نالت سلالات السكوتش هايلاند وغالوي وأبيردين السمعة الطيبة، والصيت الحسن، لإنتاجها اللحوم التي تؤكل لمقارعة مثيلاتها الجنوبيات.

وفي عام 1830، تزايدت أعداد الماشية التي كانت تعبر سميثفيلد،



كان الملاك الفخورون بماشيتهم الأصيلة ذات النسب النبيل، يطلبون من الفنانين أن يضيفوا مزيداً من اللحوم والطول على صور حيواناتهم: جي. إتش. كارتر سير تشارلز مورغان، البارون يقدم ثوره القيّم إلى الملك ويليام الرابع. رُسمت في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

في كل عامٍ، ووصلت إلى 159.907 (clxviii) رؤوس، وكانت أضخم وأكثر وزناً. وأما صناعات اللحوم المحلية، والعالمية فقد اطمأنت إلى نفسها، ويعود الفضل بذلك إلى جينات من الأبقار والثيران نجوم اللحوم.

لكن وفي الوقت الذي احتفي في التربية الانتقائية للماشية، والمنافع التي عادت بها واستثمرت على نحو جيد في بريطانيا، ركزت صناعة اللحوم، المتواضعة الخبرة في تكساس، على اللونغهورن ماشيتها النحيلة والهزيلة. لم تبدأ السلالات البريطانية المحسنة بإحداث أثر ونفوذ في أمريكا الشمالية إلى أن جاء القرن التاسع عشر .

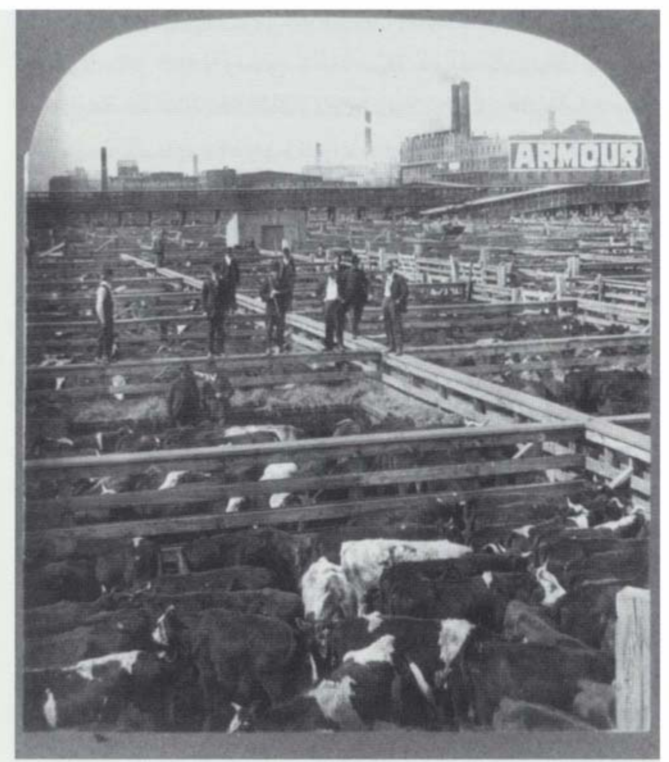
الماشية الأمريكية : ثقافة الماشية العظيمة والأخيرة

لم يقتصر الازدهار على صناعة اللحوم في ما يتصل بماشية لونغثورن في تكساس، بل برزت هناك ثقافة لها أيضاً. فأسلافها الكريوليون Criollo الإسبان كانوا قد تطوروا بدورهم من ماشية شبه الجزيرة الإيبيرية، التي استُوردت أصلا إلى البر الأمريكي

من قبل غزاة البيرو والمكسيك الإسبان في بدايات القرن السادس عشر.

كانت ماشية اللونغهورن تلك هزيلة قاسية وعدوانية مرنة[clxix]. ورغم ذلك، وكما هي الحال مع ماشية بريطانيا غير المحسنة، لم يكن هناك سوى القليل من اللحوم على أجسادها. هزئ أصحاب محلات اللحوم من ماشية اللونغهورن، بما أن الحصول على ثمانية باوندات من الهمبرغر يتطلب عظاماً وقرنين بوزن 800 باوند»[clxx]. ورغم ذلك توجب على هذه الماشية شبه البرية، التي عاشت بأعداد ضخمة على السهول الساحلية من منطقة تكساس، أن تصبح «نجوم» صناعة الماشية الأمريكية، التي عاشت في مراعٍ مفتوحة، صناعة لم تستمر في الواقع إلا إلى عشرين عاماً ضمن أسطورة دامت سنوات عديدة.

ورغم تفوق أعداد ماشية لونغهورن على ماشية تكساس بنسبة ستة إلى واحد في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، لم تكن هناك من صناعة لحوم حقيقية. كان هناك تجارة بالجلود والشحوم لصناعة الشموع، مما أدى إلى تعفن جثث الماشية عندما ذبحت. آنذاك مَلك الماشية من طالب بها. ففي خمسينيات القرن التاسع عشر سيق بعض الماشية إلى خارج ولاية تكساس الأمريكية؛ لتزويد عمال المناجم والمنقبين باللحوم الطازجة خلال فترة حمى الذهب في كاليفورنيا، إلى نيوأورليانز وشيكاغو، وفي عام 1854 وصلت طلائع ماشية اللونغهورن إلى نيويورك. على أية حال كانت التحركات الأولى للماشية محفوفة بالمخاطر، كما أنها استهلكت كثيرا من وقت أصحاب المزارع، ومُلاّك المواشي ما أغضب الولايات الأمريكية الأخرى، فقد نشرت الماشية المنقولة حمى القراد المميت إلى الماشية التي صادفتها في طريقها، (كانت ماشية تكساس محصنة ضد القرادات التي كانت تحملها في أجسادها.)، ومنعت قوانين الحجر



مركز ازدهار الماشية الأمريكية خلال ستينيات القرن التاسع عشر وسبعينياته. ذِ يونيون ستوكيارد – شيكاغو The Union Stockyard in Chicago.

الصحي التي نجمت عن ذلك مرور ماشية تكساس باتجاه الشمال، وأوقفت الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865)-ولو على نحو مؤقت- تقدم ماشية لونغهورن.

عندما عاد أصحاب المزارع، وملاّك الحيوانات من أهل تكساس إلى ديارهم بعد الحرب الأهلية، وجدوا خمسة ملايين رأس من الماشية تجول بحرية من غير دمغة تؤكد أصولها أو ملكيتها، والعديمة القيمة من دون سوق يطلبها. أولوا قطعانهم القليل جداً من الانتباه والعناية، إلى أن توسعت السكك الحديدية باتجاه الغرب لتشكل قسم

الاتحاد الباسيفيكي الشرقي» Union Pacific Eastern Division، (بدأ في عام 1863 وسمي لاحقاً سكة حديد باسيفيك كنساس Kansas Pacific Railroad . سمحت هذه السكة، التي عدت صلة وصل لهم، بتصدير ماشيتهم التي لا قيمة لها، عبر يونيون ستوكيارد Union Stockyard في شيكاغو إلى الأسواق المزدهرة المربحة في الشمال الشرقي، وإلى الشرق حيث كان المهاجرون يصلون من أوروبا. وافتتحت فناءات الماشية في شيكاغو في عام 1865، وغطت موقعاً بلغت مساحته 345 فدانا، حيث تلاقت تسع سكك حديد. في أقصى مساحة لها كانت الفناءات قادرة على أن تتعامل مع 21000 رأس من الماشية يومياً، وباتت شيكاغو تعرف «بمدينة الأبقار العظيمة في العالم»(clxxi).

كان من السهولة بمكان للمزارعين ومربي الحيوانات من تكساس أن يخلقوا قطيعاً من اللونغهورن. وأما جُلّهم فقد وجدوا لأنفسهم مورداً على مراعيهم وتبنوا نوعاً، وأخذوا يتصيدون كل الماشية الهائمة على وجهها (ماشية غير مدموغة) ضمن المنطقة، ونسبوها إلى أنفسهم.

الرحلة الطويلة

بدأت أيام سوق الماشية أو «الرحلة الطويلة» بجدية في عام 1867، عندما سيقت ماشية تكساس على طول «شيشولم تريل» Chisholm Trail الذي كان ينعطف عبر تكساس إلى كنساس إلى نهاية السكة الحديد في أبيلين. هنا بنى الرجل المقدام والمغامر جوزف. غ. مكوي أول «بلدة للماشية»، قبل ذلك بعام حين التقى تجار الماشية الجنوبيون بالشُرّاء الشماليين والأكثر أهمية، فتلت موجات صقيع الشتاء قرادات ماشية تكساس.

خلال صيف عام 1867 جاءت إلى شيشولم تريل ماشية قدر عددها بـ 35000 رأس، حيث سُمّنت في الشتاء على السهول المعشبة

المسقية التي تحيط بمدينة أبيلين، ثم أرسل بها خالية من القراد باتجاه الشرق بالقطار ضمن حظائر مكشوفة. وفي العشرين عاما اللاحقة كان على أبقار المدن أن تتوغل في الغرب لتتكيف مع حركة انتقال المزارعين باتجاه الغرب، الذين اجتمعوا ضد الأضرار التي لحقت بمحاصيلهم من قبل ماشية تكساس التي غزاها القراد.

استقبلت مدينة أبيلين ومدن ماشية كنساس اللاحقة إيلسورث، ودودج سيتي، وهيز ما مجموعه مليونا رأس من ماشية تكساس. وبالإضافة إلى السكك الحديدية، كانت ماشية تكساس تُساق باتجاه الشمال إلى السهول العظيمة The Great Plains التي تتبع «غودنايت لوفنغ تريل Goodnight Loving Trail، التي سُمّيت تيمناً بتشارلز غودنايت وأوليفر لوفنغ، وهما من أهالي تكساس الرواد اللذين باعا الماشية إلى جي. دوبليو. إيليف، وهو أول ملوك الماشية في ولاية كولارادو الأمريكية.

اكتشف إيليف أن الماشية تستطيع أن تحيا، وتنمو على مجموعات، وحزم من الأعشاب تبدو ضئيلة للعيان وتغطي السهول العظيمة The Great Plains، وبدأ يشتري الماشية المريضة والعرجاء والمتقدمة في



أول تصوير لسوق الماشية ظهر في واحدة من المجلات الأمريكية: «قطيع من ماشية تكساس تعبر جدول ماء» حفر على الخشب على نمط رسومات إي. أر. وارد في صحيفة هاربر ويكلي 19 تشرين الأول عام 1867.

العمر من الباحثين عن الذهب، والرحالة في أوريغون تريل Oregon Trail، ثم باع، هو والعديد من أصحاب المزارع وملاك الحيوانات الذين استوطنوا على هذه المنطقة العشبية المجانية والمشاع، ماشيتهم المُسمّنة لعمال مناجم منطقة روكي مونتين، وإلى الهنود الحمر من سكان البلاد الأصليين الذين أجبروا على أن يكونوا جزءاً من الاستثمارات والموارد الحكومية.

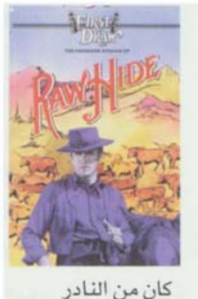
تراوحت أعداد الماشية، من عام 1867 إلى عام 1886، التي سيقت من ستة ملايين إلى تسعة ملايين رأس من لنوغهورن ماشية تكساس إلى آخر محطات السكك الحديدية وإلى السهول. استغرقت رحلة الماشية تلك التي بلغت 500 ميل إلى محطات السكك الحديدية في كنساس حوالي ثلاثة شهور، بينما استغرقت الرحلة إلى داكوتا أو مونتانا ستة شهور.

بعد أن اجتازت الماشية الشتاء بسلام، كانت الرحلة التالية لماشية لونغهورن في ستينيات القرن التاسع عشر وأوائل سبيعيناته في السكك الحديدية إلى يونيون ستوك ياردز Union Stock Yards في شيكاغو. وتجمع أصحاب محلات اللحوم من شمال البلاد وشرقها لشراء الماشية، وقبل أن يُستقدم نظام التجميد في ستينيات القرن التاسع عشر، شُحنت الماشية شرقاً إلى محلات اللحوم في المسالخ المحلية.

الماشية ورعاة البقر (الكاوبوي)

كان رعاة الأبقار، وما يزالون أيقونات الغرب الأمريكي. استخدم أصحاب المزارع، وملاك المواشي في تكساس رعاة الأبقار لجمع الماشية واصطحابها بعد ذلك إلى السَوق. صوّر العديد من الأفلام والروايات الغربية رعاة الأبقار بطريقة رومانسية، وأضفوا عليهم خصائص أسطورية، والتي لم تأخذ بعين الاعتبار تفهم رعاة البقر الحقيقيين لسلوك الماشية وتعاطفهم معها. لقد حفظ أفضل رعاة

الأبقار حيواناتهم مثل إب بلوكر عن ظهر قلب: «فقد كان يعرف البقرة ويفهمها ويدرك سايكولوجيتها، وعلم التشريح السريري الذي يتناولها، ويعرف غذاءها وطبيعتها بشكل عام، وعلى نحو خاص أيضاً»[clxxii].



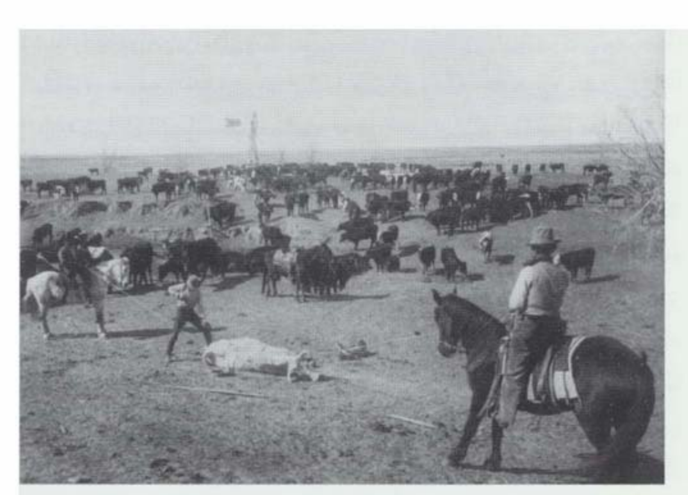
كان من النادر تخصيص مساحة للماشية على أي ملصق دعائي لأفلام الوسترن (الغرب). وحتى أغلفة شرائط الفيديو للحلقة الأولى من المسلسل التلفزيوني Rawhide تدبرت أمرها في إبراز ماشية لونغثورن مرسومة.

أما الصورة المتكررة التي رسمت عن راعي البقر فهي، رجل أبيض، فظ، بهندام نظيف لا تشوبه شائبة، حر مستقل، يتدلى من خصره مسدس أو اثنان، يقاتل الهنود السُلاّب، النُهّاب، قطاع الطرق. وعندما يُستغاث به، فهو من ينقذ العذارى في أوقات الشدة والمحن. لكن روائيي الغرب الأمريكي وصناع أفلامه أغفلوا الماشية الحقيقية، والتي هي أساسا سبب رزق راعي البقر ومصدر عيشه. وقليل من ملصقات هذه الأفلام فقط أظهرت الماشية، وصُنف فيلم «أوين ويستر» The Virginian 1902 أنه فيلم عن «راعي بقر دون ماشية»[clxxiii].

حاول رعاة البقر الذين يملكون بعض العلم، والمعرفة أن يعوضوا عن الصورة التي رسمت لهم من خلال إظهارهم، نمط حياة مختلف للجماهير، مثل: أندي آدمز الذي تسجل ذكرياته الروائية The Log (of a Cowboy: A Narrative of the Old Trail Days (1903 حياة متعبة منفرة محفوفة بالمخاطر. كان رعاة البقر عموماً جنوبيّين وفي مقتبل العمر، سود ومكسيكيين وهنود حمر. كانوا عمالة رخيصة تهيم على وجهها وتنتقل من مكان إلى آخر، وأما ملابسهم ولغتهم وتجهيزاتهم فقد استعيرت كلها من المزارعين، ورعاة الأبقار المكسيكيين vaqueros الذين كانوا يقتفون أثر حيوانات الكريليو[1] التي كانت تتجول بحرية.

شهد أول «روديو» (جمع القطعان في الربيع) حشداً لكل الماشية

(١) من الثدييات. ويمكن أن تكون حصاناً، أو أي شيء آخر. موطنها أمريكا اللاتينية. (المترجم).



وسم الماشية السائبة: كان لكل مزرعة من مزارع الماشية (وماتزال) علامتها التجارية الخاصة بها، التي كانت تستخدم للمطالبة بالماشية، أو العجول غير المدموغة أو لتحديدها.

ومن المراعي كلها. وعلى مساحة بلغت 4000 ميل مربع، تطلب الأمر إيجاد 10000 رأس من الماشية، وهذا ما كان يستغرق فترة ثلاثة شهور. يرُسل رعاة البقر إلى وجهات مختلفة لنقطة محددة، ثم يعودون على مهلٍ وبتأنٍ يجمعون الماشية والعجول التي يجدونها في طريقهم، التي تكون أحياناً عالقة في المستنقعات أو مختبئة بين الأجمات. ومن هذه الماشية التي حُشدت، يُنتخب الأفضل منها لإرساله إلى الأسواق، أما تلك التي لم تبلغ مرحلة النضج فتعاد إلى المراعي. في هذه المرحلة كان لرعاة البقر مهمات أخرى، تتجلى في نزع قرون الماشية إن كانت طويلة أو حادة، واسمين السائبة منها بدمغة المالك، وأما الذكور فتخصى.

بعد حشد الماشية الذي يتم ربيعاً، يُصرف من العمل حوالي ثلثي رعاة البقر، أما ما تبقى وهم الأثيرون على أصحاب المزارع، فيُستبقون في المزرعة من أجل القيام بأعمال من هنا وهناك، أو أنهم يُكلفون بأخذ الماشية إلى السوق. يصطحب زعيم مقتفي الماشية، وعشرة من رعاة البقر من مئة إلى مئة وخمسين حصاناً، بسوق

1500 رأس من الماشية.

في بداية التعقب تكون الماشية شديدة العصبية، وكان الأمر يقتضي أن تدفع لتسرع على طول الطريق لمنعها من العودة إلى ديارها. لكنها كانت تذعن، لأسيادها من رعاة البقر بعد عدة أيام وتمضي معهم. كان مزيج البشر والماشية يقطعون خمسة عشر ميلاً في اليوم. وأما أوقات الطعام فمتزامنة، ثلاث رعيات للماشية، وثلاث وجبات لجُمّاعها كل يوم. عند الغروب تُجمع القطعان بحيث يلتصق أفرادها بعضها ببعض، ويعتلي عدد من رعاة البقر ظهور جيادهم ويدورون حولها طوال الليل، يطلقون الأغاني، أو الصافرات على نحو مستمر «لطمأنة القطيع أن من يسهر عليها، وعلى أحلامها صديق ودود وليس عدواً»[(clxxiv)].

وبالإضافة إلى صِغر زوادة الطعام التي يأخذها رعاة الأبقار معهم، والغبار الخانق، والأمطار، والبعوض، والحرارة، والأربع عشرة ساعة التي يقضونها كل يوم على سروج خيولهم، التي لزام أن يتحملوها، هناك المخاطر الدائمة التي تتجسد في فرار الماشية الخطرة، وعبور الأنهار السبعة في الطريق إلى كنساس. رغم ذلك فعدوّ قطيع اللونغهورن اللدود كان ذبابة الحافر، التي كانت تسبب غالبا الاندفاع العنيف لأفراده. ولتجنبها، توجب سوق الماشية إلى بركة ماء مجاورة، أو إجلاسها القرفصاء في الأجمات سعياً لتغطية كواحلها.

كما أن الماشية معرضة على نحو خاص لأن تجفل ليلاً. وأما الهروب الجماعي فكان أحد مصادر القلق الدائمة، ولاسيما في أثناء رعود الشتاء وبرقها. وأبرز بعض الأفلام صوراً رومانسية عن هروب جماعي للماشية، مثل: Red River (1948)وCowboy (1958) و City Slickers (1991) وفي الواقع يؤدي الهروب الجماعي للماشية إلى نهايات مروّعة، شأن ما أفيد عن هروب إيداهو الذي حدث في

عام 1889، الذي قضى فيه 342 رأساً من الماشية وحصانان وأحد رعاة البقر، الذي شُوه كأنه نقانق لحم»[clxxv]. وأما لمّ شمل القطيع من جديد، فقد تطلّب أياماً أو حتى أسابيع.

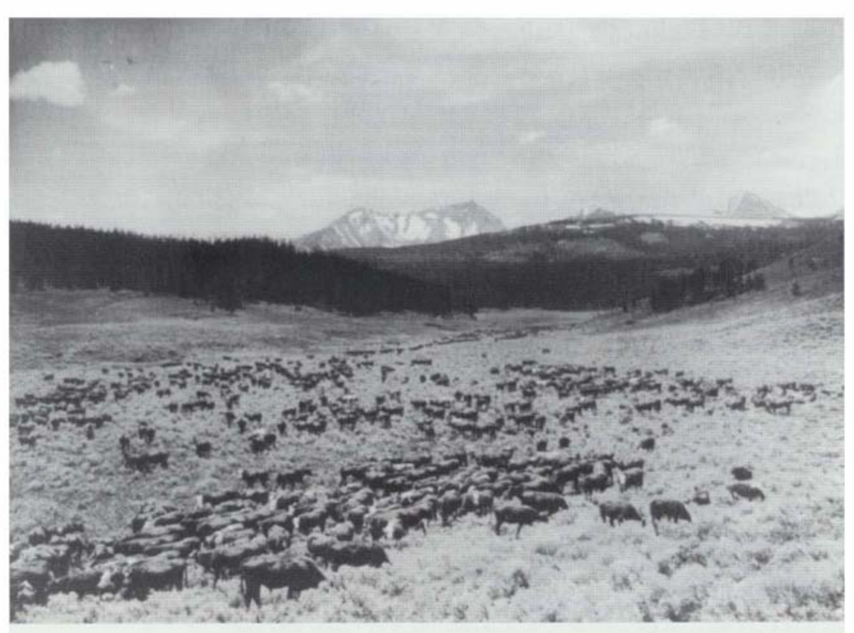
تتحول الأنهار العريضة والهادئة والموحلة خلال الربيع، إلى سيول غاضبة هائلة. وهنا يحدث كثير مما يخشاه رعاة البقر، فهناك جمع الماشية، والانتظار لعبور الأنهار المتضخمة، واستعداد الماشية الظمأى للهروب الجماعي. وإن أجفلت طلائع الماشية، وحاولت أن تغير وجهتها بينما هي في النهر. فهذا يسبب تخبط رعاة البقر وتشويش أفكارهم. وأما التعب فقد تجلت خطورته في أن ينجرفوا مع التيار إلى قيعان الأنهار. وأحياناً يتعذر على رعاة البقر إقناع الماشية بعبور الأنهار، كما أظهرت اليوميات المحزنة التي كتبها جورج. سي. دوفيلد أحد رعاة البقر:

الثالث والعشرون من حزيران: جهدنا طوال اليوم في النهر، محاولين أن نجعل الماشية تسبح، لكننا لم نتمكن من إقناع أيّ منها. كان علينا أن نعود إلى البراري مرضى كسيري القلوب. لمَ أحزن، بل إنني في ورطة جهنمية[clxxvi].

كان من النادر أن يهاجم الهنود الحمر أو اللصوص الماشية



فريدرك ريمنغتون «الفرار» نحت 1910. شكّل فرار الماشية كابوساً واجه رعاة البقر، أثناء سوقهم لها.



ماشية تهيم على وجهها في سهول مونتانا العظيمة. 1911.

المساقة، مغايرا لما في الأفلام السينمائية. بل ربما يطالب الهنود بنقود كمكوس، أو رسوم لعبور الماشية أراضيهم، أو أنهم يطلبون الطعام. أما زعيم السّوق، فكان عليه أن يتعامل مع مزارعين غضوبين أيضاً، إن تبعثرت الماشية على محاصيلهم.

ازدهار الماشية

ازدهرت تجارة الماشية الأمريكية في أواخر القرن الثامن عشر، أي بدءاً من سبعينياته وصولاً إلى بدايات القرن التاسع عشر، حين وحّد أصحاب مزارع الماشية الأمريكيون والمستثمرون الأوروبيون والأمريكيون، الجهود لخلق ثروات من الماشية.

تطلع المستثمرون إلى الأعشاب السائبة في السهول العظيمة. كانت تلك الأرض التي دُشّنت بمذبحة جماعية راحت ضحيتها أعداد

من حيوانات الجاموس، ووضعوا الهنود من سكان البلاد الأصليين تحت تصرف الحكومة[clxxvii]. بات الاستثمار في تجارة الماشية هوساً سواء في الولايات المتحدة الأمريكية، أم أوروبا بعد حكايات عن أرباح هائلة، وضمان أسواق محلية (ولا سيما العقود الحكومية التي غذت نظام المحاصصة الهندي). كما ازدهرت أسواق التصدير مع كلِ سفينة تجارية جهزت بثلاجات بحلول عام 1880 ما يعني أن لحوماً باردة كانت تصل إلى بريطانيا وأوروبا بحالة ممتازة.

كان من الصعوبة بمكان ألا يقع المرء في إغراء كلمات جدج شيروود من كونيكتيكوت التي صبت في صالح ازدهار الماشية ذاك، حين كتب رسالة إلى مؤيدين محتملين للمشروع قال فيها:

الأرباح هائلة. ليس هناك من تجارة تشبهها، وأما السر كله، فيكمن في أنك لن تدفع شيئاً لإطعام الماشية. فهي تكبر من دون أن تستنزف نقودك. إنها تربي نفسها بنفسها بكل معنى الكلمة[clxxviii].

ووردت بعض الأمثلة الخاصة على أولئك الذين ربحوا نقوداً في تجارة الماشية في كراسة جيمس. إس. بريسبن الصريحة The Beef Bonanza, or How to get Rich on the Plains 1881، حيث كانت الأرباح السنوية التي تصل إلى 25 ٪ تذكر على نحوٍ منتظم، فاستثمار أولي لمبلغ 250000 دولار أمريكي يعطي أرباحاً صافية تصل إلى 36500 دولار أمريكي في غضون خمس سنوات[clxxix]. ومع دعاية وصلت إلى درجة كبيرة من الإقناع، لم يكن مفاجئاً أن يتم شراء آلاف الفدادين من مونتانا وتكساس، ويومنغ من قبل شركات الماشية التي تأسست في كلٍ من لندن وأدنبره، ومن عام 1880 إلى 1885 ضخّ المستثمرون البريطانيون والاسكتلنديون ما يقارب أربعين مليونا من الدولارات الأمريكية في مزارع الماشية[clxxx].

ونقل آنذاك تقرير حكومي أن حوالي 1،365،000 من الأميال المربعة

أي ما نسبته 44 ٪ من الأرض الأمريكية كرُست لتربية الماشية.

وخلال صيف عام 1883، جيء بالعديد من القطعان من تكساس، حين أشار تيدي بلو أبوت في مذكراته أن «كل ماشية العالم كانت تأتي من تكساس»[clxxxi]، وفي طلعة له إلى القرب من نورث بلات رأى سبعة مواكب من الحيوانات ترعى خلفه، وأما أمامه فثمانية قطعان واستطاع أن يميز عبر النهر غباراً خلّفه ثلاثون قطيعاً آخر.

لكن لم يكتب لهذا الازدهار أن يدوم. فقد أسهم كل من تخمة المراعي، والأسعار المتقلبة، وحروب المراعي، والعواصف الثلجية الشديدة في وضع حدٍّ للثراء الذي تسببت به الماشية. ورغم ذلك، جعل توسيع السكك الحديدية باتجاه الغرب (ما جعل من غير المربح سَوق القطيع من تكساس)، وتشييد أسيجة من الأسلاك الشائكة، هو الذي تسبب بتدمير ثقافة ماشية اللونغهورن.

الأسلاك الشائكة

عندما سجل جوزيف إف غليدن وهو مزارع من إيلينويز براءة اختراع الأسلاك الشائكة في عام 1873، التي استخدمت على نطاقٍ غير مسبوق في أرجاء الغرب الأمريكي، لم يكن لديه أية فكرة عن العواقب التي ستنصب على ماشية اللونغهورن. عارض العديد من كبار مزارعي الماشية في تكساس هذه التقنية الجديدة في البداية، وأطلقوا عليها «حبل الشيطان». فقد نظروا إليها بوصفها وحشية تشكل خطراً على ماشيتهم، كما قاوموا ثقافة المزارع ذات المراعي المفتوحة، حيث يمكن أن تسيب ماشية اللونغهورن عبر تلك المراعي بحثاً عن الملجأ والكلأ والماء. كان من الممكن فرز الماشية خلال جولات تجميعها وسوقها إلى مراعيها الأصيلة، لذا لم يكن هناك من ضرورة للسياج.

ورغم ذلك، وبعد أن اقتنعوا أن الأسلاك الشائكة لن تؤذي ماشيتهم، توصل جُلّ مزارعي الماشية في شمالي تكساس إلى

اتفاق، وبدؤوا العمل في بناء الأسيجة في عام 1881، لمنع مواشيهم من التسيب والابتعاد شمالاً في فصول الشتاء. وتزايد استعمالهم للأسلاك الشائكة عندما بدأ الوافدون على هذه الصناعة الجديدة (أسماهم حراس المراعي والغابات قراصنة المراعي) يطالبون بمراعٍ مجانية، ولم يرغب مزارعو الماشية البارزون بشراء أو استئجار أراضٍ كانوا يعدونها من حقهم وبغية حماية أراضيهم العشبية، وماشيتهم وثروتهم من الابتلاع، استخدموا الأسلاك الشائكة لعزل الجداول المائية، وخنادق المياه التي كانت تروي الماشية على أراضيهم. وفي ظل مرسوم هومستيد[1]، الذي سُنّ في عام 1862 استطاع المستوطنون أن يحتفظوا بمطالبهم بالملكية، لاستخدام الأرض من خلال ضمانهم لحقوق ملكية الماء.

أدرك «القراصنة» في فترة الجفاف الذي ضرب البلاد في عام 1883، أن مصادر مياههم التقليدية التي كانت مشرعة للجميع، طوِّقت ومنعت عن الآخرين. وتجلت ردة فعلهم بقطع السياج، فنجم عن ذلك حرب «الأسلاك الشائكة» سيئة الصيت. وتصاعدت النزاعات بين أسياد الماشية والوافدين، وازدادت حدةً ومرارة، وسرعان ما تفجر العنف وسط اتهامات بسرقة الماشية، مخلفاً ثلاثة قتلى.

نهاية سلالة لونغهورن

ورغم خسارة أرواح بشرية نتيجة لتسييج المراعي المفتوحة، لم يكن هذا ليقارن بالخسارة التي حلّت بماشية لونغهورن خلال فصول شتاء 1884 1885- و1886-1887 وهي الأسوأ التي يشهدها الغرب. إذ عجزت الماشية عن اختراق طبقات الثلج العميق للوصول

---

(1) Homestead Act مرسوم شرعه الكونغرس الأمريكي في عام 1862 أعطى حق تملك 160 فدانا من الأرض المشاع إلى أي مواطن يعيش عليها ويحرثها ويعتني بها لخمس سنوات، (المترجم).

إلى الكلأ، وفي مسعى منها لأن تساق قبل حلول العاصفة، اندفعت الماشية إلى الأسلاك الشائكة، وهناك تكومت وماتت منها الآلاف برداً وجوعاً وربما قهراً.

استعاد أحد ملاك مزارع الماشية مئة رأس من ماشيته في يومنغ، من قطيع بلغ عدده 5500 رأس، ما جعله ينطلق إلى المراعي في الخريف. أما غرانفيل ستوارت وهو أحد مزارعي الماشية في مونتانا فقد فُطِر قلبه لدى رؤيته عذابات الماشية التي قضت، وتلك التي تحتضر على مراعيه، وأقسم أنه لن يحتفظ بحيوانٍ لا يستطيع أن يقدم له الكلأ والملجأ. وهذا يعني أن على المزارعين أن يسيجوا أرضهم، وأن يقيدوا من تحركات كبير ماشيتهم، ويوفروا لها قوت الشتاء(clxxxii).

ولّت حقبة السوق لمسافات طويلة، وعهد رعاة البقر مزارع الكلأ المفتوحة وطورها. وانهار العديد من مزارعي الماشية، وبحلول عام 1887 كان يصل كل يوم إلى أسواق شيكاغو ما بين 5000 إلى 7000 رأس من الماشية لبيعها هناك.

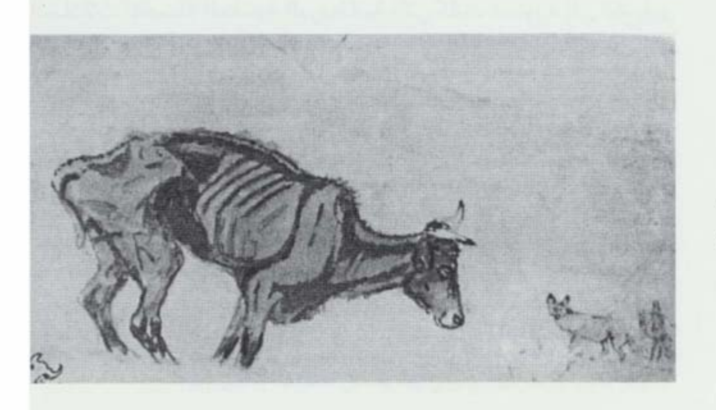
كما ولّت أيام تسيدت فيها ماشية اللونغهورن الموقف أيضاً. وبينما كان مزارعو الماشية الأحياء يعيدون تنظيم أنفسهم، كانوا يستفيدون من السلالات المحسنة للماشية البريطانية التي كانت تستورد إلى تكساس وبالآلاف. بدايةً تم اختبار سلالات الشورتهورن، والأبيردين أنغوس، والديفون، لكن سلالة هرفورد هي التي اختيرت خليفة للونغهورن. فبالإضافة إلى مقدرتها على البقاء، وإثبات وجودها في ظروف المزارع القاسية جدا، كانت تلك السلالة تنمو وتشبّ على نحو أسرع، وتنتج كميات كبيرة من اللحوم. كما حملت تلك السلالة مزيداً من الأرباح، وتفوقت بذلك على الماشية التي كانت تتغذى على مراع بغطاء نباتي خفيف. تم استيراد 200 رأس من الماشية في عام 1880، بينما وصل العدد الإجمالي من رؤوس الماشية التي أرسل بها إلى الولايات المتحدة

الأمريكية في السنوات التسع اللاحقة إلى 3500 رأس.

وسرعان ماباتت سلالة اللونغهورن نوعاً مهدداً بالانقراض، وبحلول العشرينيات من القرن المنصرم، بقي العدد القليل من القطعان الصغيرة فقط. لكن ولحسن الحظ تدخل قسم خدمات الغابات Forest Service في عام 1927 وأسس قطيعاً في محمية الحياة البرية في جبال ويشيتا Wichita Mountains Wildlife Refuge في أوكلاهوما، الذي تزايد ووصل عدد أفراده إلى المئات. ومن جديد تأسست سلالة اللونغهورن في تكساس[clxxxiii].

أمريكا الجنوبية وأستراليا

توجه المستثمرون بأنظارهم مع انهيار أسواق الماشية في أمريكا الشمالية، إلى الجنوب أي إلى الأرجنتين، سعياً خلف فرصة تجارية جديدة. سيطر المستثمرون على المسالخ، ومصانع الجليد frigorificos التي اصطفت على نهري بلاتوبرانا في بداية القرن العشرين، التي وفرت اللحوم الباردة إلى أوروبا. وفي أثناء ذلك كانت صناعة اللحوم تزدهر مع الماشية التي كانت تربى داخل البلاد في مزارع هائلة تسمى estancias، لتنقل بعد ذلك إلى المصانع بالقطارات[clxxxiv].



تشارلز. إإم. رسل. «بانتظار أحد أفراد قبيلة التشينوك وهي قبيلة هندية» 1886 . تناقصت أعداد كبيرة من ماشية اللونغهورن بفعل طقس الشتاء القاسي.



ألبرت «ثور هيرفورد» يشمخ في أودوبون، أيوا نصبا تذكاريا لصناعة اللحوم الوطنية، زُعم أنه الثور الأضخم في العالم حيث يصل وزنه إلى 45 طناً، وينتصب إلى تسعة أمتار.

قطعت صناعة اللحوم الأرجنتينية شوطاً طويلاً إلى الأمام، وافترقت عن بداياتها المتواضعة. وفي أعقاب المستعمرين الإسبان، وفي عام 1552 استُهلت عمليات الاستيراد إلى المنطقة بعدد قليل نسبياً، من ماشية كريولو الإسبانية، فوصل العدد إلى سبع أبقار وثور[clxxxv].

وعندما بدأت أعداد المستوطنات تتزايد، تم استيراد أربعة آلاف رأس من الماشية أيضاً، فلبّت كل كميات الجلود واللحوم المطلوبة. على أية حال، جعلت الظروف المثالية في سهول بامباس الأرجنتينية من الماشية تكبر وتزدهر. وبحلول عام 1615 كانت الجلود الفائضة تباع إلى إسبانيا والبرازيل، وأقيمت مشاغل تمليح ضخمة في بوينس آيريس في عام 1717 للاستفادة من أسواق التصدير للحوم المملحة التي أكملت إنتاج اللحوم المجففة.

كان على الماشية المحلية أن تخضع لتحسينات وراثية تلبية للطلبات، كما حدث في أمريكا الشمالية. ففي عام 1865 وصلت أول ماشية شورتهورن، وسرعان ما تبع ذلك تأسيس الجمعية الريفية الأرجنتينية Argentine Rural Society التي وضعت نصب عينيها

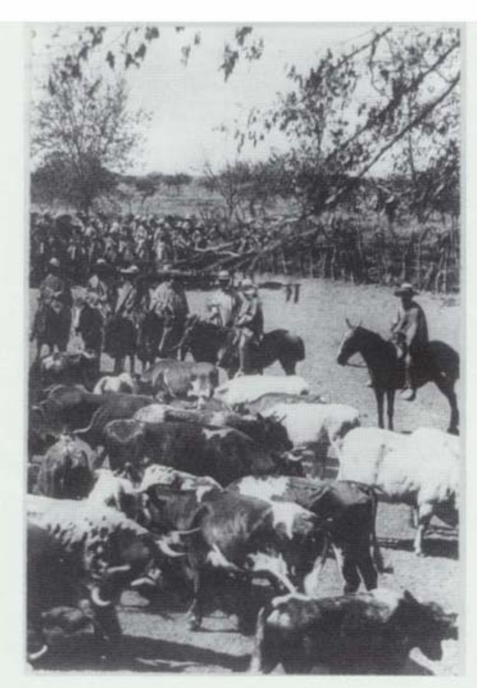
تطوير صناعة مواشي منظمة على نحو جيد. وصلت شحنات من الماشية الحية إلى بريطانيا قادمةً من الأرجنتين، حيث أنزلت من السفن وذبحت بالقرب من لندن في ديبتفورد على الضفة الجنوبية من نهر التايمز، حين تم استيراد أكثر من مليون رأس من الماشية بحلول عام 1879. لكن هذه الصناعة لم تعمر طويلاً بما أن حظراً طال الماشية الأرجنتينية في عام 1900 لثلاث سنوات، بعد أن جاءت بداء القدم والفم إلى البلاد. وهنا برزت حاجة ملحة للعثور على صادرات مربحة، والحل كان في اللحوم المبردة.

شهدَ المستثمرون الأوائل إمكانية التبريد لفتح أسواق التصدير، كما شهدتها كامبانا الواقعة على نهر برانا، حيث بنت شركة ذِ ريفر بلات فريش ميتThe River Plate Fresh Meat Co مشاغل وورشات تجميد في عام 1882. لكن، وبحلول عام 1901 سمحت التطورات التقنية للحوم المبردة وليس إلى اللحوم المجمدة، أن تنقل إلى بريطانيا ضمن ثلاثة أسابيع. وأما ملاك مزارع الماشية، الذين كانوا خاليي الوفاض من أسواق تصدير تنبض بالحياة، فسنحت لهم فرصة مكنتهم من توريد أفضل ما لديهم من لحوم إلى سوق اللحوم المبردة، بينما جمدت اللحوم التي كانت من نوعية أدنى.

لم تعد ثقافة ماشية أمريكا الجنوبية تتركز في الأرجنتين، بل انتقلت إلى البرازيل (انظر الفصل القادم) حيث كان هناك 36،5 مليون من رؤوس الماشية المنتجة للحوم مقارنة ب14،4مليون منها في الأرجنتين[clxxxvi].

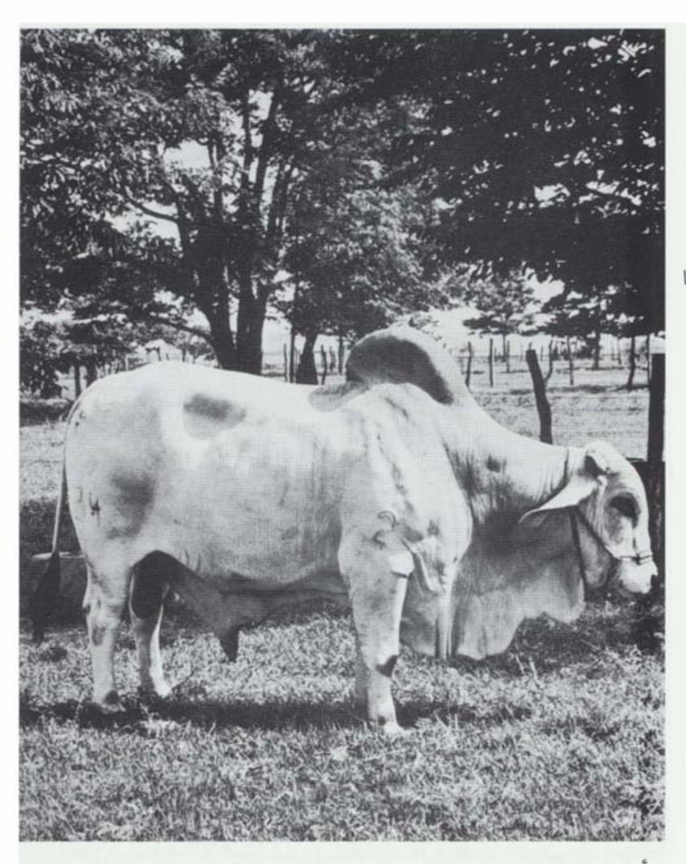
أما أستراليا فقد كانت مُصدراً كبيراً للماشية، وهي التي تنتج اللحوم في أيامنا هذه(مع 8،8 مليون رأس من الماشية التي تنتج اللحوم)، لكن بدايات هذه الصناعة لم تكن واعدة، بل يمكن القول إنها كانت تعاني من نحس أكثر مما حدث في الأرجنتين. فمع نقل أول 737 من المجرمين الإنجليز إلى بورت جاكسون في نيو ساوث

الماشية والهواسوس huasos (رعاة البقر في تشيلي) بعد جولة من تجميع الماشية. التقطت الصورة بين عامي 1890-1923



ويلز في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني من عام 1788، نقل معهم ثوران إفريقيان، وخمس بقرات تم شراؤها على الطريق في كيب تاون. ومن بين هذه الماشية، تاه في شهر آب من العام ذاته «غورغون» الثور اللافت، وأربع بقرات من أصل خمس في منطقة لا يرتفع فيها الغطاء النباتي كثيراً(clxxxvii). وفي عام 1795 عثر عليها بعد أن تحولت إلى حيوانات برية كاملة، كونها قطعت 70 كم، باتجاه الجنوب الغربي لإيجاد كلأ أكثر بهجة وألذ طعماً، واستقرت في منطقة عرفت لاحقاً بكلأ الابقار Cow Pastures. في هذا الوقت تزايد عددها وأصبح 61 رأساً.

مبدئياً عانى المستعمرون من صعوبات كبيرة في التعامل مع المناخ



ثور براهمان: رُبّي في الولايات المتحدة الأمريكية على نحوٍ خاص من أربع سلالات زيبو هندية مختلفة. تم استيراد هذه الثور إلى أستراليا بأعداد هائلة في عام 1933، ومذاك قيل عن الجينات إنها أُدخلت إلى أكثر من خمسين بالمئة من الماشية الأسترالية، ونسب إلى هذه السلالة الحفاظ على صناعة الماشية الأسترالية من الانهيار، وأنها كانت تتحمل الظروف الجوية الاستوائية الشمالية الرطبة، بالإضافة إلى ازدهارها في مناطق جافة شبه استوائية.

الأسترالي القاسي، ولا سيما القحط والجفاف. ولم يكن من الممكن تربية الأغنام ولاحقاً تربية الماشية إلى أن عُثر على كلأ أكثر جودة، ومراعٍ أفضل داخل البلاد. تعززت أعداد الماشية باستيراد سلالة الشورتهورن في عام 1825، وبسلالة هيفوردز بعد ذلك بعام.

ولتلبية الطلب البريطاني على لحوم الماشية، كانت مستعمرة أستراليا السباقة، وصاحبة الريادة في إنتاج اللحوم المعلبة كما

ظهر ذلك جلياً في المعرض الكبير The Great Exhibition في عام 1851. استخدم الإنتاج في جله مؤونة طعام للسفن، لكنه وصل بعد ذلك إلى الأسواق الإنجليزية لحوما مقددة في عام 1867. لكن الاختراق الحقيقي لصناعة اللحوم الأسترالية جاء في عام 1880 عندما شُحن أربعون طناً من اللحوم المجمدة بنجاح من لندن على سفينة سترثليفين، ما أدى إلى تأسيس صناعة التصدير، التي عادت بأكثر من مليون جنيه استرليني بحلول عام 1890 (هذا دون أن نأخذ بالحسبان صادرات لحم الضأن)[clxxxviii]. لعبت هذه الأسواق دور الحافز لمحطات ماشية واسعة النطاق تأسست في شمالي البلاد، ولا سيما في كوينز لاند التي أصبحت وما تزال «ولاية اللحوم» الرئيسة.

6- البقرة المسكينة: الدفع بالحدود إلى أقصاها

رأينا كيف أن البشر ما انفكوا يسخّرون القدرات الطبيعية للماشية؛ دفعاً بها إلى إنتاج مزيد من اللحوم والحليب والطاقة لتلبية الطلبات. أما في الغرب، وفي اقتصاد الشرق الأقصى الناشئ، فقد دخلنا في طورٍ جديد في تاريخ العلاقة بين البشر والبقرة، فساهم الإنتاج الكبيرُ في الحطِّ من قدر الماشية، وحولها إلى أشياء فحسب، دون احتكاك معها، وإن وجد فهو لايذكر.

وفي الوقت الذي كانت فيه الماشية المنتجة للحوم تربى على المراعي العشبية في أمريكا الشمالية، كُتب لها أن تنتهي في مخازن اللحوم، فكانت تُسمّن بالحبوب قبل أن تذبح. باتت سوق المستهلك الأمريكية تتطلع إلى لحوم غضة طرية، وبالتالي إلى أبقار أكثر بدانة مما يمكن أن تعطيه سلالة اللونغهورن التي نشأت على الأعشاب. والحال كذلك كان على سيرورة إنتاجِ اللحوم أن تتغير بالاعتماد على معطيات العلوم والتقانات، دفعاً بالماشية إلى المضي أبعد من مقدراتها الطبيعية. أما البقرة الحلوب، فقد خضعت لعملية الاستغلال ذاتها.

ورغم ذلك، وجد البشر أن هناك عواقب تنخر الضمير العالمي نجمت عن الإنتاج القسري وغير الطبيعي، إن نحن تحدثنا بمفردات الصحة العامة، وعن التخريب البيئي والآثار السلبية التي أضرت بخيرات الماشية.

إنتاج غيرطبيعي

لاتنفك الإعلانات عن المنتجات تهاجمنا بصور لبقرات تضحك وترقص وتسترخي في أشعة الشمس، وتسلمنا أجسادهاً طواعية. لكن هذه الصور جميعها تخفي وراءها حقيقة الاستغلال الكبير، غير الأخلاقي للحليب والعجول ولحومها.

أنتجت جينيفر إبوت، وهي منتجة أفلام وثائقية كندية ومنذ



ملصق يعود إلى الحقبة السوفيتية في أواسط خمسينيات القرن المنصرم، يروج لصناعة الماشية: بقرة حلوب توفر للبشرية حليبها بطيب خاطر... ؟

عهد قريب، صلة بين الإعلان عن المنتج، وحقيقة الإنتاج، وذبح الأبقار في فيلم بعنوان A Cow at My Table 1998. تظهر اللقطات السينمائية لترويج صناعة اللحوم، بقرة تضع نظارتين وتتكئ إلى الخلف على كومة من التبن، وتضع يداً خلف رأسها، بينما تأكل التبن باليد الأخرى. كما تظهر بقرة أخرى، تجلس منتصبة في مؤخرة شاحنة صغيرة من نوع «بيك أب» في طريقها إلى المسلخ، بينما ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها.

على البشر أن يعرفوا كيف تربّت الماشية، ذلك أننا نرى مع تطور العلوم والتقنيات، العديد من المواد التي جاءتنا من البقرة، التي نستهلكها كل يوم، وتتراوح من البضائع والسلع المنزلية إلى المنتجات الصناعية والصيدلانية. وفي الوقت الذي يُستخدم ما نسبته 54٪ من البقرة الذبيحة بوصفه لحوماً للاستهلاك البشري، وطعاماً للحيوانات المنزلية الأليفة، يُفكك ما تبقى من الهيكل (الدُّسْم

أجنّة من بقرة مؤصلة يمكن زراعتها في عدد من البقرات الناقلات، التي يمكن استخدامها كأمهات بديلات لعجول «البقرة الخارقة» supercow.

والعظام والجلودوالأحشاء) ويُذوّب، ليتحول إلى العديد من المواد الأخرى. فمثلاً تُستخدم دُسُم لحوم العجل والمواد الحامضية الدسمة في صناعة مساحيق تنظيف الأحذية وتطريتها، وأقلام الطباشير، وشمع الأرضيات، والسمن النباتي(المرغرين)، ومواد التجميل، ومزيل التعرق، والمنظفات، والصابون، والعطور، والمبيدات الحشرية، والمفارش الأرضية، والمواد العازلة ومواد التبريد[(clxxxix)].

تفقد البقرة كل فرديتها وشخصيتها، بعد اعتبارها مجموعة من منتجات نهائية، فمن السهولة بمكان أن نفهم كيف تملي الهيئات التنفيذية لشركات الوجبات السريعة، ومراكز التسوق الكبيرة، على مزارعي الماشية «وحدات الحيوان» التي يريدونها لميادين إنتاجاتهم. وبينما من السهولة نسبياً أن نكتشف كيف يتم إنتاج اللحوم، والحليب من خلال النظر إلى الصحافة الزراعية ومواقع الإنترنت، يبقى السؤال كم عدد البشر الذين يشعرون أنهم مجبرون على ذلك؟

ثمة عدد من النقاط الرئيسة تؤكد على المطالب النهائية التي فُرضت على العديد من أفراد الماشية الحلوب، ولا سيما في الولايات

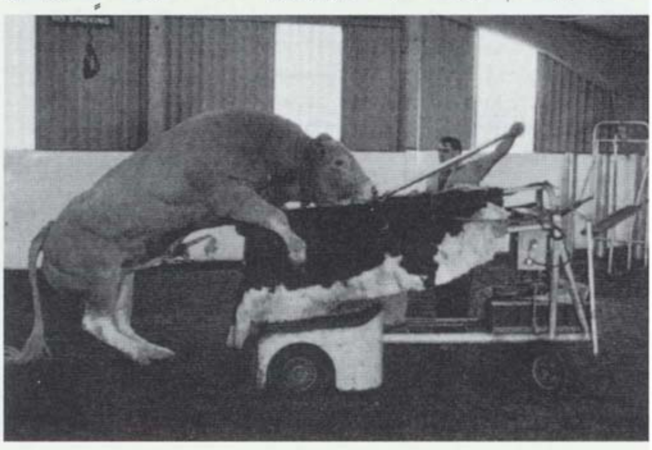
المتحدة الأمريكية، حيث تنتج أكثر من تسعة ملايين بقرة حلوبة 80،2 مليون طن من الحليب سنوياً[cxc].

وفيما يمكن عدّه خطوة أخرى تجاه تدجين الماشية، يُستخدم التلقيح الصناعي لإنجاب أبقار منتجة متفوقة جينيا، وثيران لخلق «بقرات خارقات»supercows، بغية الوصول إلى غلّة مرتفعة من الحليب.

تظهر أرقام الإنتاج في بريطانيا، أن غَلّة الحليب في المتوسط كانت ترتفع باستمرار، هذا في الوقت الذي تناقصت فيه أعداد الأبقار. ففي عام 1970 أنتجت إحدى البقرات متوسطاً بلغ 3750 ليتراً من الحليب كل عام. وارتفع هذا الرقم ليبلغ 5790 ليتراً، وأما بالنسبة لإنتاج عامي 2005/ 2006 فقد ارتفعت الغلّة إلى 6787 ليتراً في العام[cxci].

لكن، وفي الوقت الذي تطلع فيه روبرت بيكويل بخشية وقليل من المباهاة إلى التطورات في الاصطفاء الوراثي، كان هناك العديد ممن يشعرون أن مستقبل البقرة بات على المحك.

جادل عالم الوراثة ستيف جونز أن الاعتماد على عدد قليل من



هيكلٌ مغطى بجلد البقرة يستخدم لجمع مني الثور، الذي يُحوّل بعد ذلك لتلقيح آلاف من البقرات الحقيقيات دون أي اتصال جسدي فعلي.

الثيران من بعض السلالات؛ لإنجاب أبقار العالم، يعني أن جينات «الأبقار الأخرى من سلالات غير معروفة ضاعت جميعها». يذكر جونز أن ثوراً هولندياً يدعى «صني بوي» Sunny Boy مات في عام 1997 بعد أن أنجب عجوله المليونين[cxcii]. وبالرغم من أن القدماء عبدوا الثور لخصوبته وقوته، فلابد أنهم سيقفون مذهولين أمام هذه الأرقام. وهذا ما يترك البقرة في موقع خطر إن حلت الأمراض، أو حصلت تغييرات على طلبات السوق، أو إن حدثت تغييرات كبيرة في البيئة.

هناك ثمن عزيز أيضاً، تدفعه الأبقار من أجسادها أثناء إنتاجها لغلاّت الحليب المرتفعة، فعلى الأبقار أن تكدح في عملها لتمنح مسارب الغذاء في أجسادها الحليب الذي نتناوله.

تمت مقارنة معدل العمل اليومي لبقرة تنتج في الحد الأقصى 35 لتراً من الحليب يومياً برجلٍ يهرول لمدة ست ساعات في كل يوم من أيام الأسبوع[cxciii]. تُستنزَف البقرات الحلوب في فترة زمنية لا تتجاوز ثلاث سنوات، لتُذبح عندما تتناقص غلّتها من الحليب، عندها تدخل إلى السلسلة الغذائية البشرية. بالرغم من أن جُلّ المزارعين يبذلون أقصى الجهود للحفاظ على صحة ماشيتهم، فعندما تُستبقى الأبقار في بيئة غير طبيعية، صنعها الإنسان بيده، وعندما تعتمد في بقائها بشكلٍ كاملٍ على البشر، (ولا سيما خلال مبيت الشتاء أو في أنظمة مبيتٍ على مدار العام)، فمن المحتّم أن تظهر نتائج معاكسة تضر بها. أما المشكلات الصحية الرئيسة فتتجلى في العقم، والتهاب الضرع، والعرج، والاضطرابات الأيضية (الاستقلابية)، التي تسببها تغذية غير كافية، والمسكن والمَعدّات السيئة للحصول على الحليب، أو العناية الصحية المتواضعة. فعلى سبيل المثال يختبر ما نسبته من 25 إلى 55 ٪ من الماشية الحلوبة في إنجلترا وويلز في كل عام، شكلاً من أشكال العرج. كما تتعرض ضروع مانسبته من 15 إلى 20 ٪ منها إلى

ما يشبه التهاب الثدي[cxciv]. كما تخضع البقرة الحلوب إلى دورة مستمرة من إنجاب العجول وإدرار الحليب والتلقيح، ما يمكّنها من إفراز الحليب لفترة تصل إلى 305 أيام من العام. فهي تنتج عجولاً، وتعود لتحمل من جديد بعد ثلاثة شهور تقريباً. وتحمل وتدر الحليب لثمانية شهور في العام تقريبا، ثم تجف منها الضروع لشهرين قبل أن تنجب عجولاً من جديد.

ثمة ضغط آخر على الأبقار الأمريكية الحلوبة، فيمكن أن ترتفع غلّتها من الحليب بنسبة 10-15 ٪ على الأقل من خلال حقنها بهرمونات بقرية مُعدلة وراثياً تسمى RECOMBINANT BOVINE SOMATOTROPIN RBST وتساعد على نموها. وبالرغم من وضع هذا الهرمون في السوق منذ عام 1994، فقد حُظر في دول الاتحاد الأوروبي منذ عام 1990 ولأسباب اقتصادية في الأساس أكثر منها أسباباً تتعلق بالرفاهية، ذلك ان غلاّت الحليب الإضافية تخفض من أسعار الحليب.

زراعة الأطعمة السريعة: صحة الإنسان

في الوقت الذي ندفع فيه البقرة الحلوب إلى إنتاج عشرة أضعاف كمية الحليب التي يمكن أن تدرها لعجلها، فإن حياة بقرة تنتج اللحوم على نحو كبير تعد أقل تأذياً. تميل الفضائح التي يثيرها ناشطو الحملات والصحافيون، التي تتناول مخازن اللحوم الأمريكية، إلى التركيز على الماشية التي تعيش في بيئة قاحلة مجدبة غير ممتعة (للأبقار طبعا)، ولا سيما بعد أن تكون قد قضت قسطاً من حياتها على مراع عشبية.

أما القضية الرئيسة بالنسبة للجمهور، رغم ذلك، فهي التهديد الذي يعيه الجميع، الذي يطال صحة الإنسان من إنتاج لحوم في ظل ظروف مخازن اللحوم، ولا سيما انتشار عصيات إي كولي 0157:7 E. coli 0157:7

لقد أثار كشف إيريك شلوزر عن الأساليب المستخدمة في إنتاج اللحوم الحديثة التي تلبي متطلبات مستهلكي الوجبات السريعة، الكثير من الغبار في عام 2001 عندما نشر كتاب Fast Food Nation لأول مرة (بعد ذلك أعيد ترتيبه، ونشر من جديد للمراهقين في عام 2006 بعنوان Chew on This)

زار شلوزر مخزنين كبيرين للحوم تابعين لشركة كون أغرا للحوم ConAgra Company في كل من غريلي وكولورادو، وهي واحدة من الشركات الكبيرة التي تورد الأطعمة السريعة إلى شركات أخرى. كان كل مخزن منهما يتسع لـ100000 رأس. «تُحشر الأبقار حتى تبدو كأنها بحر من الماشية، كتلة هائلة من فراء أبيض وبني تخور وتتحرك وتمتد إلى فدادين»[cxcv].

مخازن اللحوم تلك كانت عبارة عن مواقع إسمنتية مسيّجة مع معالف تمتد على طول أحد الجوانب، تُمرَّر إليها الآلات وجبات التسمين التي تتألف من الحبوب ومواد إضافية، نتجت عن عمليات تصنيع مواد أخرى. لقد جاءت الماشيةً من المراعي إلى هذه البيئة غير الطبيعية، حيث احتشدت وعجزت عن ممارسة حياتها على نحوٍ ملائم. يصفها شلوزر أنها تقف في برك من الوحول والسماد التي تختلط مع العلف والماء. تضيف جينا مالّي التي تكتب زاوية الطعام وزاوية تقييم المطاعم في صحف مدينة تورنتو، إلى قائمة الرعب التي تدخل إلى غذاء الماشية التي تنتج لحوماً:

«تُعطى الماشية مضادات حيوية ضد الأمراض وهي تساعد في نموها أيضاً. كما تُسمّن بمزيج من بروتينات يتألف من فضلات المطاعم، وأغذية حيوانات منزلية انتهت صلاحيتها ومخلفات الدجاج صادق عليها قسم الأغذية والأدوية الأمريكي. كما يُمزج رذاذ دماء الأبقار والخنازير الجافة بمياه سقاية الماشية»[cxcvi].

في ظننا أن هذا يكفي ليبتعد المرء عن تناول شطائر لحوم



واحد من أسوأ الأماكن في الولايات المتحدة الأمريكية. فرائحة النتانة التي تخرج من مخازن اللحوم التي تقع على الطريق بين بوفينا وهيرفورد في تكساس فظيعة وتغطي الأجواء كلها.

العجل....... أليس كذلك؟ نستطيع القول إنه ليس من جديد في هذه المخاوف التي تتصل بسلامة تناول اللحوم المعالجة. فقد نُقل عن أحد الموظفين السابقين في أحد المسالخ في عام 1898 قوله: إنه رأى «آلافاً من الحيوانات المريضة العرجاء المتقدمة في العمر ذات المظهر المنفر تساق إلى الذبح....... لحومها تلك كانت تغلى وتعلب كلحوم مقددة»[cxcvii].

اشتدت الضغوط على صناعة الماشية الأمريكية دفعاً باتجاه حظر كامل على إطعام الماشية ما يعاد تصنيعه من بقايا الحيوانات، ويعودُ ذلك أساسا إلى ظهور مرض الاعتلال الدماغي الاسفنجي بقري المنشأ، أو مايعرف بـBSE وهو المرض ذاته الذي أوقف صادرات اللحوم البريطانية وهي في طريقها إلى الخارج. كانت قد لفتت الرأي العام إليها.

تم تعقب سبب انتشار المرض في بريطانيا، واقتفيت آثاره إلى مركبات من اللحوم والعظام المطحونة التي صنعت من هياكل عظمية فاسدةولايمكن بيعها من خرفانٍ كانت تطعم للماشية كمصدر بروتيني زهيد الثمن. ودون علم المزارعين تغيرت سيرورة تحويل هذه الهياكل في عام 1982 للتخفيف من التكاليف[cxcviii]. سمح هذا لبروتينات مصابة بالعدوى، أو شاذة تطلق تفاعلات متسلسلة على أن تحيا في العلف.، لذلك وحالما تدخل إلى جوف البقرة تطلق سلسلة تفاعلات تحول البروتينات الأصلية إلى أخرى مؤذية تتكاثر وتسد الدماغ، وعند هذه النقطة أعلنت «البقرة المجنونة» عن وصولها وجاءت معها بجنون البقر.

شُخّص مرض جنون البقر لأول مرة في الماشية في عام 1986، وفي غضون سنتين أفيد عن وجود آلاف الحالات في أكثر من مئتي

ماشية أحرقت في عام 1996 في مسعى للتخلص من أي مخاطر محتملة من دخول مرض الاعتلال الدماغي الاسفنجي إلى السلسلة الغذائية البشرية، بعد تسجيل أولى حالات من مرض متغيرة كروتسفيلد- جاكوب.



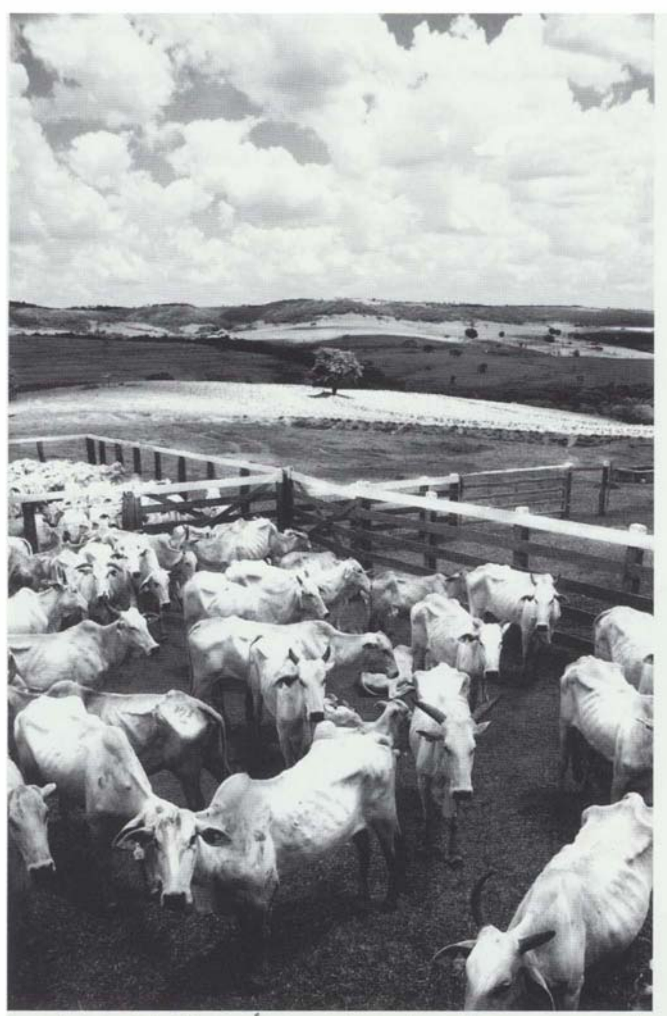
قطيع. وبحلول عام 1996 قالت الأرقام الرسمية بما مجموعه 168317 من الحالات المؤكدة . في الواقع ربما وصل العدد إلى أكثر من 700000 رأس أصيب بالمرض في المملكة المتحدة[cxcix]. أما القائلون بنظرية المؤامرة، فقد زعموا أن الحكومة أرادت أن تخفي العدد الحقيقي للماشية المريضة، ذلك أنه بات من الواضح في عام 1996 أن البشر كانوا يُعتّلون ويموتون جراء تناولهم اللحوم المصابة التي تحمل العدوى، ما نتج عنه مرض متغيرة كروتسفيلد- جاكوب.

كَبُرَ ذُعراً عند الجماهير، أن يشتد المرض فاحتدم غضبها. وتحولت تغطية وسائل الإعلام من الصور المثيرة للشفقة التي تبرز أبقاراً حلوباً مترنحة إلى صور إحراق جميع الماشية التي تم تشخيصها بمرض BSE، وتلك الحيوانات التي تجاوز عمرها الثلاثين شهراً، التي كانت معرضة لمخاطر توسيع رقعته.

لسوء حظ البقرة، وكنتيجة محضة لتدخل البشر في غذائها، عانى الناس من أول كارثة جماعية كبرى تنتج عن الاحتكاك فيما بينهم. ففي غضون عقد من الزمن حصد مرض متغيرة كروتسفيلد –جاكوب 158 من الأرواح البشرية في بريطانيا[cc]. وبسبب فترة الحضانة الطويلة له، وما أشيع عن مقدرته في الانتقال عبر عمليات نقل الدم والأدوات الجراحية، فاحتمال أن يبقى من هم على قيد الحياة من البشر، مهددين المرض حتى بعد وقتٍ طويل من استئصاله من الحيوانات.

البيئة: جراد بحوافر وملوثات واسعة النطاق

صوّر أنصار البيئة مزارعي الماشية وماشيتهم أنهم شياطين؛ بسبب تحويلهم غابات أمريكا اللاتينية البكر إلى أرض متآكلة يباب. قدّرت منظمة الفاو FAO أن مساحات منطقة الغابات، والأحراش في أمريكا الوسطى تراجعت بنسبة 40 ٪ في السنوات الأربعين الماضية، في الوقت الذي كانت فيه مساحات الكلأ تنمو على نحو سريع لتلبية



ماشية نيلور ترعى على أرضٍ كانت فيما مضى قسماً من الغابات المطرية للساحل الأطلسي في جنوب شرق البرازيل. الماشية تنتظر أن تلقح ضد مرض الفم والقدم.

حاجات الماشية المتزايدة.

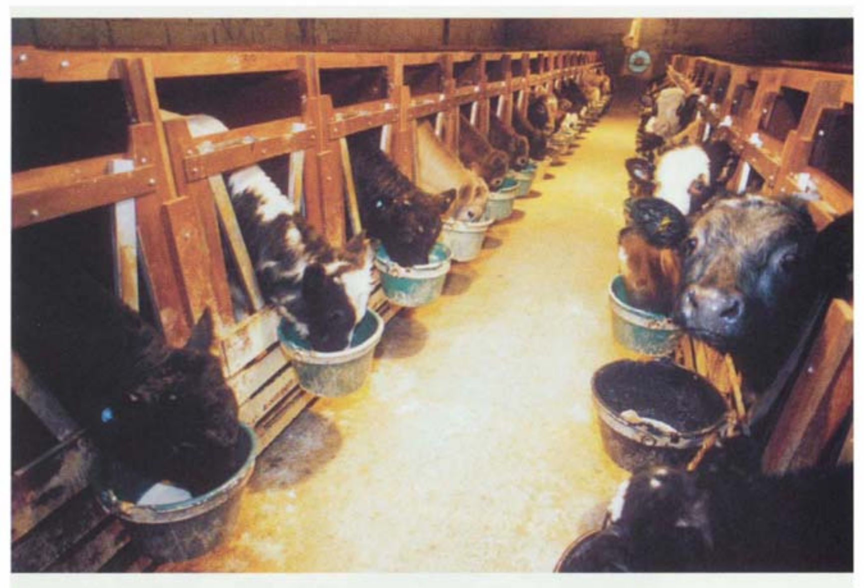
تنبأت الدراسات أن الماشية بحلول عام 2010 سترعى على مساحات تتجاوز 24 مليون هكتار من أرض كانت غابات في عام 2000. وأنّ ثلثي الأرض التي فقدت غطاءها النباتي ستتحول إلى مراع للكلأ[cci].

كما شجب أنصار البيئة استخدام الحبوب التي لا طائل منها، التي تُطعم للحيوانات التي تنتج اللحوم، في الوقت الذي يتضور فيه العالم جوعاً، هذا بالإضافة إلى معالجة الأسمدة، والتي إن لم تتم على نحو صحيح تتسبب في تلوث الهواء والماء والتربة.

يذكر شلوزر أن ثوراً صغيراً يستهلك أكثر من 3000 ليبرة من الحبوب خلال ثلاثة شهور من إقامته في مخزن للحوم سيكسب 400 ليبرة في وزنه. وأما فضلاته فتبلغ 50 ليبرة من البول والسماد في كل يوم تُترك في برك صغيرة دون أن تعالج[ccii].

هموم يحملها البشر حيال الماشية

بالرغم من عدم عناية الرأي العام بخير الماشية وصالحها، في أنظمة الزراعة الجائرة (إلا حينما تتعرض حياة الإنسان للتهديد)، يتسبب الإنتاج الكثيف للحوم العجول بحالة كبيرة من القرف للعديد من البشر. تكمن غاية من ينتج اللحوم بكثافة في أرجاء العالم في وضع العجول الصغيرة (عادة من الذكور التي تربى على الحليب بما أنها فائضة عن الحاجة) في أقفاص، تعجز فيها عن استهلاك أية طاقة، كما تعجز عن تنمية أية عضلات، وذلك لإبقاء لحومها غضة طرية. كما تحرم هذه العجول من المياه العذبة، بدلاً من ذلك تروي عطشها حليباً وبكميات كبيرة. كما تُحرم من الغذاء الذي يحتوي على ألياف كي تبقى لحومها بيضاء (فالعلف غنيّ بالحديد ما يجعل من اللحم يميل إلى اللون الأسود). تبقى العجول في هذا السجن لمدة ستة عشر أسبوعاً، وأحياناً في عتمة كاملة.



أقفاص العجول مثل التي تم تصويرها في فرنسا في عام 1995 (كانت العجول تشحن من بريطانيا)، حظرت الآن في دول الاتحاد الأوروبي وفي ولاية أريزونا الأمريكية.

تطور إنتاج لحوم العجول بداية في هولندا، لكنه سرعان ما انتشر في أرجاء أوروبا. أكدت الكاتبة المشهورة السيدة بيتون في كتابها Book of Household Management (1861) على الممارسات التي استخدمتها إنجلترا للحفاظ على بياض لحوم العجول، ووصفت إراقة الدماء اليومية التي تتعرض لها العجول الذاهلة «بالعمل المخجل والمتوحش» وذلك للإبقاء عليها مصابة بفقر الدم» ما يبهج أذواق البشر اللذائذية أصحاب الشهية الفاسدة [cciii].

أما الاشمئزاز ذاته فنراه لاحقاً في أول إماطة للّثام عن «الصناعات الزراعية البريطانية» في كتاب روث هاريسون Animal Machines (1964)، رغم الكف عن إراقة دماء العجول. فقد وثقت روث حالة العجل المستضعف ذي العينين البنيتين، رهين قفص معتم وصغير. وأما الفيلسوف الأسترالي بيتر سينغر فقد وصف صناعة العجول التي تتطلع إلى نوعية جيدة، أنها الأكثر قرفاً على الصعيد

الأخلاقي من بين الصناعات الزراعية جميعها:

«.... تمثل هذه الصناعة، تطرفاً شديداً في درجة الاستغلال التي تخضع لها الحيوانات، وفي فشلها كأسلوب في مدّ البشر بالغذاء»[cciv].

أطلقت حملات مدافعة عن حقوق الحيوان في إنجلترا العنان لمشاعرها، ووصلت ذروتها في 1995، وبالرغم من حظر استخدام أقفاص العجول في بريطانيا في عام 1990، شُحن ما قارب 436000 رأس من العجول البريطانية في عام واحد إلى كلٍ من هولندا وفرنسا. وثّقت أمينة (قيّمة) مكتبة في أواسط العمر من مدينة برايتون، ردة فعلها لدى رؤيتها العجول تصل في شاحنات إلى محطة العبارات في سيفورد في سَسيكس: اقشعر بدني خوفاً، فالمشهد ذكرني بشاحنات المواشي النازية»[ccv]. وفي عام 1995 ماتت امرأة سحقاً تحت عجلات شاحنة تنقل العجول إلى مطار بريتون بالقرب من كوفنتري، ثم إلى هولندا.

من المفهوم أن تثير العجول مثل هذه المشاعر في مجتمعنا المثقّف المتحضّر، فعيونها السود شبه الدامعات تشبه عيون أطفال حزانى. ولا غَرو، فقد حمل الأطفالِ المحتجون في الموانئ لافتات صنعوها في بيوتهم ورسموا عليها عجولاً وكتبوا عليها شعار: «أريد أُمي»[ccvi].

نقل الماشية : السر، الجانب المظلم

لم تكن العجول هي الوحيدة التي دفعت إلى نداءات التعاطف والرحمة، وإنما هناك أيضاً الماشية التي كانت تنقل وتذبح بشكلٍ عام. في تلك الأوقات كانت الماشية واقعة تحت رحمة البشر الذين لم يكونوا، في معظمهم طبعا، هم من رباها أو اعتنى بها.

أما أبشع الإساءات والأذية وربما أفظعها، فتوثقها صور فوتوغرافية، أعضاءٌ متخفون ينضوون تحت حملات تدافع عن حقوق الحيوان، وتبث إلى العالم عبر الإنترنت. فعلى سبيل المثال قامت

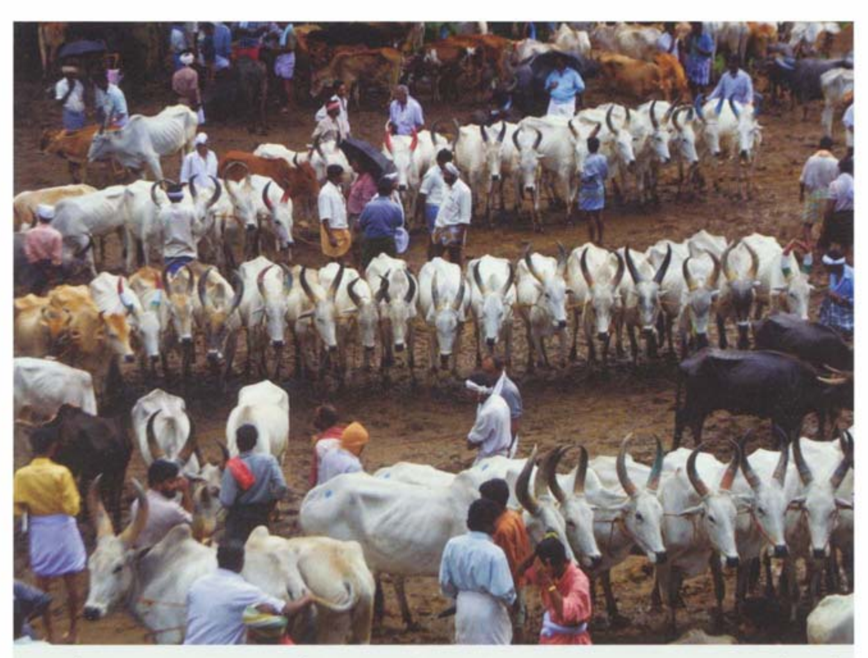
منظمة «أنيمالز أستراليا Animals Australia بحملة ضد تصدير الماشية الأسترالية بحراً إلى مصر، حيث تذبح هناك على نحو غير إنساني، برغم التأكيدات التي تقول غير ذلك [ccvii]. ورغم أن صور هذه الممارسات مروعة، فإن المتورطين فيها لا يجدون غضاضة في الطريقة التي يعاملون فيها الماشية، فمن الواضح أنهم ينظرون إليها أنها مجرد أشياء.

ربما ما أقلق عيون الغرب والهندوس والجانويين والبوذيين، أكثر من غيرهم هي «مسيرة الموت» [1]، التي قطعتها الماشية الهندية إلى المسالخ حيث كانت تقتل للحصول على جلودها. وركزت الحملة التي قامت بها منظمة «بيبل فور ذ إثيكال ترتمنت أف إينمالز People for the Ethical Treatment of Animals PETA على معاملة البقرة المقدسة الهندية في فيلم حمل عنوان Skins Trade لعبت دور الراوية فيه باميلا أندرسون لي [ccviii].

تقارب صادرات جلود الماشية الهندية مبلغ 1،7 بليون دولار أمريكي، أما الأسواق الأضخم لها فهي ألمانيا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية. ورغم وجود تشريعات راسخة في الهند تقف إلى صالح الماشية وخيرها، «فإن الرِّشى والفساد» التي اشتركت في هذه التجارة، أدت إلى أن يغض المسؤولون الطرف عن بعض المشاهد المزعجة. فقد كانت الماشية تقضي على الطريق، جرّاء الأذية المروعة التي لحقت بها.

وفي الوقت الذي يراقب فيه الجمهور «المتحضر» بقرف شديد ما يرتكبه الإنسان من خطايا وآثام بحق الحيوان، لابد من القول إن المملكة المتحدة «المحبة للحيوانات» كانت قد اشتهرت ذات مرة بوحشيتها تجاه الماشية، رغم أنها أيّ «المملكة المتحدة» تشهد في هذه

(1) Death march ربما كانت إحالة إلى مسيرة الموت التي قضى فيها كثير من الأسرى الأمريكيين على يد القوات اليابانية في الحرب العالمية الثانية، (المترجم).



ماشية هندية تُباع إلى جزارين على الجانب التاميلي من الحدود في نادو / كيرالا، وهي واحدة من ولايات قليلة في الهند، يمكن شراء لحم العجول منها، ويعود ذلك إلى وجود عدد كبير من المسيحيين فيها.

الأيام أعلى معايير الرفق بالحيوان في العالم. وجاءت أول حركة هدفت إلى حماية الحيوان في إنجلترا تحت مسمى «ذِ ليفربول سوسيتي فور برفينتنغ وانتون كرويلتي تو بروت إينمالز»، التي وضعت نصب أعينها الحد من وحشية تجار الماشية في عام 1809.

مشاهد مماثلة شهدها سوق سمثفيلد في لندن، الذي مازال في موقعه القديم منذ العصور الوسطى. كان سمثفيلد معبراً للشوارع والطرق العامة، دب فيه الازدحام والضوضاء في بدايات القرن التاسع عشر. وقّع مزارعون ورعاة ماشية وجزارون وأفراد من الشعب التماساً، عرضوه على مجلس الملك في عام 1808 لنقل السوق إلى موقع جديد مدفوعين بالأسباب التالية:

تتعرض الماشية في الغالب لجروح وكدمات، وأحياناً تصاب

بالعرج، وتسحق بعضها بعضاً بالأقدام حتى الموت في أحيان أخرى، وذلك بسبب حشرها ساعات طويلة في أماكن مزدحمة في السوق. فالبعض منها تشوه أو أصيبَ بالرضوض والكدمات بطريقة بشعة بفعل العربات أو الكرّاجات التي تعبر المكان خلال ساعات التسوّق، ما يشكل صعوبة لانتقال المشترين بين البهائم لمعاينتها دون أن يتعرضوا إلى أذيّة جسدية خطيرة»[ccix].

في ظل هذه الظروف الصاخبة الخانقة، كان من المحتم أن تُضرب الماشية المتعبة الذاهلة المذعورة بقسوة لسوقها إلى البيع، ثم إلى مصيرها الذي يتربص بها في المسالخ التي تحيط بسوق سمثفيلد. وحتى في تلك الأيام كان النوم يجافي السكان المحليين «فأصوات الضربات المريعة التي تنزل بالماشية كانت تشق صمت الليالي وتصل إلى غرف النوم»[ccx]. قيل إن أولئك الذين باعوا ماشيتهم للسوق، لم يتعرفوا عليها بعد أربعة أيام من وجودها في المدينة.

«مشهد ليلي لسوق سمثفيلد» لندن عن أحد أعداد مجلة «إينيملز فرند» 1838. تظهر في يسار الصورة الحيوانات المتعبة التي افترشت الأرض متعرضة للضرب لتتابع سيرها.



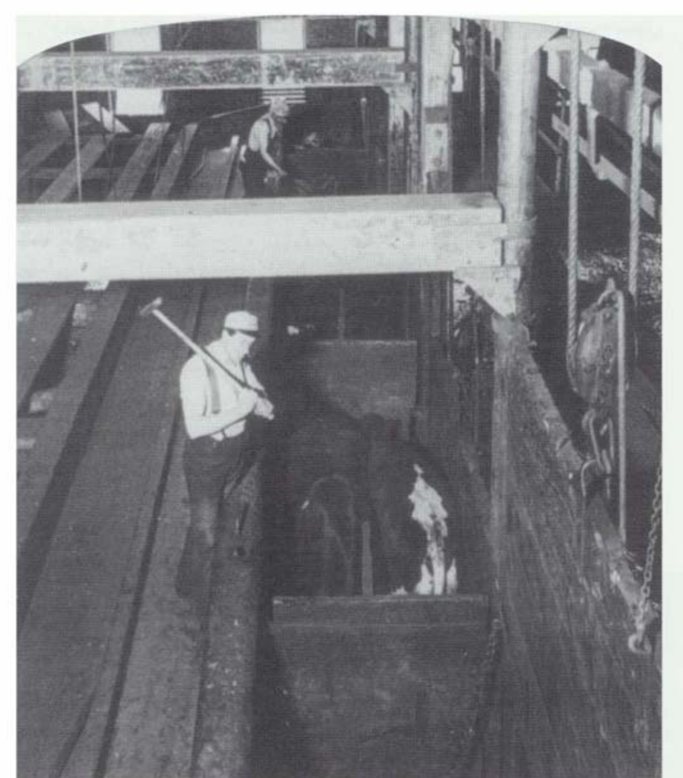
أخيراً تشكلت لجنة ملكية في عام 1849 للبت بمصير سوق سمثفيلد الذي أغلق في عام 1855 ليفتتح بعد ذلك سوق ميتروبوليتان للماشية في إيزلغتنون مستفيداً من السكك الحديدية، ما أتاح للماشية أن تقطع مسافة قصيرة إلى المزاد دون أن تعبر شوارع لندن.

تمثلت الوحشية الجلية التي يمارسها تجار الماشية على قطعانهم، عند المقارنة المباشرة مع التعامل الذي كانت تتعرض له تلك الحيوانات خلف أبواب مغلقة سواء أثناء نقلها بحراً أم في المسالخ. ويعود الفضل إلى «رويال سوسيتي فور ذِ برفنشن أف كرولتي تو إينيملز» RSPCA ولا سيما لمنظمة «هيومانيتاريان ليغ «الحلف الإنساني»، التي فضحت المظالم التي كانت تحل بالماشية ليل نهار باسم التجارة المقدسة[ccxi]. وصف الحلف، على شكل كراسة، أهوال المسالخ الخاصة[ccxii]، والطريقة التي كانت تنقل فيها الماشية بحراً من إيرلندا وأمريكا وكندا.

وقالت تقارير لشهود عيان (وهما مؤلفا الكتابين Cattle Ships and our Meat Supply 1894، أنها تكفي لتجعل من الإنسان نباتياً. ثمة فصل بعينه طلب إلى القراء أن يتخيلوا أنفسهم، وهم على السفن خلال ليلة عاصفة، ويعبرون البحر انطلاقاً من إيرلندا:

مركب يتمايل ويتقافز فوق البحار. في مخزنهوتحت السطح قبعت حيوانات منهكة مذعورة بأقدام زَلقة، زعزعها الخوف تكاد لا تثبت في مكانها، في ظلمة تكاد تلف المكان[ccxiii].

يشير المؤلفان إلى أن الماشية وقبل أن تصل إلى هذه المرحلة، كانت قد سيقت إلى الموانئ بوحشية، وبقيت ساعات دون تبن أو ماء (أو ربما أيام)، ووسمت بعلامة تجارية. ولكي يُصعدوها إلى السفينة، ثم إلى المخزن، ضُربت وحملت إلى الأعلى، ثم إلى أسفل ممرات زَلِقة شديدة الانحدار. وفي الغالب يكون الرجال القلائل المسؤولون



عمليات الضرب التي تتعرض لها الماشية الذاهلة قبل الذبح. Swift and في 1906 Co›s Packing House شيكاغو.

عنها إما سكارى، أو تمكن منهم دوار البحر. وهم في الغالب من فئة اجتماعية خرقاء لا مبالية، وأما عملهم فيميزه الشذوذ، ويميل إلى الوحشية»(ccxiv).

وفي الواقع كان الجزارون، هم من دفعوا إلى تحسين الظروف على المراكب الإيرلندية التي تنقل الماشية، بسبب الكدمات والرضوض التي ظهرت أذيتها على نوعية جلودها وهياكلها العظمية. لكن الدليل على الأضلاع المسكورة والسيقان كان في إنجاب الأبقار لعجولها

أثناء نقلها وفي حالة من فقدان البصر بسبب الأبخرة الأمونية التي تملأ المخزن. ذلك كله دعا إلى سن قوانين وتشريعات.

الذبح

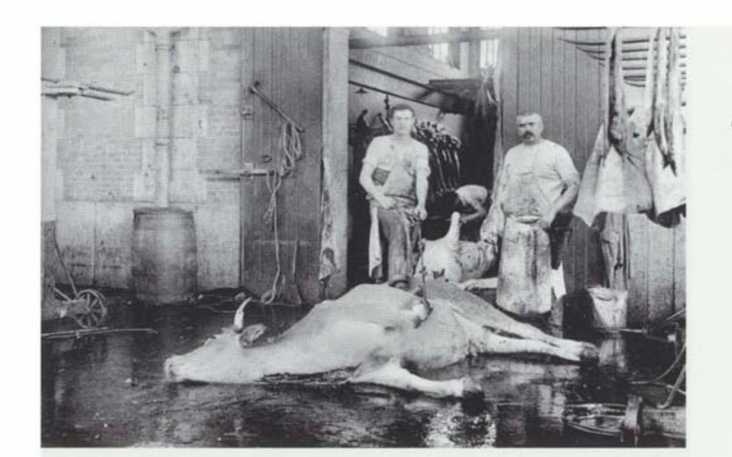
كانت الماشية الحية التي تصل إلى الأراضي الإنجليزية منذ عام 1861، تذبح في مسالخ ديبتفورد سيئة الصيت[ccxv]. كما كانت ظروف ذبح أخواتها في شيكاغو على القدر نفسه من البشاعة.

يمكننا أن نُكوّن فكرة عن فناءات الماشية في شيكاغو من خلال مشهد كلامي رسمه الروائي الأمريكي أبتون سنكلير، في روايتهThe Jungle 1906، الذي كشف فيه عن خفايا صناعة اللحوم هناك.

زار سنكلير شيكاغو في شتاء 1904 حيث عمل هناك لفترة قاربت أسابيع سبعة، وشهد ماكان يحدث في فناءات الماشية:

امتدت الساحات على أكثر من ميل مربع، تشغل نصفها حظائر الماشية. وأنى ابتعد نظرك شمالاً أو جنوباً، سترى حظائر ماشية باتساع بحر. اكتظت جميعها بكثير من الماشية، حتى يكاد المرء لا يتخيل وجود هذه الأعداد في أي مكان من العالم. ماشية حمراء وأخرى سوداء وثالثة بيضاء ثم صفراء. منها من تقدم به العمر وكَبر، ومنها مازال فتياً. وهناك ثيران مهولة تخور، وعجول صغيرة لم تمض على ولادتها سوى ساعات. بقرات حلوبة يطفر من عيونهن الصبر والحلم، وثيران صغيرة ضارية بقرون طويلة من ماشية تكساس. أما أصواتها، فبدت كأنها أصوات كل حظائر الكون مجتمعة. وإن أراد المرء أن يحصي الحظائر فقط، فسيتسغرق يوماً كاملاً[ccxvi].

ومن حظائرها تدفع الماشية إلى ممرات بعرض خمسة عشر قدماً إلى مزالج انتصبت فوق الحظائر، والتي كانت تنقل وعلى نحو متواصل أعداداً من ماشية غافلة عن حتفها، «إنه نهر موت بامتياز»[ccxvii]. لقد ورط سنكلير حساسيات قارئه بوصفه لعمليات



إراقة دماء البقرة
بعد أن تموت،
مسلخ فيلي. باريس
.1907

جلود مدلاة وإحداث
شقوق في الذبائح في
قسم اللحوم في
Swift and
Co›s packing
.House 1906

قتل الماشية الفعلية (وفعل ستيرشي الأمر ذاته في روايتهThe Cow) وأبدى الرجل إعجابه بمهارة العمال، والسرعة التي يتم فيها التخلص من الماشية:

«على طول جانب من المكان يمتد ما يشبه شرفة تبتعد عن الأرض بضعة أقدام، وفيها كانت الماشية تساق من قبل رجال يحمل كل منهم مهمازاً يصعق الماشية بالكهرباء. وحالما تتجمع الماشية في هذا المكان، يُقفل على كل حيوان منها في حظيرة منفصلة ببوابات تغلق دون أن تترك أية مساحة تمكنها من الحركة، أو الاستدارة. وبينما هي تخور وتندفع، يتحين رجل مسلح بمطرقة يقبع في أعلى كل حظيرة، الفرصة ليسدد ضربته، وهنا يتردد في المكان صدى الضربات المكتومة بتتابع سريع، وأصوات حوافر الثيران الصغيرة تسحق الأرض وترفسها[ccxviii].

بعد أن تفقد كل بقرة وعيها ضرباً، يأتي رجل آخر ويرفع عتلة البوابة، وهنا يرتفع كل جانب من جوانب الحظيرة، ما يسمح للحيوان المترنح الذي ما انفك يرفس، أن ينزلق ويسقط في سرير الموت. وهنا يأتي رجل ثالث يثبت إحدى قوائم البقرة الخلفية بالقيود ويرفعها رأساً على عقب فوق سرير القتل. ثم يأتي الجزار ليشق حنجرة البقرة، وتُترك تَنزف لعدة دقائق ما يكفي ليدوخ المسؤول عن الضرب، خمسة عشر إلى عشرين حيواناً تنتظر حتفها.

المسالخ في أمريكا الحديثة أمكنة مختلفة مذ استقدمت تشريعات لصالح الحيوانات، رغم أن مخاوف فيما يتصل بذلك باقية حتى الآن. يصف إريك شلوزر أحد المذابح في هاي بلينز من دون أن يسميه، يعالج 5000 رأس من الماشية كل يوم. يبدو أن الضغوط والشِّدة التي تمارس على الماشية هنا أقلُّ وطأة، بما أنها تصل إلى مدخل المسلخ بعد أن تكون قد قطعت مسافة على طول زرائب صممت خصيصاً لهذه الغاية، ويرسل بها عبر قناة إلى نسق

واحد[ccxix]. تمشي الحيوانات خبباً عبر قناة ضيقة إلى المسلخ غافلة عما سيحدث لها. وحالما تصل إلى المبنى، يُغلق عليها ببوابة، وهناك وبدلاً من استخدام المطارق الثقيلة، يقف المسؤول عن ضربها على مسافة فوقها، ويطلق سهاماً قصيرة صاعقة على جبهاتها.

وبينما تصل إمكانية مصانع تعليب اللحوم في شيكاغو إلى ذبح ما يقارب خمسين رأساً من الماشية في الساعة الواحدة، فإن المصانع الحديثة تقتل 400 منها في الساعة (بمعدل ستة رؤوس في الدقيقة الواحدة). من الصعوبة بمكان أن نضمن أن تصعق كل بقرة على نحو مناسب، عندما يتم التعامل مع مثل هذه الأعداد الضخمة.

الخطيئة والأخلاق

ربما لأننا كنا على علاقة لصيقة مع الماشية ذات مرة، ينتابنا إحساس بالذنب عندما نقتل ماشية مفيدة (انظر bouphonia في الفصل الرابع). استفاد المعلقون وأنصار النزعات الإنسانية من الطريقة التي تُعامل بها الماشية بوصفها أشياء، كمجاز للطريقة التي يعامل بها المجتمع بعضاً من شرائحه، أي من بني البشر.

رغم أن مفردة «ماشية» استخدمت تاريخياً لوصف كل ما يدب على الأرض من حيوانات أليفة، يعتقد المنظر السياسي جمس هرنغتون (1611-1677) أنّ الإسكوتلانديين كانوا مضطهَدين؛ لأنهم لم يكونوا بأفضل حال من ماشية النبالة إلا قليلاً، وفي الحقبة الفيكتورية عُدّ «وقوف الرجال والنساء في حشود كالماشية لدى معاينتهم في أسواق العمالة الموسمية[ccxx] ممارسةً بربرية». في وقتنا الراهن نستخدم مفردة «سوق الماشية» عادةً لوصف ملهى ليلي، حيث يذهب الرجال ليحدقوا بعيونهم إلى النساء المثيرات، أو للعثور على شريك يقضي معهم ليلة حمراء.

تشي روايتا سنكلير The Jungle وستيرشي The Cow بتماثل يصل إلى حد التماهي بين صورة البقرة المظلومة والشخص المظلوم.

تحمل الروايتان رسالة أخلاقية تتعلق بالجور الاجتماعي، وتأثيرات الإنتاج الرأسمالي التي جردت الناس من إنسانيتهم. فنرى في رواية The cow أن ستيرشي استخدم مصير البقرة بلوش كنظير مباشر لمصير أمبروسيو، وهو مهاجر يعمل في المسلخ. بعد سبع سنوات من الكدح يجد أمبروسيو نفسه يقتل الحيوان الذي أعجب به ذات مرة، أي أن البشري الذي دمره العمل الشديد، والبقرة التي قوض إنتاج الحليب المعاصر أسباب وجودها، هما الشخص ذاته:

«ياللعجب! ذلك الجسد الهزيل الذي جُرّ وأُخرج من حافلة الماشية إلى الرصيف، والذي خار بحزن في غشاوة الصباح، هو جسد أمبروسيو نفسه. فجراح بلوش كانت جراحه، وبريق جلدها ومجده (تعود على كلمة جلدها) الضائع كانت خسارته أيضاً. وأما الأخاديد والتجاعيد العميقة بين ضلوعها، والحفر التي بحجم قبعة على وركيها، فقد حُفرت في لحم جسده. فما أخذ منها أخذ منه أيضاً. عرجها وتلكؤها وترددها، ذلك كله كان هو. إنها أمبروسيو في رسن. نعم لقد سخر من بقرات نوشيل لهمودها ودعتها. لكن الكشف عن طاعة تامة، وانصياع وخضوع وخوار لا مبرر له والذي شهده على الرصيف، شهده في نفسه أيضاً. وهذا ما جعله يشمئز من نفسه. ففي صباح ذلك الثلاثاء تعرف إمبروسيو في بلوش على نفسه»[ccxxi].

وبمثل ذلك، يُظهر فيلم الرسوم المتحركة التشيكي (يعرف هناك باسم ساميزدات) المناوئ للحكومة في تسعينيات القرن المنصرم، امرأتين تحدقان بحزن إلى مزرعة تنتج لحوماً ومواد أخرى، تعج بالأبقار. تقول إحداهن «أذكر تلك الأيام عندما كان للبقرة روح». أضافت المرأة الثانية «نعم وكذلك نحن»[ccxxii].

انتشر المجاز الذي قال إنّ البشر والعبيد ماشيةً منذ زمن طويل. فالعبيد من السود كانوا يوصفون بـ«الماشية السوداء»، أما الحرب

التي وصفها الشاعر ولفريد أوين (1893-1918) في قصيدة له Anthem for Doomed Youth فترينا جنوداً شباناً يمضون لمواجهة بنادق العدو، مثل ماشية تمضي إلى الذبح:

أيّ أجراس تقرع لأولئك الذين كالماشية؟

ليس هناك سوى غضب البنادق المتوحش[ccxxiii].

تؤكد براءة الجنود الذين حُشدوا كقطعان وتبع أحدهم الآخر دون نقاش إلى موت أكيد، على سهولة التخلص من البشر، دون التفكير بإنسانيتهم أو فرديتهم.

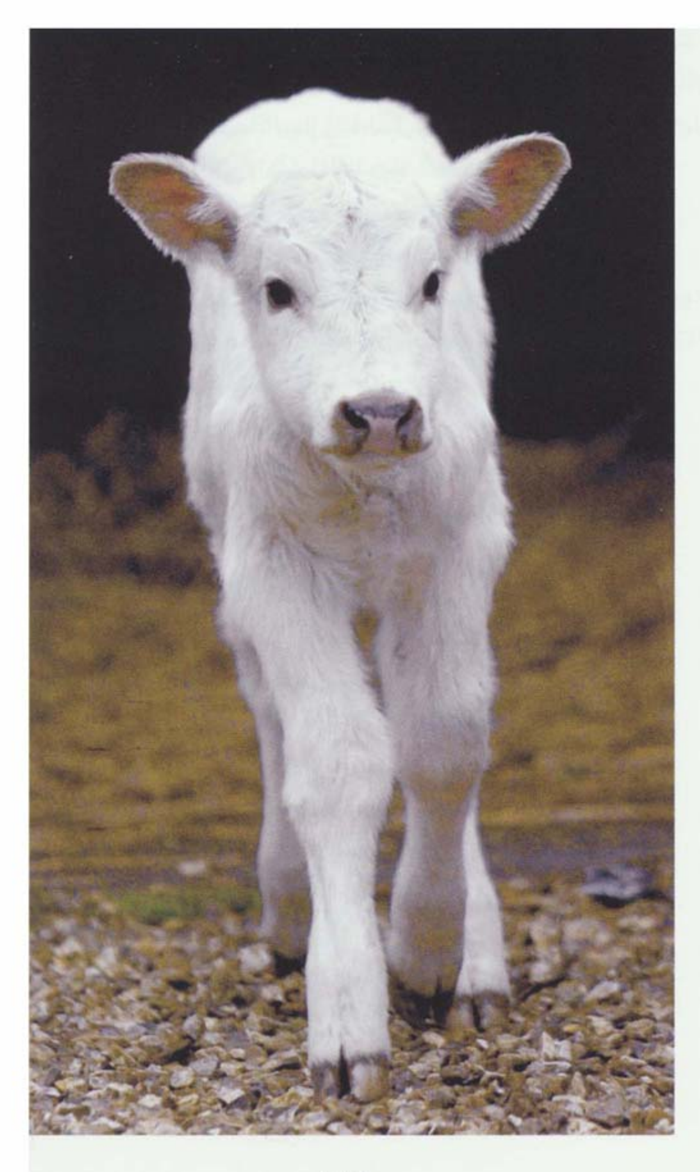
خاتمة: هل صحيح أن من يبتعد عن العين، يبتعد عن القلب؟

بعد أن رسمنا تدهور علاقات الإنسان مع البقرة في الغرب، هل من وسيلة لإعادة بنائها؟ يبدو أننا اختزلنا النموذج الأولي للرجولة والخصوبة والقوة إلى واهب لماء الحياة فحسب (المني)، واختزلنا الأم واهبة الغذاء للعالم، إلى آلة تدر الحليب حسب، وأما الثور القوي المطواع، فقد حولناه إلى مصنع ينتج لحوماً وجلوداً. يُنظر إلى الماشية بوصفها أشياءً تحولت مسيرتها وجُعلت على أطراف حيواتنا، وربما على هامشها. ثمة قليل منا حُبِيَ بتفاعل إيجابي مع الماشية وشهد سلوكها.

من غير المحتمل أن تلاقي الماشية المصير ذاته الذي لاقاه سلفها الأرخص، فالبشر يلحون على تناول لحومها وشرب حليبها وارتداء جلودها. لقد ترسخت الماشية في عالمنا. لكن أمضطرون نحن لأن نستخدم البقرة بهكذا أسلوب ارتزاقي؟

يتجلى العائق الأول الذي يواجه عملية إعادة بناء العلاقة المهدورة بين البقرة، وبني الإنسان في جعل البشر يمعنون بمزيد في التفكير بها، فما بالك فيما يتصل بعاداتهم الغذائية والتسويقية التي تمارس نفوذها على حياة ذلك الحيوان. وفي الوقت الذي يجعلنا فيه صُنّاع رسوم متحركة، مثل غاري لارسون نضحك ملء الشدقين على البقرة (نعم لأنها مضحكة بفطرتها)، من الأهمية بمكان أن نأتي بالأطفال، والمراهقين إلى البقرة الحية الحقيقية بوصفها جزءاً من سيرورة تعليمهم، فهم رغم كل شيء، متسوقو المستقبل ومستهلكوه.

إنه لأمر جوهري، أن نعرف ما نريده من الماشية. فحالما نقر به، ستنال احترامنا من جديد، وهذا مؤكد. علينا أن نشجع أيام المزارع المفتوحة ومزارع المدنوالمدارس، ونحث على زيارتها وهذا ما سيقوّم- وكلنا رجاء- الكثير من المفاهيم المغلوطة التي تحيط



العجل العنقاء،
الذى نجا من
مذبحة جرت لمنع
انتشار مرض الفم
والقدم في ديفون.
إنجلترا 2001. هل
يا ترى هو الأقرب
للبقرة الصوفية
الحديثة؟

بالبقرة، مثل: مصدر حليبها الذي من المؤكد أنه لايأتينا من المحلات التجارية[ccxxiv]!

يحتاج الأطفال لأن يتعلموا المزيد عن الأبقار غير خوارها. تجسد أسلوب جديد في إعادة ربط ابن المدينة الساذج مع البقرة من خلال تطويع قوة الإعلام. فقد قدّم الموقع الإلكتروني الأمريكي Cow Cam (لسوء الحظ أنه لم يعد موجوداً) وجهة نظر للحياة من خلال عين ثور اللونغهورن عبر آلة تصوير لاسلكية ثبتت في ربطة رقبته. وأعلن الموقع بفخر «هي التجربة الأولى في تاريخ الأبقار...إنها كاميرا البقرة» كما وفر الموقع آلات تصوير لأبقار حقيقية حية تظهر على الإنترنت، تم تناولها من وجهة نظر البقرة ذاتها، حيث كتب في الموقع «اقرؤوا المدونات الإلكترونية وراقبوا الأبقار، وكونوا جزءاً من حياتها اليومية»[ccxxv].

وفي الوقت الذي ما يزال هناك فيه بشر يهتمون بالحفاظ على التاريخ الثقافي للبقرة والثور البري والثور الداجن ونشره بين الجماهير، ثمة فرصة أن تبقى هذه الحيوانات جزءاً من إرثنا البشري. تعمل منظمات لاتسعى وراء الأرباح مثل: the American Livestock Breeds Conservancy الأمريكيةوRare Breeds Survival Trust الإنجليزية، بكل جد للحفاظ على سلالات الماشية المهددة بالإنقراض، ولا سيما تلك التي لها جمعيات تاريخية أو ثقافية في مناطق أو بلدان بعينها.

إذاً هل يمكن القول بمستقبل سعيد للماشية؟ أوَ يمكن أن ننشئها من جديد على الحبوب والمزر (الجعة) وندلّكها بالساكي[1] مثل ماشية فاجيو اليابانية التي تنتج طبق لحوم الكوبي الفاخر؟ لا!

(1) Sake مشروب كحولي تقليدي في اليابان، (المترجم).

بكل تأكيد. لكننا نتحمل مسؤولية جلبها إلى الوجود وقتل أسلافها البريين في هذه السيرورة. لقد لعبت تلك الحيوانات دوراً كبيرا في تشكيل الحضارات القديمة، وعالمنا الحديث. أحياناً نحتاج إلى التذكير كي لاننسى.

الجدول الزمني للبقر

2 مليون عام قبل الميلاد

تطور بوس بريمجينيوس أو « الأرخص» السلف الأول للماشية الداجنة في آسيا

250000 قبل الميلاد

الأرخص يصل إلى أوروبا بعد هجرته إلى منطقة الشرق الأوسط وشمال شرقي إفريقية

من 6000 إلى 4000 قبل الميلاد

تدجين البشر حيوان الأرخص في ثلاث مناطق مختلفة من العالم القديم

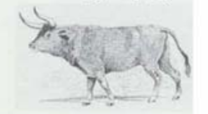
3200 قبل الميلاد

تطور في بلاد الرافدين، رمز بات، نموذجاً للإشارة إلى كلمة « ثور» بالإضافة إلى اختراع المحراث وعربة الثور



1627

آخر حيوانات الأرخص يقضي في بولندا، يسجل هذا النوع من الحيوانات أول حالة موثقة عن انقراض الحيوانات.



1647

بولوس بوتر يبدع مثال رسومات الماشية « الثور»

1726

بات فرنشيسكو روميرو عرّاب مصارعة الثيران الحديثة، الذي بدأها بتقنية القتال وقوفاً على القدمين وليس على ظهر الجواد

ثمانينيات القرن التاسع عشر

ربرت بيكويل « ينتج» سلالة ماشية لونغهورن المُحسنة التي عجّلت بصناعة الماشية البريطانية



1932

ظهور رواية إرنست همنغواي « موت في الظهيرة». عدها العديد كمقدمة لرواية كوريدا

ستينيات القرن العشرين

الأبقار الإسمنتية تظهر في ميلتون كينز

1994

مذبحة رواندا توجت عقوداً من النزاعات بين مجموعات الهوتو، والتوتسي التي يتجذر تاريخها في قضايا تتعلق بملكية الماشية



2500 قبل الميلاد

بدأت تجارة تصدير الماشية بين الشرق الأدنى والهند وإفريقيا

1500 قبل الميلاد

آريون جاؤوا بآلهتهم الثيران التي يعدونها مصدر الخلق، كما جاؤوا بالبقرة إلى الهند، مامارس تأثيراً كبيراً على الأدب الهندوسي



50 قبل الميلاد

يوليوس قيصر يواجه «الأرخص» في ألمانيا. فارو ريتينوس يصف الماشية الداجنة أنها «أصل النقود»

1086

وحدة قياس استخدمت في كتاب Domesday Book، تأسست على معدل عمل فريق من ثيران تحرث الأرض

عام 1788

أول دفعة ماشية تصل إلى أستراليا في بورت جاكسون مع أول مساجين إنجليز إلى المستعمرة البريطانية

عام 1835

حظر تعذيب الثيران في إنجلترا



عام 1867

أول ثيران لونغهورن تُساق إلى شيشولم تريل وتؤشر لبداية ازدهار لحوم ماشية الولايات المتحدة الأمريكية

عشرينيات القرن العشرين

هينز ولوتز هيك يحاولان إعادة خلق حيوان الأرخص من « أشكال بدائية» من الماشية الداجنة

1994

هرمونات تساعد على نمو الأبقار، تستخدم في الولايات المتحدة الأمريكية لزيادة غلة حليب الأبقار الحلابة

1996

صادرات لحوم بسي هالتس البريطانية

1999

بيت ستيرشي ينشر روايته «The Cow»

2006

حظر أقفاص العجول في دول الاتحاد الأوروبي، وولاية أريزونا الأمريكية

قائمة الكتب المرجعية

Aldred, Cyril, The Egyptians (London, 1998)

Anthony, D. J., and W.G.T. Blois, The Meat Industry, 2nd edn (London, 1931)

Balter, Michael, The Goddess and the Bull (London, 2005)

Berresford Ellis, Peter, A Brief History of the Celts (London, 2003)

Bradley, D. G., 'Genetic Hoof Prints: The dna Trail Leading Back to the Origins of Today's Cattle Has Taken Some Surprising Turns Along the Way', Natural History (February 2003)

Burt, Jonathan, Animals in Film (London, 2002)

Clutton-Brock, Juliet, A Natural History of Domesticated Mammals (London, 1999)

Conrad, Jack Randolph, The Horn and the Sword: The History of the Bull as a Symbol of Power and Fertility (London, 1959)

Cotterell, Arthur, The Minoan World (London, 1979)

Critchell, J. T., and J. Raymond, A History of the Frozen Meat Trade (London, 1912)

Cronon, William, Nature's Metropolis (London, 1991)

Davis, Simon J. M., The Archaeology of Animals (London, 1987)

Daix, Pierre, Picasso: Life and Art, trans. Olivia Emmet (London, 1993)

deJohn Anderson, Virginia, Creatures of Empire: How Domesticated Animals Transformed Early America (Oxford, 2004)

Dobie, J. Frank, The Longhorns (London, 1943)

—, Cow People (Texas, 1964)

Evans-Pritchard, E. E., The Nuer (Oxford, 1974)

Ford, Brian J., bse: The Facts (London, 1996)

Fraser, Alan, The Bull (Reading, 1972)

Frazer, J. G., The Golden Bough: A Study in Magic and Religion, abridged edn (reprinted London, 1987)

Galaty, J. G., and P. Bonte, eds, Herders, Warriors and Traders: Pastoralism in Africa (Oxford, 1991)

Galton, Francis, The Art of Travel, 1872 (reprinted London, 1971)

Grandin, Temple, Animals in Translation (London, 2005)



نبذة عن المؤلفة :

كاتبـة أمضت قسطاً كبيراً من حياتهـا ترافق الأبقار والثـيران في محطات الماشيـة الأسترالية ومراكزها ومـزارع الألبـان البريطانية. وتعد خبـيرة في تاريخ الحيوانـات وعلاقتهـا بالإنسان، ولهـا في ذلك العديد من الكتب، كما تعيش الآن في إيست سوسيكس.

نبذة عن المترجم:

من مواليد مصياف، سوريا، عام 1962م. حاصل على شهادة البكالوريوس في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة دمشق، وعمل سابقاً أستاذاً محاضراً للغة الإنجليزية، ومحرراً ومترجماً.

له العديد من الترجمات المنشورة والمؤلفات في صحف عربية.

Sherratt, Andrew, 'Plough and Pastoralism: Aspects of the Secondary Products Revolution', in Ian Hodder, Glynn Isaac and Norman Hammond, eds, Pattern of the Past: Studies in Honour of David Clarke (Cambridge, 1981)

Schlosser, Eric, Fast Food Nation (London, 2001)

Shubert, Adrian, Death and Money in the Afternoon (Oxford, 1999)

Sinclair, Upton, The Jungle (New York, 1906)

Singer, Peter, Animal Liberation, 2nd edn (London, 1995)

Skaggs, Jimmy M., Prime Cut: Livestock Raising and Meatpacking in the us (College Station, tx, 1986)

Smith, Andrew B., Pastoralism in Africa: Origins and Development

Ecology (London, 1992)

Starkey, Paul, 'The History of Working Animals in Africa', in R. M.

Blench and K. MacDonald, eds, The Origins and Development of African Livestock (London, 2000)

Sterchi, Beat, The Cow (London, 1988)

Swabe, Joanna, Animals, Disease and Human So-

ciety (London, 1999)

Taylor, Lonn, and Ingrid Maar, The American Cowboy (Washington, dc, 1983)

Thomas, Keith, Man and the Natural World: Changing Attitudes in England, 1500–1800 (London, 1983)

van Vuure, Cis, Retracing the Aurochs (Sofia and Moscow, 2005)

Webster, John, Understanding the Dairy Cow (Oxford, 1987)

Wünschmann, A., 'The Wild and Domestic Oxen', in Grzimek's Animal Life Encyclopedia, vol. xiii: Mammals iv (New York, 1972)

جمعيات ومواقع إلكترونية

قسم علوم الحيوان في جامعة ولاية أوكلاهوما-

www.ansi.okstate.edu/breeds/cattle

وصف لسلالات الماشية في العالم

بازار الأبقار

• www.bovinebazaar.com/breedassoc.htm

قائمة شبه كاملة لسلالة الماشية العالمية

جمعيات أخرى

www.ggloucesteracattle.org.uk

www.irishmoiledcattlesociety.com

www.lincolnredcattlesociety.co.uk

www.longhorncattlesociety.com

انظر مراجع لمواقع إلكترونية، مقترحة بالإضافة إلى:

/www.aurochs.org/cows/famous

قائمة تضم أبقاراً شهيرة وروابط معها

www.crazyforcows.com

موقع للعموم لمحبي الأبقار. موقع يعدّ نقطة انطلاق للعديد من روابط الشبكة الإلكترونية ذات الصلة بالأبقار

www.prairieoxdrovers.com

محبو الثيران الكندية. العديد من الروابط ذات الصلة مع الثيران

www.ciwf.org.uk

التعاطف في موقع الزراعة العالمية

http://members.tripod.com/animom/bull.html

الوحشية المتطرفة لمصارعة الثيران- موقع معادٍ لمصارعة الثيران

www.iscowp.org

الجمعية الدولية لحماية الأبقار

كلمة شكر

بداية، أشكر جوناثان برت على تشجيعه الذي غمرني به، ونصحه الذي أغدقه، وأقر بفضله عليّ وعلى الكتاب الذي لم يكنٍ ليرى النور دونه. كما أشكر هاري جيلونيس على صبره وتأنيه. أخيراً لابد من كلمة امتنان أوجهها لغرانت شريفز ولوالديّ، تيم وبولين اللذين أعدهما بالكف عن الخوض في موضوع الأبقار.

أهدي كتابي هذا إلى روح شقيقي كريستيان فيلتين الذي انطلق بحثاً عن المستكشف الاسكتلندي مونغو بارك في مجاهل إفريقيا، وفُقد هناك في آذار من عام 2003 . فلتحفظه تلك الأبقار الأثيرة الفريدة وتشمله برعايتها.

شكر، وامتنان للذين أغنوا الكتاب، بالصور والمادة الوثائقية

تعبر المؤلفة والناشرون على حد سواء عن جزيل شكرهم، وامتنانهم للمصادر التي أمدتهم بالصور، والمادة الوثائقية، أو لتلك التي أتاحت لهم إعادة إنتاجها. (نورد هنا أسماء المصادر التي أغفلنا ذكرها سواء في الصور، أم تعليقاتها وذلك بدافع الإيجاز)

Photo Seth N. Anderson: p. 92; Archaeological Museum of Herakleion: pp. 40, 50; Acropolis Museum, Athens: p. 41; Albright-Knox Art Gallery, Buffalo: p. 90; photo courtesy of the artist (Michael J. Austin) / Park Walk Gallery, London: p. 6; drawings by the author: pp. 11, 99; photo Leonardo Beraldo: p. 165; Bibliothèque Nationale de France, Paris: p. 81; British Library, London: pp. 102 (ms 42130f.170), 128 (ms Royal 2.b.vii.f.75), British Museum, London: pp. 24-25, 32, 117 (bm Orient 533); Cairo Museum: p. 71; photo Frans Devriese: p. 113; Egyptian Museum, Cairo: p. 68; photo Porter Glendinning: p. 38; photo Naveen Jamal: p. 170; Karachi Museum: p. 22; photo courtesy of John Kenny / Sparshatt Galleries, London: p. 9; photo Mark Kerrison: p. 78; Koninklijk Kabinet van Schilderijen 'Mauritshuis', Den Haag: p. 87; Kunsthistorisches Museum, Vienna: p. 83; photo Enrico Laçet: p. 18; photos Library of Congress, Washington, dc, Prints and Photographs Division: pp. 27 (British Cartoon Prints

Collection, lc-uszc4-3147), 28 (lc-usz62-100542), 33 (lc-uszc4-10065), 51 (lc-usz62-102085), 62 (lc-uszc4-6784), 64 (lcusz62-91677), 69 (lc-usz62-113356), 85 (lc-usz62-112640), 94 (lc-usz611026), 103 (photo Fred Niblo, LC-DIG-ppmsca-04931), 104 foot (photo John F. Jarvis, lc-usz62-64854), p. 109 (lc-usz62-72566), 121 (lc-usz6294687), 132 (British Cartoon Prints Collection, lc-usz62-132986), 139
lc-usz62-97324), 141 (American Folklife Centre,)
lc-usz62-2669), 144 (photo F. M. Steele, lc-usz62-55219), 145 (lc-usz62-106852), 146 (lcusz62-89989), 152 (Frank and Frances Carpenter Collection, lc-usz6299484), 173 (lc-usz62-51759), 174 foot (lc-usz62-51781); reproduced courtesy of the Montana Stockgrowers' Association and the Montana Historical Society: p. 150; Musée du Louvre, Paris: pp. 35, 48; Musée Eugène Boudin, Honfleur: p. 47; Museo Capitolino, Rome: p. 42; Musée d'Orsay, Paris: p. 63; Museo Nazionale, Naples: p. 29; National Gallery of Scotland, Edinburgh: p. 129 (top); National Museum, Athens: p. 49; National Museum, Copenhagen: p. 43; photo 123 oochappan: p. 54 (www.pbase.com/oochappan); Palace Museum, Beijing: p. 98; Palazzo Ducale, Venice: p. 39; photo Colin Gregory Palmer: p. 162 (www.Colin GregoryPalmer.net); photos Rex Features: p. 106 (Rex Features / Sipa Press, 203792c),

116 (Rex Features / Pacific Press Service, 94255d), 122 (Rex Features / K. Nomachi, 294915be), 124 (Rex Features / Paul Grover, 538263m), 163 (Rex Features / Greg Williams, 260105a), 167 (Rex Features / Simon Townsley, 238999a), (Rex Features / Richard Austin, 335879e); photo Tim Robson: p. 151; Roger-Viollet: p. 174 top (3960-10, courtesy of Rex Features); photo Richard Shilling: p. 79; Solomon R. Guggenheim Museum, New York: p. 89; photo Hartmut Ulrich: p. 123; photo John Warburton-Lee photography: p. 119; photo Ellen Wallace / Zidao Communication, Switzerland: p. :74; collection of Jan Wichers, Hamburg
.p. 75; photo Matthew Winterburn: p. 95

هوامش

---

i تبعا لإحصائيات منظمة الأغذية والزراعة العالمية في الولايات المتحدة الأمريكية (الفاو) لعام 2005. /http://faostat fao.org/site/396 default.aspex (أرقام إنتاج الحيوانات الحية) (تم الوصول إلى هذه الإحصائيات في الأول من أكتوبر من عام 2006)

ii A Wunschmann»The Wild and Domestic Oxen» in G. frzimek›s Animal Life Encyclopaedia, vol xiii: Mammals iv (New York, 1972) p368.3

iii لمزيد من الإطلاع يرجى الرجوع إلى القائمة كاملة في .www.arrakis es/ eledu/justcows.htm

iv See « Cattle and the Global Environmental Crisis chapter in Jeremy Rifkin, Beyond Beef: Th and Fall Rise and Fall of the cattle culture (London, 1992) pp. 185-230

v انظر متحف باليونتولوجيسك، جامعة أوسلو موقع على الشبكة الإلكترونية

www.toyen.uio.no/palmus/galleri/montre/english/a31922. htm (accessed 30 August 2006)

vi Daniel G Bradley, « Genetic Hoof prints: The DNA Trail Leading Back to the Origins of Today›s Cattle Has Taken Some surprising Turns Along the Way» Natural History (February 2003)

vii انظر أبحاث آر شويلتي لماشية منطقة كامارغو لمزيد من التبصرات في السلوكيات المحتملة وشخصية حيوان الأرخص في فونشمان. « The Wild and Domestic Oxen» pp332-4. انظر أيضاً كتاب توماس بيويتش « A general History of Quadrupeds (Newcastle Upon Tyne, 1790) pp 38-41

viii Andre Leroi-Gourhan «Animals of the Old Stone age» in A Houghton Brodrick, ed Animals in Archaelogy (London 1972) p. 8

ix Wunschen. « The Wild and Domestic Oxen›. P 370

x Quoted in Cis van Vuure, Retracting the Aurochs (Sofia and Moscow, 2005) p 240

xi Caroline Grigson (1981) cited in Simon J. M.Davis, The Archaelogy of Animals (London 1987) p. 175

xii انظر آراء ليندا دونلي –ريد وإيان هودر حول رمزية حيوان الأرخص في كاتال هيوك تركيا، وفي كتاب مايكل بالتر The Goddess and The Bull (London, 2005) pp. 323-4

xiii النقش رقم 34 من موشور مثمن وشظايا (كِسر) من الفخار اكتشفت في كالاه- شيرغات، وهي الآن في المتحف البريطاني وهو مترجم. H.Rawlinson, at www.bible-history.com/assyria_archaelogy/archaelogy_of_ancient_ assyria_text-tiglath_pileser_i.html(accessed 22 May 2006

xiv H. Epstein and Ian L. Mason, « Cattle in Mason, ed., Evolution of Domesticated Animals (London, 1984) p.8

xv للاطلاع على تقرير كامل لهذا الحدث انظر www.nefertiti.iwebtimeline/topics/fishing/_and_.htm (accessed 11 May 2006) land.com/

xvi ساهم الصيد في انقراض تلك الحيوانات من مصر، لكن ثمة أسباباً أخرى من بينها الجفاف لسهول السافاناة الخصبة وجفاف الأنهر والمسيلات. لقد توجب على حيوانات الأرخص أن تتنافس على الكلأ والمرعى مع أسلافها المدجنة.

xvii Julius Caesar, The Gallic War, trans. Carolyn Hammond (Oxford, 1996) 6:28, pp.132-3

xviii انظر إلى الرسالة التي وجهها العالم البولندي أنتون شمينيرغر إلى

عالم الطبيعيات البولندي جسنر في كتاب فان فيور» Retracting the
Aurochs. P385

xix انظر كتاب فان فيور Retracting the Aurochs p72

xx Juliet Clutton –Brock A Natural History of Domesticated Mammals (London, 1999) P. 84

xxi F.E. Zeuner, « The History of the Domestication of Cattle: in A.E Mourant and E.F Zeuner, eds Man and Cattle : Proceedings of a Symposium on Domestication, Royal Anthropological Institute Occasional Paper no. 18 (1963) p. 10

xxii Charles Darwin, Voyage of the Beagle (reprinted New York, 2002) p. 200

xxiii Glibert White, The Natural History and Antiquities of Selborne (reprinted London, 1993). P 194

xxiv See text in Miriam Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, Vol, III (Berkeley, ca, 1980) p. 158

xxv Varro Reatinus, Varro on Farming, tran Lloyd Storr-Best (London, 1912), Book 2:1.11

xxvi شريعة حمورابي ترجمة إل. دوبليو. كينغ
http://eawc.evansville.edu/anthology/hammurabi.htm (accessed 22 may 2006)

لمزيد من النقاش عن الماشية في القوانين الفيزوغوثيكية، انظر جويس سالزبري، The Beast Within: animals in the Middle Ages (London, 1994) p 19

xxvii Bradely « genetic hoof prints

xxviii بليني الأكبر : التاريخ الطبيعي لبليني » ترجمه جي. بوستوك واتش. تي رايلي (لندن 1893) 8:70 صفحة 2328.

xxix Peter Haribson, Pre – Christian Ireland (London, 1988) p

30.

xxx Peter Berresford Ellis, A Brief History of the Celts (London, 2003) pp. 102, 142

xxxi انظر كتاب جيمس فريزر « الفصن الذهبي»: دراسات في السحر والدين» اختصر في إدنبرة (أعيد طباعته في لندن 1987) الفصل 62 ط مهرجان النار في أوروبا» الصفحات 41-609.

xxxii Gervase Markham in Joanna Swabe, Animals, Disease and Human Society (London, 1999) p 82

xxxiii Jared Diamond, Guns, Germs and Steel (London, 1998) pp 206-7

xxxvi المصدر السابق ص 213

xxxv Virginia de John Anderson, Creatures of Empire: How Domesticated Animals Transformed Early America (Oxford, 2004) p 77

xxxvi المصدر السابق الصفحات 107-8

xxxvii نسبة إلى العائلة الإيطالية Farnese

xxxviii هيرودت « التاريخيات» ترجمة أوبري دي سيلينكورت (لندن 1996) 111 :3 الصفحة 197

xxxix المصدر السابق 4: 69 الصفحة 237

xl ملحمة جلجاميش، ترجمة أندرو جورج (لندن 2000) الصفحة 2

xli W.M.O›Neil, Early Astronomy from Babylonia to Copernicus (Sydney, 1986) p 154

xlii See Cyril Aldred, The Egyptians (London, 1989) p 77

xliii هيرودت «تاريخيات» 3:28 الصفحة 165

xliv See Jack Randolph Conrad, the Horn and The Sword : The History of the Bull as a Symbol of Power and Fertility (London, 1959) p. 54

xlv Ralph T. H. Griffith, trans., The Hymn of the Rig-veda

(Senares 1889) 1: 33. 10-11

xlvi المصدر السابق 10: 103. 1.8

xlvii الغصن الذهبي الصفحة 351

xlviii الشخصية الخيالية لفاليريوس هو مشايع للمثريين في كتاب ماندا سكوت (Boudica: Dreaming The Bull) London, 2004 سيما الصفحات 37-224 حيث يحاول فاليريوس أن يحول دون أن يقع إلهه على شكل ثور في شرك.

xlix Pliny the Elder Natural History : A Selection, trans. John F. Healy (London, 1991) p 216

i

l Berresford Ellis, A Brief History of the Celts, p. 30

li Pennethorne Hughes, Witchcraft (London, 1952) p 91.

lii Cited in Charles Squire, Celtic Myth and Legend (New York 2003) page 175

liii Virgil, The Georgics, trans. Robert Wells (Manchester, 1982) Georgic 3, pp. 68-9

liv الأساطير المينوتورية، وأساطير الثور الكريتي كما وصفت في كتاب روبرت غريفز

he Greek Myths (London, 1992) no 88 Minos and his Brothers no. 98 Theseus in Crete and no 129 The Seventh Labour: The Cretan Bull

lv See J.D.Evans, ‹ Cretan Cattle-Cults and Sprts› in Mourant and Zuener, eds Man and Cattle, pp. 150-41 and Mary Renault, The King Must Die (London, 1958) for a fictional account of ‹ The Bull Dance› held at ‹ The Bull Court› in Knossos

lvi حولت حياة لين فروست بطل العالم في ركوب الثور إلى فيلم سينمائي بعنوان «8 ثوان» في عام (1194) 1987.

lvii للاطلاع على مزيد من تفاصيل ركوب الثيران على الموقع الإلكتروني لراكبي الثيران المحترفين www.pbrnow.com.

lviii «يوم في حياة جي. دوبليو. هارت» لقاء مع بريجيت فرير. مجلة ذ سندي تايمز (12 آذار 2006).

lix للإطلاع على مزيد من المعلومات عن ركض الثور انظر www. Spanish-fiestas.com/Spanish festivals /Pamplona-bullrunning-san-fermin.htm (accessed 7 October 2006n4.

lx إرنست همنغواي «تشرق الشمس أيضا. (نيويورك 1926) الصفحات 203 -204

lxi انظر www. Jallikatu. Com/index 1. Htm (accessed 22 August 2006)

lxii انظر سباق الثيران في كتاب مايكل بالين « هيميلايا» (لندن 2004) صفحة 23

lxiii انظر المقالة على www.taipeitimes.com/News/feat/ archives/2005/03/29/2003 248 280 (accessed 22 August 2006)

lxiv Alan Baker, The Galdiator: The Secret History of Rome ‹s Warrior Slaves (London 2000) p.100

lxv See Keith Thomas, Man and the Natural World : Changing Attitudes in England 1500-1800 (London 1983) p93

lxvi Maureen Waller, 1700 : Scenes from London Life (London 2000)p 181

lxvii Cited in E.J. Burford, London : The Synfulle Cities (London 1990) p 181

lxviii المصدر السابق.

lxix Cited in Harriet Ritvo, The Animal Estate: The English and Other Creatures in the Victorian Age (Cambridge, MA 1987) pp 125-6

lxx See Keith Tester, Animals and Society (London, 1992)pp. 101-9

lxxi Pliny the Elder The Natural History of Pliny 8:70. P 2329

lxxii John Richardson, A Life of Picasso, vol.ii (London, 1996) p 242

lxxiii Adrian Shubert, Death and Money in the Afternoon (October 1999) p[. 8

lxxiv See Gary Marvin, bullfight (Oxford, 1988) pp87-8

lxxv المصدر السابق

lxxvi إرنست همنغواي. موت في الظهيرة»(لندن 1931) الصفحة 94

lxxvii See Pierre Daix, Picasso: Life and Art, tran. Olivia Emmet (London 1993) pp. 230-31

lxxviii Jonathan Burt, Animals in Film (London 2002) pp 119 and 133

lxxix Thomas, Man and the Natural World, p 118

lxxx المصدر السابق الصفحة 98

lxxxi Beat Sterchi, The Cow (London 1999) p 87.

lxxxii Ogden Nash, I Wouldn›t Have Missed It (London, 1983) p 19.

lxxxiii See E.O. James, The Ancient Gods (London, 1999) pp. 85-6

lxxxiv من أجل الإطلاع على الفروق الحديثة للفلكلور المرتبط بالبقر، انظر كتاب مارلين نيومان Myron›s Magic Cow (Bath. 2005)

lxxxv لمزيد من الاطلاع والتفصيلات حول البقرة دايسي زوروا موقعw ww.chicago history.org/fire/oleary. 8

lxxxvi Jack Malven, ‹ Cow-tipping Myth Hasn›t Got a Leg To Stand On› The Times (5 November 2005) p5

lxxxvii للمزيد من المعلومات يمكنك زيارة

www.swissinfo.org/wng/ travel/detail/Locking_in_canton_valaise.html?siteSect=411&sid=1760102&cKey=1050223500000 (accessed 22 August 2006)

lxxxviii «Mother instinct Makes Sucklers a Real Threat» farmers Weekly, « Farm Health and safety Supplement› (11 October 2002) p s8.

lxxxix Griffith trans, Hymns of The Rig-Veda, !:153.3.

xc Deryck O. Lodrick, Sacred Cows, Sacred Places (London, 1981) pp. 52-3.

xci المصدر السابق الصفحة 67

xcii مقتطفات من أنديرا غاندي في أوريانا فالاسي « انقلاب أنديرا» نيويورك ريفيو أوف بوكس 18 أيلول 1975.

xciii انظر فصل Mother Cow في كتاب مارفن هاريس Cows, Pigs, Wars and Witches (New York, 1989) للاطلاع على وجهات نظره عن « عبادة البقرة» الحديثة في الهند.

xcic Norman Lewis, A Goddess in The Stones: travels in India (London, 1991) p, 38.

xcv Sterchi, The Cow p 95.

xcvi White, The Natural History and Antiquities of Selborne, p 32

xcvii تشارلز، دومبي والولد (أعيدت طباعتها في لندن 2002) الصفحة 320.

xcviii D.H.Lawrence, Reflections on the Death of a Porcupine (Philadelphia, pa, 1925) pp. 203, 164 and 166 (respectively).

xcix المصدر السابق الصفحة 167

c المصدر السابق الصفحة 166

ci المصدر السابق الصفحة 176

cii المصدر السابق الصفحة 167

ciii المصددر السابق الصفحة 165

civ Norman MacCaig, Collected Poems (London, 1993) p.117.

cv Cited in William Vaughan, British Painting: the Golden Age (London, 1999) p 154

cvi Cited in Hilda Kean, Animal Rights (London, 1998), p 49

cvii للإطلاع على مزيد من التوصيفات للدور الرمزي للفتيات اللواتي يعملن في منشآت الحليب والألبان في طقوس عيد أيار الذي يقام في المدن انظر كتاب تشارلز فيثيان أدامز «

Milk and Soot: The Changing Vocabulary of a Popular Ritual in Stuart and Hanoverian London» in Derek Fraser and Anthony Sutcliffe, eds, The Pursuit of Urban History (London, 1983

cviii Thomas Hardy, Tess of the D› Urbervilles (reprinted London 1985) p 176

cix المصدر السابق الصفحة 208

cx See «Cattle» chapter in Philip Hook and Mark Poltimore, Popular Nineteenth Century Paintings: A Dictionary of European Genre Painters (London, 1986).

cxi See Mariet Nestermann, The Art of the Dutch Republic 1585-1718 (London, 1996) pp. 107-8

cxii See Colin Rhodes, Primitivism and Modern Art (London 1997) pp 144-5

cxiii Mark Rosenthal, Franz Marc (Munich, 1989) pp 20-21

cxiv John Betheman, « Collected Poems (reprinted London, 2000) p 20

cxv للإطلاع على الموقع الرسمي «للكاوباريد» زوروا الموقع .www

cowparade.com.

cxvi See Edward McPherson, Buster Keaton: Tempest in a Flat Hat (London, 2004) pp 168-71.

cxvii Nel Dunn, Poor Cow (reprinted London, 1988) p. 141

cxviii See Andrew Sheratt, « ploigh and pastoralism: Aspects of the secondary Products Revoluton, in Hodder, Glynn Issac and Norman Hammonds eds, Pattern of the Past : studies in Honour of Davis Clarke (Cambridge, 1981) pp. 261-301

cxix Cited in Garry Marvin, Bullfight (Oxford, 1988) p91

cxx Hesiod, The Works and days, trans. Richmond Lattimore (Ann Arbor, mi 1959) 437-40, p 71..

cxxi Ibid 814-16 p 155

cxxii Virgil The Georgics, trans. Robert Wells, Georgic 3 pp 66-7

cxxiii VarroReatinus on Farming, Book 1:20.1.

cxxivColumella, On Agriculture, vol. iii, trans E.S. Forster and Edward H. Heffiner (Cambridge, 1954) 6: 1:1 -2. P. 125

cxxv Paul Starky

cxxvi John Lockwood Kipling, Beast and Man in India, cited in J.Frank Dobie, The Longhornes (London 1943p. xiii

cxxvii Cited in Anderson, Creatures of Empire: How Domisticated Animals Transformed Early America. p 145.

cxxviii R. Welldon Finn, Domesday Book: A Guide (Chichester, 1983) p 66

cxxix W.H.R. Curtler A Short History of English Agriculture (Oxford 1909) p. 16

cxxx See ‹Ox› entry at www.bestiary. Ca/beasts/beastalphahort. htm (accessed 24 May 2006).

cxxxi Aesop, The Complete Fables (reprinted London, 1971) p 58

cxxxii Frazer, The Golden Bough, p 466

cxxxiii Francis Galton, The Art of Travel (reprinted London, 1971) p 58,

cxxxiv Ibid, p 60

cxxxv Ibid., p 64

cxxxvi Ibid pp 252-3

cxxxvii Cited in Christopher Hibert, Africa Explored: Europeans in the Dark Continent, 1769-1889 (London, 1982) p 237

cxxxviii See E.E.Evans-Pritchard, The Nuer (Oxford, 1974), p.49

cxxxix See discussion in the Introduction of Jonathan Mtetwa, Man and Cattle in Africa (Saarbrucken, 1982)

cxl Philip M. Peek and Kwesi Yankah, eds, African Folklore: An Encyclopedia (London, 2004) p 4

cxli Ibid., p 79

cxlii Derrick J. Stenning, ‹ Africa: The Socila Background›, in Mourant and Zeuner, eds Man and Cattle, p112

cxliii Michael E. Meeker, The Pastoral Son and the Spirit of Patriarch: Religion, Society and Person among East African Stock keepers (Madison, wi, 1989) p 18

cxliv Cited in Melville J. Herskovits, The Cattle Complex in East Africa (n.p., 1927) p 72

cxlv جيمس فريزر «الغصن الذهبي»

cxlvi Taken from Patrick Cunningham, ‹Maasai Rite of Passage›, Geographical, Lxxviii/3 (March 2006) pp 26-32

cxlvii See Mtetwa, Man and Cattle in Africa, 99230-1

cxlviii See Martin Meredith, The State of Africa: A History of Fifty

Years of Independence (London, 2005) p. 158

cxlix Terrence McCabe, Cattle Bring Us to Our Enemies (Ann Arbor, mi, 2004) p 93. 33

cl Ibid., p 94

cli John Illife, Africans: the History of a Continent (Cambridge, 1995) p 210

clii See Mtetwa, Man and Cattle in Africa, pp.11-12.

cliii Diamond, Guns, Germs and Steel, p 186

cliv Figures from M. Mackenzie, The Empire of Nature: Hunting, Conservation and British Imperialism (Manchester, 1988) p 241

clv Figures cited in « Inner Mongolia near Starvation› bbc Online, 25 Juanuary 2001, http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/asia-pacific//1135850.stm

clvi Henri Misson, Memoirs and Observations of Travels over England (London, 1719) pp.310-11

clvii Cited in Richard Perren, The Meat Trade I Britain, 1840-1914 (London, 1978) p.32

clviii Cited in Raymond B. Becker, Dairy Cattle Breeds (Gainesville, fl, 1973), p.64

clix Cited in Stephen Hall and Juliet Clutton-Brock, Two Hundreds Years of British Farm Livestock (London 1989) p.63

clx Becker, Dairy Cattle Breeds p 64

clxi Reverend Arthur Young, General View of the Agriculture of the County of Sussex (London, 1813) p228

clxii Ben Rogers, Beef and Liberty: roast Beef, John Bull and the English Nation (London 2004) p. 15

clxiii للإطلاع على التاريخ الكامل لسلالة ثورتهورنز انظر
www.shorthorn.co.uk/beef_shorthorn/history.htm.

clxiv Cited in Harriet Ritvo, The Animal Estate: The English and Other Creatures in The Victorian Age, p56

clxv Ibid., see « the Critique of Fat Cattle›, pp69-79

clxvi Cited in Wiliam Vaughan, British Painting: The Golden Age (London, 1999)p 165

clxvii James Dickson, «On the Application of the Points by which Livestock are Judged›, Quarterly Review of Agriculture, vi (1835/6) p 269

clxviii Cited in Perren, The Meat Trade in Britain, p32

clxix See J. Frank Dobie, The Longhorns (London, 1943), p 292

clxx Cited in Clyde A.Milner ii, Carlo A.O›Connor and marth A. Sandweiss, eds, The Oxford History of the American West (Oxford, 1994) p 252

clxxi للإطلاع على وصف كامل لفناءات الماشية في شيكاغو انظر كتاب Annihilating Space فصل اللحوم في كتاب يوليام كرونون Nature›
Metropolis: Chicago and the Great West (London, 1991) pp 207-59

clxxii J. Frank Dobie, Cow People (Austin, tx, 1981) p. 32.

clxxiii Cited in Lonn Taylor and Ingrid Maar, The American Cowboy (Washington, dc, 1983)p.27,

clxxiv Andy Adams, cited in Jon E. Lewis, The Mammoth Book of The West (London, 2001) p 163

clxxv Ibid.,p 164

clxxvi George C. Duffield, ‹ Driving Cattle from Texas to Iowa, 1866› in Annals of Iowa 14 (1924) pp 252-4

clxxvii قضت تلك المذبحة التي راح ضحيتها ملايين من حيوانات الجاموس،

وفي الغالب طلباً لجلودها التي حولت دباغي فيلادلفيا إلى تجارة الجلود، على أسباب رزق الأمريكيين الأصليين ومصدر عيشهم الذين أجبرتهم الحكومة شيئاً فشيئاً على أن يتحولوا إلى government reserves. وأما توسع صناعة ماشية المراعي المفتوحة، فقد كانت المسمار الأخير الذي يدق في نعش الهنود الحمر. لمزيد من الإطلاع انظر السجالات في كتاب ربرت. في. هاين وجون ماك فراغر The American West: A New Interpretive History (New haven, ct,2000) p 317

clxxviii Cited in Lewis, The Mammoth Book of The West, p 196

clxxix Cited in Taylor and Maar, the American Cowboy, p 39

clxxx Ibid, p 36

clxxxi Ibid, p 18

clxxxii See Milner, O› Connor and Sandweiss, eds The Oxford History of the American West, pp. 266-7

clxxxiii للإطلاع على الوصف الذي تناول تقلب حظوظ ماشية اللونغهورن انظر

http:// www.tsha.utexas.edu/handbook/online/articles/LL/at12.html

clxxxiv D.J.Anthony and W.G.T. Blois, The Meat Industery, 2nd ednn(London, 1931), pp. 47-75.

clxxxv J.T. Critchell and J.Raymond, A History of the Frozen Meat Trade (London, 1912) p. 13

clxxxvi الإحصائيات التقليدية لعام 2005 (الإنتاج الرئيس للمواشي والدواجن).

clxxxvii See Robert Hughes, The Fatal Shore: A History of the Transportaion of Convicts to Austeralia, 1787-1868 (London, 1987) p 96

clxxxviii See A.G.L Shaw, The Story of Australia, 5th ed (London,

1983) p 154

clxxxix Douglas M. Considine and Glenn D. Considine, eds, Foods and Food Products Encyclopedia (New York, 1982). P 1170

cxc Faostat (classic) 2005 figures.

cxci Figures from C.J.C Philips, Principles of Cattle Production (Wallingford, 2001) p. 9 and for 2005/6 from the Milk Development Council website at www.mdcdatum.org.uk/Milk%2Supply/averagemilkyyields.htm (accessed 21 September 2006)

cxcii Steve Jones Almost Like a whale (London, 1999) p 44

cxciii John Webter, Understanding the Dairy Cow (Oxford, 1987) p22

cxciv أخذت هذه الإحصائيات من University of Reading›s department of Agricultural and Food Econimics website at www.apd,rdg.ac.uk/AgEcon/livestockdisease/cattle.htm (accessed 21 Sptember 2006)

cxcv Eric Schlosser, Fast Food nation (London, 2001) p 150

cxciv Gina Mallet, Last Chance To Eat: the Fate of Taste in a Fast Food World (Edinburgh, 2005) p 118. « The Ox is Gored› chapter discusses how beef has been tainted by health scares.

cxcvii Cited in Jimmy M. Skaggs, Prime Cut: Livestock Raising and Meatpacking in the US (College tation, tx, 1986) pp. 121-2

cxcviii Brian J. Ford, bse: The Facts (London, 1996) pp.22-3

cxcix أرقام رسمية صدرت عن موقع إدارة شؤون البيئة والأغذية والأرياف

defra على الشبكة الإلكترونية www.defra.gov.uk/animalh/bse/general/qa/section1.html#q1 (accessed 22 September 2006) كما وردت تقديرات أخرى أيضاً في كتاب مايكل. بي. إي. أولدستون. Viruses, Plagues and History (Oxford, 2000) p 163

cc للإطلاع على أعداد الضحايا انظر www.cjd.ed.ac.uk/figures.htm (as accessed 8March 2007)

cci للإطلاع على مزيد من التفاصيل انظر تقرير منظمة الفاو Cattle Ranching and Deforestation على موقع www.fao.org/ag/agianfo/resources/documents/pol-breiefs/03/EN/AGA04_EN_05.pdf,p.2

ccii Schlosser, Fast Food Nation, p150

cciii Isabella Beetonm Book of Household Management, abridged edn (reprinted Oxford, 2000) pp. 200-01.

cciv Peter Singer Animal Liberation, 2nd edn (London, 1995) p 129

ccv Alun Howkins and Linda Merricks, ‹Dewy-eyed Veal Calves: Live Animal Exports and Middle-Class Opinion, 1980-1995 Agricultural History Review, xlviii/1 (2000), p.99

ccvi انظر الصورة التي نشرتها صحيفة الإندبندت البريطانية (22 نيسان 1995).

ccvii يمكن الوصول إلى هذه المنظمة على الشبكة الإلكترونية www.animalsaustralia.org/default2.asp?idL 1=1272&idl 2=1865&idL3=1880 وهناك حملة Compassion in World Farming ضد نقل الماشية لمسافات طويلة يمكن الإطلاع عليها على الشبكة الإلكترونية www.ciwf.org.uk/ campaigns/primary campaigns/long_distance.html

ccviii لمزيد من التفاصيل عن الفيلم انظر www.petatv.com/skins.html

ccix Richard Perren, The Meat Trade in Britain, 1840-1914 (London, 1978) p33

ccx عن كتاب Voice of Humanity (1827) وورد في كتاب هلدا كين Animals Rights (London, 1998) p 62

ccxi I M Greg and S. H. Towers, Cattle Ships and our Meat Supply (London, 1894) p 3

ccxii Horace Francis Lester, Behind the Scenes in Slaughterhouses (London 1892)

ccxiii Greg and Towers, Cattle Ships and our Meat Supply, p13

Ibid. p 42

ccxv تم استيراد الماشية الحية وذبحت على أرصفة ميناء ديبتفورد، بعد أن تفشى على نحو كارثي مرض طاعون الماشية الذي جيء به إلى مدينة هل عبر ماشية قدمت من روسيا في عام 1865.

ccxvi Upton Sinclair, The Jungle (Reprinted New York, 1986) pp40-41

ccxvii المصدر السابق ص 42

ccxviii المصدر السابق الصفحة 48. في إنجلترا كان الذبح يتم بفأس الجزار الذي كان يشبه المطرقة، لكنه يختلف عنها في أنه يمتلك رزة فولاذية مجوفة في نهايتها. يقحم نوع من عصى أو خيزرانة في الثقب الذي ينجم عن الضربة لتحريض دماغ الحيوان المحتضر، يشاع أن هذه الطريقة تحسن من مذاق اللحم.

ccxix صممت الزرائب عالمة الحيوان تمبل غراندن التي قادتها تجربتها مع نزعة التوحد مع ذاتها autism (اعتلال نفس بيولوجي يؤثر سلباً على الوظائف الجسدية والمقدرات الاجتماعية واللغوية) إلى إدراك أن الحيوانات تتعامل مع العالم بوصفه معلومات حسية – المشاهد والأصوات والصور- تماماً كما تفعل هي. تتف في كتابها Animals in Translation (London 2005) عملها مع الماشية لتحسين مخازن التغذية والتسهيلات المستخدمة في عملية الذبح في غالبية المؤسسات

الأمريكية والكندية.

ccxx وردت الأمثلة في كتاب توماس :Man and the Natural World Changing Attitudes in England 1500-1800 الصفحة 48.

ccxxi Sterchi, The Cow الصفحة 354

ccxxii وردت في كتاب روجر سكروتون Animal Rights and Wrongs الطبعة الثالثة (لندن 2000) الصفحة 103

ccxxiii Wilfred Owen, The War Poems, ed. Jon Stall worthy (reprinted London, 2006) p. 12

ccxxiv موقع Farmers Weekly على الشبكة الإلكترونية www.fwi.co.uk تروي صفحات هذا المنتدى، أحياناً مفاهيم عامة مغلوطة عن إنتاج الحليب، شهد السابع عشر من أيار، من عام 2006 تعليقات تشي أن الأطفال يعتقدون، أنه لزام قتل الأبقار للحصول على حليبها. ثمة تعليق آخر ورد على لسان أم لأطفال ثلاثة، يقول إن حليبها يأتي من محلات التسوق (وليس من البقرة).

ccxxv غرابة أخرى نجدها في مذبحة لماشية تنتج لحوماً، عرضها التلفاز خلال برنامج «Kill it, Cook it, Eat it» (بي بي سي 5-3 آذار 2007) التي أظهرت السيرورات التي استخدمت عند تحويل البقرة التي تنبض حياةً إلى لحم فحسب، يوضع على طبق الطعام. أشار العديد من الحضور إلى مهارة الذبّاحين وإلى الطريقة الإنسانية التي عوملت بها الأبقار.



البقـرة.. التاريخ الطبيعي والثقافي

يستكشف هـذا الكتاب الدور الذي لعبته البقرة الخيِّرة في حياتنا، بدءاً من الحليب الذي نشربه على موائد إفطارنا، مروراً بشرائح اللحم التي نتناولها في عشائنا، وانتهاء بالأحذية الجلدية التي ننتعلها. وتميط المؤلفة، في هذا الكتاب، اللثام عن الحكاية المعقدة، التي غلفت البقـرة والثور والأرخص بخيوطها، كما تكشف عن العلاقـة الاجتماعية المتغيرة أبداً، التي ربطت الإنسان بالماشية. ويـراوح سرد المؤلفة الآسر، المدعم بالصور، بين حقول حرثتها الثيران في منطقة الشرق الأدنى العتيقة، وحلبات مصارعة الثيران في إسبانيا، حتى حلبات الروديو وسَوْق القطعان في أمريكا.







